



زِقَاتِ الْيَدَيْنِ



زقاق المدق

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "النجالة"

دار مصر للطباعة
٢٧ شارع كامل صدقي

تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف اليهود الغابرة ، وأنه تآلق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدرى .
 اى قاهرة اعنى ؟ .. الفاطمية ؟ .. المماليك ؟ السلاطين ؟ ، علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنه على اية حال اثر ، واثر نفيس . كيف لا وطريقه البلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة الى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان جدرانها بتهاويل الارابيسك ، هذا الى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذى صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد ... !

ومع ان هذا الزقاق يكاد يعيش فى شبه عزلة عما يحديق به من مسارب الدنيا ، الا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل فى اعماقها بجذور الحياة الشاملة . وتحفظ - الى ذلك - بقدر من اسرار العالم المنطوى .

آذنت الشمس بالمغيب ، والتف زقاق المدق فى غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمسيدة ، له باب على الصنادقية ، ثم يصعد صعودا فى غير انتظام ، تحف بجانب منه دكان وقهوة وفرن ، ويحف بالجانب الآخر دكان ووكالة ، ثم ينتهى سريعا - كما انتهى مجده الغابر - ببيتين متلاصقين ، يتكون كلاهما من طوابق ثلاثة .

مضت حياة النهار ، وسرى دبيب حياة المساء ، همسة هشة

وهمة هناك : يارب يامعين . يا رزاق يا كريم . حسن الختام
 يارب . كل شيء بأمره . مساء الخير يا جماعة ، تفضلوا جاء وقت
 السمر ، اصح يا عم كامل واغلق الدكان . غير يا سنقر ماء الجوز .
 اطفئء القرن يا جعدة . القص كبس على قلبى . اذا كنا ندوق
 احوال الظلام والغارات منذ سنوات خمس فهذا من شر انفسنا .
 بيد أن دكانين - دكان عم كامل بائع البسبوسة على يمين
 المدخل وصالون الحلو على يساره - يظللان مفتوحين الى ما بعد
 الغروب بقليل . ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيًا على عتبة
 دكانه - أو حقه على الأصح - ويغط في نومه والمدبة في حجره ،
 لا يصحو الا اذا ناداه زبون أو دأبه عباس الحلو الحلاق . هو كتلة
 بشرية جسيمة ، ينحسر جلبابه عن ساقيه كقربتين ، وتندلى
 خلفه عجيزته كالقبة ، مركزها على الكرسي ومحيطها في الهواء .
 ذو بطن كالبرميل ، وصدر يكاد يتكور ثدياه ، ولا ترى له رقبة .
 فبين الكتفين وجه مستدير منتفخ محتقن بالدم ، أخفى انتفاخه
 معالم قسماته . فلا تكاد ترى في صفحته سمات أو خطوط ،
 ولا أنف له ولا عينان ، وقمة ذلك كله رأس أصلع صغير لا يمتاز
 عن لون بشرته البيضاء المحمرة . لا يزال يلهث وبشخر كانه
 قطع شوطا عدوا ، ولا ينتهى من بيع قطعة بسبوسة حتى يغلبه
 النعاس . قالوا له مرات : ستموت بغتة . وسيقتلك الشحم
 الضاغط على قلبك ، وراح يقول ذلك مع القائلين ، ولكن ماذا
 يضيره الموت وحياته نوم متصل ؟ ! .

... أما صالون الحلو فدكان صغير ، يعد في الزقاق انيقا .
 ذو امرأة ومقعد غير ادوات الفن . وصاحبه شاحب متوسط
 القامة ، ميل للبداثة ، بيضاوى الوجه ، بارز العينين ، ذو شعر
 مرجل ضارب للصفرة على سمرة بشرته ، يرتدى بدلة ، ولا يفوته
 لبس المريلة اقتداء بكبار الاسطوانات !

لبث هذان الشخصان في دكانيهما في حين اخذت الوكالة الكبيرة المجاورة للصالون تغلق أبوابها وينصرف عمالها ، وكان آخر من غادرها صاحبها السيد سليم علوان ، يرفل في جيبته وقفطانه ؛ فاتجه صوب الحانطور الذي ينتظره على باب الرقاق ، وصعد اليه في وقار ، وملاً مقعده بجسمه المكتنز يتقدمه شاربان شركسيان . ودق الخوذى الجرس بقدمه قرن بقوة ، وانحدرت العربية ذات الحصان الواحد الى الغورية في طريقها الى الخلمية . واغلق البيتان في الصدر نوافلدهما اتقاء البرد ، ولاحت أنوار المصابيح وراء خصاصها ، وكاد المدق يفرق في الصمت لولا ان مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربية ، عشتش اللباب بأسلاكها . وراح يؤمها السمار ؛ هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية ، ولكنها على عفاائها تزدان جدرانها بالارابيسك . فليس لها من مطارح المجد الا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها . وعند مدخلها كان يكب عامل على تركيب مدياع نصف عمر بجدارها . وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاي . وعلى كتب من المدخل تربع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدى جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الافندية ، ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة ! وقد خلع قبقابه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال ، صامتا كالأموات ، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأنه في دنيا وحده . ثم أقبل على القهوة عجوز مهدم ، لم يترك له الدهر عضوا سالما ، يجره غلام بيسراه ، ويحمل تحت ابط يمناه ربابة وكتابا ، فسلم الشيخ على الحاضرين ، وسار من فوره الى الأريكة الوسطى في صدر المكان ، واعتلاها بمعونة الغلام ثم صعد الغلام الى جانبه ، ووضع بينهما الربابة والكتاب وأخذ الرجل يهيم نفسه ، وهو يتفرس في وجوه الحاضرين كأنما ليمتحن اثر حضوره في نفوسهم ، ثم استقرت عيناه اللابلتان الملتهبتان

على صبي القهوة سنقر في انتظار وقلق ، ولما طال انتظاره ،
ولس بجاهل الغلام له ، خرج عن صمته قائلا بصوت غليظ :
- القهوة يا سنقر ! ..

والتفت الغلام نحوه قليلا ، ثم ولاه ظهره بعد تردد دون أن
ينبس بكلمة ، ضاربا عن طلبه صفحا . وادرك العجوز اهمال
الغلام له ، ولم يكن يتوقع غير ذلك ، ولكن جاءت نجدة السماء ،
اذ دخل في تلك اللحظة رجل وقد سمع هتاف العجوز ولاحظه
اهمال الصبي ، فقال للغلام بلهجة الامر :
- هات قهوة للشاعر يا ولد ..

وحجج الشاعر القادم بنظرة امتنان ، وقال بلهجة لم تخل
من اسى :

- شكرا لله يا دكتور بوشى ..

فسلم الدكتور عليه ، وجلس قريبا منه ، وكان الدكتور
يرتدى جلبابا وطاقيه وقبقبا ! هو دكتور أسنان ، الا أنه أخذ
فنه من الحياة بغير حاجة الى مدرسة الطب او اية مدرسة اخرى .
أشتغل في بدء حياته تمورجيا لطبيب أسنان في الجمالية ، ففقه
فنه بحذقه وبرع فيه ! وقد اشتهر بوصفاته المفيدة ، وان كان
يفضل الخلع غالبا كاحسن علاج ، وربما كان خلع الضرس في
عيادته المتنقلة أليما موجعا ، الا أنه رخيص ، بقرش للفقراء
وقرشين للأغنياء (اغنياء المدق طبعاً) ، فاذا حدث نزيف - وليس
هذا بالامر النادر - اعتبر عادة من عند الله ، وترك منعه ايضا
الله ! . وقد ركب للمعلم كرشة صاحب القهوة طقما ذهبيا بجنيهين
بغير زيادة . وهو يدعى في الزقاق والأحياء القريبة بالدكتور ،
ولعله أول طبيب يأخذ لقبه من مرضاه .

جاء سنقر بالقهوة للشاعر ، كما أمر الدكتور ، فتناول
الرجل القدح وأدناه من فمه وهو ينفخ ليترد حرارته ، وراح
يرشف منه رشفات متتابعات حتى أتى عليه ، ثم نجاه جانبا .

— ٩ —

وذكر عند ذاك فحسب سوء سلوك صبي القهوة معه ، فحذجه
بنظرة شذراء وتمتم ساخطا :
— قليل الادب ..

ثم تناول الربابة يجرب أوتارها ، متحاميا نظرات الفضب
التي أطلقها عليه سنقر ، وراح يعزف مطلعها ، لبثت قهوة
كرشة تسمعه كل مساء عشرين عاما أو يزيد من حياتها ، واخذ
جسمه المهزول يهتز مع الربابة ثم تنحنح وبصق وبسمل ، ثم
صاح بصوته الغليظ :

اول ما نبدي اليوم نصلى على النبي .
نبي عربى صفوة ولد عدنان .
يقول ابو سعدة الزناتى ..

واقاطعه صوت أجش دخل صاحبه القهوة عند ذاك يقول :
— هس ! .. ولا كلمة اخرى ..

فرفع بصره الذابل عن الربابة فرأى المعلم كرشة ، بجسمه
الطويل النحيل ، ووجهه الضارب للسواد ، وعينيه المظلمتين
النائميتين ، فنظر اليه واجما ، وتردد قليلا كأنه لا يصدق
ما سمعت أذناه ، واراد أن يتجاهل شره ، فاستدرك منشدا :
يقول ابو سعدة الزناتى ..

ولكن المعلم صاح به مغيظا محنقا :
— بالقوة تنشد ١٨ . انتهى .. انتهى . الم اندرك من اسبوع
مضى ؟ !

فلاح الاستياء في وجه الشاعر ، وقال بلهجة ملؤها العتاب :
— اراك تكثر من « الكيف » ، ثم لا تجد من ضحية سواى ؟
فصاح المعلم في غضب وحنق :

— رأسى صاح يا مخرف ، وأنا أعلم ما أريد ، اتحسب انى
أذن لك بالانشاد فى قهوتى اذا ما سلقتنى بلسانك القذر ؟ .

- ١٠ -

فخفف الشاعر من لهجته مستوهبا عطف الرجل الغاضب .
 وراح يقول :
 - هذه قهوتي ايضا . الست شاعرها لعشرين عاما خلون ؟!
 فقال المعلم كرشة وهو يتخذ مجلسه المعتاد وراء صندوق
 الماركات :

- عرفنا القصص جميعا وحفظناها ، ولا حاجة بنا الى
 سردها من جديد . والناس في أيامنا هذه لا يريدون التسامر .
 وطالما طالبوني بالراديو ، وها هو ذا الراديو يركب ، فدعنا
 ورزقك على الله ..

فاكفهر وجه الشاعر ، وذكر محسورا أن قهوة « كرشة »
 آخر ما تبقى له من القهوات ، أو من أسباب الرزق في دنياه .
 يعد جاء عريض قديم . وبالأمس القريب استفتت عنه كذلك
 قهوة القلعة . عمر طويل ورزق منقطع ، فماذا يفعل بحياته ؟!
 وما جدوى تلقين ابنه البائس هذا الفن وقد بار وكسد ؟! وماذا
 يخبئ له المستقبل وماذا يضمن لعلامه ؟! اشتد به القنوط .
 وضاعف قنوطه ما لاح في وجه المعلم من الجزع والاصرار ، فقال :
 - رويدا يا معلم كرشة ، ان للهلالي لجدة لا تزول ولا يفنى
 عنها الراديو أبدا .

ولكن المعلم قال بلهجة قاطعة :

- هذا قولك ، ولكنه قول لا يقره الزبائن فلا تخرب بيتي .
 لمقد تغير كل شيء !

فقال الشاعر في قنوط :

- ألم تسمع الأجيال بلا ملل الى هذه القصص من عهد
 النبي عليه الصلاة والسلام ؟

فضرب المعلم كرشه على صندوق الماركات بقوة وصاح به :
 - قلت لقد تغير كل شيء !

وتحرك عند ذلك - لأول مرة - الرجل الجامد الداهل

— ذو الجلباب والبنيقة ورباط الرقبة والنظارة الذهبية —
 فحسد بصره الى سقف القهوة ، وتنهد من الأعماق حتى خال
 المسنمون ، يزر فرقات بده وقال بصوت كالمناجاة :
 — أه تغير كل شيء . أجل تغير كل شيء يا ستى ! كل شيء
 تغير الا قلبى فهو بحب ال البيت عامر . .

وطامن رأسه ببطء وهو يحركه ذات اليمين وذات اليسار ،
 فى حركات اخدت فى الضيق رويدا رويدا ، حتى عاد الى موضعه
 الاول من الجمود ، وغرق مرة أخرى فى غيبوبته ، ولم يلتفت
 اليه احد ممن اعتاد أحواله ، الا الشاعر ، فقد توجه اليه
 كالمستغيث وقال له برجاء :

— يا شيخ درويش ايرضيك هذا ؟

ولكنه لم يخرج من غيبوبته ولم ينبس بكلمة . وهنا قدم
 شخص جديد تعلقت به الأنظار فى اجلال ومودة ، وردوا تحيته
 بأحسن منها . كان السيد رسوان الحسينى ذا طلعة مهيبة .
 تمتد طولاً وعرضاً ، وتنطوى عباة الغضاضة السوداء على
 جسم ضخم ، يلوح منه وجه كبير أبيض مشرب بحمرة ، ذو
 لحية صهباء ، يتسع الثور من غرة جبينه ، وتقطر صفحته بهاء
 وسماحة وإيماناً . سار متمهلاً خافض الرأس ، وعلى شفثيه
 ابتسامة تثنى بحبه للناس وللدنيا جميعاً ، واختار مجلسه على
 المقعد التالى لأريكة الشاعر ، وسرعان ما رحب به الشاعر وبثه
 شكواه . ومنحه السيد أذنه عن طيب خاطر وهو يعلم بما يكربه
 وكان قد حاول مرارا أن يثنى المعلم « كرشه » عما اعتزمه من
 الاستغناء عنه دون جدوى . ولما انتهى الشاعر من شكواه طيب
 خاطره ، ووعده بأن يبحث لفلامه عن عمل يرتزق منه ، ثم غمز
 كفه بما جادت به نفسه وهو يهمس فى أذنه « كلنا أبناء آدم ، فان
 الحت عليك الحاجة فاقصد أخاك ، والرزق رزق الله والفضل
 فضله » . وزاد وجهه الجميل بعد هذا القول تألقاً ، شأن الكريم

الفاضل يحب الخير ويصنعه ، ويزداد بصنعه رضا وجمالا . كان يحرس دائما على ألا يفوته يوم من حياته دون صنع جميل . أو ينقلب الى بيته ملوما محسورا . وانه ليبعدو لحبه الخير ولسماحته كما لو كان من الموسرين الثقيلين بالمال والمتاع . وان كان في الواقع لا يملك الا البيت الآمن من الزقاق وبضعة افدنة بالمرج . وقد وجد فيه سكان بيته - المعلم كرشه في الطابق الثالث ، وعم كامل والحلو في الطابق الاول - مالكا طيب القلب والمعاملة ، حتى انه تنازل عن حقه في الزيادة التي قررها الأمر العسكري الخاص بالسكن فيما يتعلق بالطابق الاول رحمة بساكنيه البسيطين ، فكان رحمة حيث حل وحيث يقيم . وقد كانت حياته - خاصة في مدارجها الاولى - مرتعا للخيبة والالم ، فانهى عهد طلبه العلم بالازهر الى الفشل ، وقطع بين اروقته شوطا طويلا من عمره دون أن يظفر بالعالية ، وابتلئ الى ذلك - يفقد الأبناء فلم يبق له ولد على كثرة ما خلف من الاطفال . ذاق مرارة الخيبة حتى اترع قلبه بالياس أو كاد ، وتجرع غصص الالم حتى تخايل لعينه شبح الجزع والبرم ، وانطوى على نفسه طويلا في ظلمة فاشية . ومن دجنة الأحزان اخرجته الايمان الى نور الحب ، فلم يعد يعرف قلبه كربا ولا هماً . انقلب حبا شاملا وخيرا عميما وصبرا جميلا . وطأ احزان الدنيا بنعليه ، وطار بقلبه الى السماء ، وأفرغ حبه على الناس جميعا . وكان كلما نكد الزمان عننا ازداد صبرا وحبا . رآه الناس يوما يشيع ابنا من ابناؤه الى مقره الأخير وهو يتلو القرآن مشرق الوجه ، فأحاطوا به مواسين معزين ، ولكنه ابتسم لهم ، وأشار الى السماء وهو يقول : « اعطى واخذ ، كل شيء بأمره وكل شيء له ، والحزن كفر » فكان هو العزاء . ولذلك قال عنه الدكتور بوشى : « اذا كنت مريضا فالسيد الحسينى يأتك الشفاء ، واذا كنت يائسا فطالع نور غرته يدركك الرجاء ، أو محزوننا

فاستمع اليه يبادرك الهناء » ، وكان وجهه صورة من نفسه ،
فهو الجمال الجليل في أبهى صوره .

اما الشاعر فقد رضى بعض الرضا ، ووجد شيئا من العزاء ،
وترجّح تاركا الأريكة ، وتبعه الغلام وهو يلم الربابة والكتاب ،
وشد الرجل على يد السيد رضوان الحسينى ، وحيا الجلوس
متجاهلا المعلم كرشه ، ثم ألقى نظرة ازدراء على المدياع الذى كاد
العامل يفرغ من تثبيته ، وأعطى يده للغلام فجره الى الخارج ،
وغابا عن الانظار . ودبت الحياة مرة أخرى في الشيخ درويش ،
فأدار رأسه نحو الجهة التى اختفى فيها الذاهبان ، وتاوه قائلا :
— ذهب الشاعر وجاء المدياع . هذه سنة الله في خلقه .

وقديما ذكرت في التاريخ وهو ما يسمى بالانجليزية History
وتهجيتها History .

وقبل ان يختم تهجية الكلمة جاء عم كامل وعباس الحلو بعد
ان اغلقا دكانيهما : ظهر الحلو أولا ، وقد غسل وجهه ورجل شعره
الضارب للصفرة ، وتبعه عم كامل يتبختر كالمحمل ، ويقتلع
قدميه من الأرض اقتلاعا ، وسلمما على الحاضرين ، وجلسا جنبا
لجنب ، وطلبا الشاى ، ولم يكونا يحلان بمكان حتى يملأه ثرثرة .
قال عباس الحلو :

— يا قوم اسمعوا : شكنا الى سديقى عم كامل قال : انه
عرضة للموت في أية لحظة ، وانه اذا مات فلن يترك ما يدفن به .
فقال بعض الحاضرين متهمكما :

— أمة محمد بخير .

وقال البعض الآخر :

— ان له لتركه من البسبوسة تكفى لدفن أمة بأسرها .

وضحك الدكتور بوشى وخاطب عم كامل قائلا :

— لا تفتأ تذكر الموت . وتالله لتدفننا جميعا بيديك .

فقال عم كامل بصوت رفيع برىء كالأطفال :

- ١٤ -

- اتق الله يا شيخ ، أنا رجل مسكين ..

واستطرد عباس الحلو قائلا :

- يا قوم : عزت على شكاة عم كامل ، ولبسبوسته فضل علينا جميعا غير منكور . فابتعت له كفنا احتياطيا ، واحتفظت به في مكان حريز لساعة لا مفر منها ، (والثفت الى عم كامل قائلا) : هذا سر أخفيتك عنك ، وها أنا أعلنه على الملأ ليكونوا على شهودا . فابدى الكثيرون اغتباطهم ، متصنعين الجذ ، ليجوز الكلام على عم كامل المشهور بسرعة تصديقه ، وأثنوا على مروءة الحلو وكرمه ، وقالوا : إن هذا صنيع خليك به نحو الرجل الذي يحبه ويساكنه شقة واحدة ، ويشاطره العيش كأنه من لحمه ودمه ، حتى السيد رضوان الحسيني ابتسم راضيا ، حتى جعل عم كامل ينظر الى الشاب في سداجة ودهشة ويقول متسائلا :

- أحقا ما تقول يا عباس ؟ !

فقال الدكتور بوشى :

- لا يداخلك الشك يا هم كامل . لقد علمت بما يقول صاحبك ، ورأيت الكفن بعينى رأسى ؛ وهو كفن قيم وددت لو يكون لى مثله .

وتحرك الشيخ درويش للمرة الثالثة فقال :

- حظ سعيد . الكفن سترة الآخرة . يا كامل تمتع بكفنك قبل أن يتمتع بك . ستكون طعاما مريئا للدود ، فيرعى لحملك الهش مثل البسبوسة فيسمن وتصير الدودة كالضفدعة ، ومعناها بالانجليزية Frog وتهجيتها Frog .

وصدق عم كامل ، ومضى يسأل الحلو عن نوع الكفن ولونه وعدد أدراجه ، ثم دعا له طويلا ، وانبسط وحمد الله ، وارتفع عند ذلك صوت فتى آت من الطريق يقول :

- مساء الخير ..

واتجه صاحبه الى بيت السيد رضوان الحسيني . كان

القادم هو حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب القهوة . فتى في العشرين في مثل لون أبيه الضارب الى السواد ، ولكنه ممشوق القوام ، تدل ملامحه الدقيقة على الخلق والفتوة والنشاط . كان يرتدى قميصا من الصوف الأزرق وبنطلونا خاكيا وقبعة وحذاء ثقيلا ، تلوح على سيماء مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطاني ، وكان ذاك ميعاد عودته من « الأرنس » كما يسمونه ، فرمقه الكثيرون بعين الاعجاب والحسد ، ودعاه صديقه الخلو الى القهوة ، ولكنه شكره ومضى الى حال سبيله .

ساد الظلام الزقاق الا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة . ومضت الأنوار الباهتة وراء خصائص نوافذ البيت تنطفئ واحدا في اثر واحد ، وأكب سمار القهوة على الدومينو والكومي ، الا الشيخ درويش فقد أغرق في ذهوله ، وعم كامل مال رأسه على ثدييه وراح في سبات . وظل سنقر على نشاطه ، يحمل الطلبات ويرمى بالماركات في الصندوق ، والمعلم « كرشة » يتابعه بعينين ثقيلتين وهو يستشعر في خمول ذوبان الفص في جوفه ويستنيم الى سلطنة لليلة . وتقدمت جحافل الليل ، فغادر السيد رضوان الحسيني القهوة الى بيته . وتبعه بعد قليل الدكتور بوشي الى شقته في الدور الأول من البيت الثاني ، ثم لحق بهما الخلو وعم كامل . واخذت المقاعد تخلو تباعا ، حتى انتصف الليل فلم يبق بالقهوة الا ثلاثة : المعلم والصبي والشيخ درويش . وجاء نفر من المعلمين أقران المعلم « كرشة » وصعدوا جميعا الى حجرة خشبية على سطح بيت السيد رضوان ، وتحلقوا المحجرة . وبدعوا سهرة جديدة

لا تنتهى حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وخاطب سنقر الشيخ درويش قائلا بركة :

— انتصف الليل يا شيخ درويش ..

فانتبه الشيخ الى صوته ، وخلق نظارته بهدوء وجلاها بطرف جلبابه ، ثم لبسها من جديد وسوى رباط رقبتة ونهض قائما واضعا قدميه فى القبقاب وغادر القهوة دون أن ينبس بكلمة ، يخرق السكون بضربات قبقابه على بلاط الرقاق . كان السكون شاملا ، والظلمة ثقيلة ، والطرق والدروب خالية مقفرة ، فترك تقديمه مقوده ، حيث لا دار له ولا غاية ، وغاب فى الظلمة .



كان الشيخ درويش على عهد شبابه مدرسا فى احدى مدارس الأوقاف ، بل كان مدرس لغة انجليزية ! وقد عرف بالاجتهاد والنشاط ، واسعفه الحظ فكان رب أسرة سعيدة . ولما ان انضمت مدارس الأوقاف الى وزارة المعارف ، سويت حالته كثيرين من زملائه غير ذوى المؤهلات العالية ، فاستحال كاتبا بالأوقاف ، ونزل من الدرجة السادسة الى الثامنة ، وعدل مرتبه على هذا الأساس . كان من الطبيعى أن يحزن الرجل لمصيره حزنا عميقا ، وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة ، يعلنها حيناً ، ويكتمها — مقهورا مغلوبا على أمره — أحيانا . ولقد سعى كل مسعى ، وقدم الالتماسات ، واستشفع الرؤساء ، وشكا الحال وكثرة العيال ، دون جدوى . ثم استسلم للقنوط بعد أن تحطمت أعصابه أو كادت . واشتهر أمره فى الوزارة كموظف كثير التبرم والشكوى ، عظيم اللجاج والعناد ، سريع التأثر ، لا يكاد يضى يوم من حياته دون شجار أو اصطدام ، كبير الاعتماد بنفسه والتحدى للآخرين ، وكان اذا شجر بينه وبين آخر

خلاف - وكثيراً ما يحدث - تعالى استكباراً ، وخاطب خصمه بالانجليزية ، فاذا اعترض الرجل على استعمال لغة أجنبية دون موجب ، صاح به في ازدراء شديد « تعلم أولاً ثم خاطبني ! » وكانت انباء شجاره ومناذه تتصل برؤسائه أولاً فاول ، وكانوا يتسامحون معه ، مطلقاً عليه من ناحية ، وتحاميا لشره من ناحية أخرى ، ولذلك اطردت حياته دون عقاب يذكر الا بعض الانذارات ، وخصم يوم او يومين . ولكنه ازداد بمرور الايام صلفاً ، حتى تراءى له يوما أن يحرق خطباته المصلحية باللغة الانجليزية ففعل . وكان يقول في تسويف ذلك انه موظف فنى لا كفيره من الكتاب . وتعطل عمله تعطلا دعا مديره لمعاملته بالحزم والقسوة ، ولكن القدر كان اسرع من حزم المدير ، فطلب الرجل يوما مقابلة وكيل الوزارة ، ودخل درويش افندى - كما كان وقتذاك - حجرة الوكيل في تودة ووقار ، وحياه تحية الند للند ، وباده قائلاً بثقة ويقين :

- ياسعادة الوكيل لقد اختار الله رجله .

فطلب اليه الوكيل ان يفصح عما يريد ، فاستدرك قائلاً بوقار وجلال :

- انا رسول الله اليك بكادر جديد .

هكذا ختمت حياته بالاقفاف . وهكذا قطعت صلته بالهيئة الاجتماعية التي كان واحداً منها . هجر اهله واخوانه ومعارفه الى دنيا الله كما يسميها ، ولم يستبق من آثار الماضي جميعاً الا نظارته الذهبية . ومضى في عالمه الجديد بلا صديق ولا مال ولا ماوى ، ودلت حياته على ان بعض الناس يستطيعون ان يعيشوا في هذه الدنيا المتقيحة بمرارة الكفاح بلا ماوى ولا مال ولا معين ، ثم لا يجدون همّاً ولا كرباً ولا حاجة . لا جاع يوماً ولا تعرى ولا شرد . وانتقل الى حال من السلام والطمأنينة والغبطة لا عهد له بها . واذا كان قد فقد بيته فالدنيا جميعاً

صارت بيتا له ، واذا كان قد حرم مرتبه فالتعلق بالمال قد انقطع عنه ، واذا كان قد خسر الأهل والأصدقاء فالناس جميعا انقلبوا له أهلا . يبلى الجلباب فيأتيه جلباب جديد ، ويتمزق رباط الرقبة فيجيئ رباط جديد ، ولا يحل مكانا حتى يرحب به ناسه ، وبحسبه أن يفتقده المعلم كرشة نفسه - على ذهوله - اذا غاب عن القهوة يوما ، ومع ذلك فلم يكن يأتي شيئا مما يعتقد فيه العامة من المعجزات والحوارق وقراءة الغيب ، فهو اما ذاهل صامت ، أو مرسل القول كما يحب لا يدرى انى يكون موقعه من النفوس . بيد انه رجل محبوب مبارك ، يستبشر الجميع بوجوده بينهم خيرا ، ويقولون عنه انه ولى من أولياء الله الصالحين ، يأتيه الوحي باللغتين العربية والانجليزية .

٢

نظرت الى المرأة بعين غير ناقدة ، أو بالأحرى بعين تتلمس مواضع الرضا ، فعكست المرأة وجهها نحىلا مستطيلا فعل الزواق بخديه وحاجبيه وعينيه وشفتيه الأماجيب . وجعلت تعطفه ينة ، وتعطفه يسرة ، وأصابها تنسق صغيرتها ، مغممة بصوت لا يكاد يسمع « لا بأس ، جميل ، وإيم الله جميل » . والحق ان هذا الوجه قد طالع الدنيا ما يقارب الخمسين عاما ، والدنيا لاتدع وجهها سالما نصف قرن من الزمان . اما جسمها فنحيل ، أو جاف كما تصفه نسوة الزقاق ، وأما الصدر فأمسح ، بيد ان فستانا حسنا يستره ، هذه هى الست سنية هيفى صاحبة البيت الثانى بالزقاق ، حيث يسكن الدكتور يوشى طابقه الاول . وفى ذلك اليوم كانت تلخذ اهبتها لزيارة الشقة الوسطى التى تقيم بها

أم حميدة . ولم يكن من عاداتها الاكثار من زيارة أحد ، وربما لم تكن تدخل هذه الشقة الا أول كل شهر لتحصل الأجرة ، الا أن باعشا جديدا دب في أعماق نفسها جعل زيارة أم حميدة من الواجبات الهامة . وهكذا غادرت شقتها ، ونزلت السلالم ، متمتعة برجاء « اللهم حقق الآمال » ودقت الباب بكفها المعروقة ففتحت لها حميدة . واستقبلتها بابتسامة الاستقبال المتصنعة ، وقادتها الى حجرة الضيوف ، ثم ذهبت تدعو أمها . كانت الحجرة صغيرة ، بها كنبتان من الطراز القديم متقابلتين ، وفي الوسط خوان باهت عليه نافضة سجائر ، وأما أرضها مفروشة بحصيرة . ولم يطل بالمرأة الانتظار ، فسرعان ما جاءت أم حميدة مهرولة وقد فمرت جلبب البيت ، فسلمتا بشوق ، وتبادلتا قبيلتين ، وجلستا جنباً لجنب ، وأم حميدة تقول :

— أهلا .. أهلا .. زارنا النبي يا ست سنية .

كانت أم حميدة ربة ممثلة في الستين . ولكنها معافاة قوية ، جاحظة العينين ، مجدورة الخدين ، ذات صوت غليظ قوى النبرات ، فاذا تحدثت فكانها تزعق ، وهو سلاحها الأول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزاع . ولم تكن مرتاحة للزيارة بطبيعة الحال ، لان زيارة تقوم بها صاحبة الملك امر قد تسوء عواقبه ، وقد ينذر بالخطر . ولكنها وطنت النفس على أن تلبس لكل حال لبوسها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، وانها على كلتا الحالتين لقادرة . كانت بحكم وظيفتها — خاطبة وبلانة — مميقة الملاحظة ، كثيرة الكلام بل كانت لسانا لا يكف ولا يمسك ، ولا يكاد تفوته شاردة أو واردة عن شخص من أشخاص الحي أو بيت من بيوته ، فهي مؤرخة راوية لأخبار السوء — على الغالب — ومعجم للمنكرات ، وأرادت كعادتها أن تتسلى بالكلام فراحت ترحب بالضييفة ، وتطنب في الثناء عليها ، وتروى لها نتفا

— ٢٠ —

من انباء الزقاق والأحياء المجاورة : اما علمت بفضيحة المعلم كرشة الجديدة ؟ هى كسابقاتها ، وقد اتصل الخبر بزوجه فتعاركت معه ومزقت جيبته ، وحسنية الفرائة ضربت زوجها جعدة أمس حتى بض الدم من جبينه ، والسيد رضوان الحسينى الطيب الورع زجر زوجه زجرا شديدا ، لماذا يعاملها هذه المعاملة — وهو الرجل الطيب — ان لم تكن شريرة خبيثة ! . الدكتور بوشى احتك بفتاة صغيرة فى المخبأ فى آخر غارة وضربه رجل محترم ، كريمة الماوردى تاجر الخشب فرت مع خادمها وبلغ ابوها القسم . طابونة الكفراوى تبيع عيشا غير مخلوط سرا ، الخ . الخ .

اصغت الست سنية عفيفى بأذن غير واعية ، لأنها كانت مشغولة بالأمر الذى جاءت من أجله ، وقد صدقت نيتها على أن تطرق الموضوع الذى طال اختماره بنفسها مهما كلفها الأمر ، بيد أنها نازعت المرأة الحديث حتى تنهيا لها فرصة موالية . وقد نهيات هذه الفرصة حين سالتها أم حميدة قائلة :

— وكيف الحال يا ست سنية ؟

فعبست قليلا وقالت :

— الحق انى تعب يا ست أم حميدة .

فرفعت أم حميدة حاجبيها كالمنزعجة وقالت :

— تعب ؟ كفى الله الشر !

وأمسكت ست سنية ريشما تضع حميدة — وكانت قد دخلت الحجرة فى هذه اللحظة — صينية القهوة على الخوان وتعود من حيث أتت ، ثم قالت بامتعاض :

— تعب يا ست أم حميدة . اليس من التعب تحصيل اجور الدكاكين ؟ تصورى وقوف امرأة مثلى أمام رجل غريب تطالبه بالاجرة ..

وقد خفق قلب أم حميدة لسيرة الأجور ولكنها قالت بنبرات
أسيفة :

— صدقت يا ستى . كان الله فى عونك .

ولم تفتها ملاحظة هامة فتساءلت : لماذا تكثر المرأة من تردد
هذه الشكوى ؟ وذكرت أنها أعادتها الى سمعها مرات ! بل ذكرت
أن هذه ثانى أو ثالث مرة تزورها فى غير أول الشهر . وخطر لها
خاطر مجيب دهشت له بحكم وظيفتها ، وكانت فى أمثال هذه
المسائل خاصة ذات فراسة لا تجارى ، فصممت أن تسبر غور
الزائرة من وراء وراء ، فقالت بخبث :

— هذه احدى شرور الوحدة . انت امرأة وحيدة يا ست
سنية . فى البيت وحدك ، وفى الطريق وحدك ، وفى « الفراش »
وحدك ، الا قطعت الوحدة ..

وسرت الست سنية بحديث المرأة الذى كأنه يلبي خواطرها ،
وقالت وهى تخفى سرورها به :

— وما عسى أن أصنع ؟ أقاربى ذوو اسر ، وانا لا ارتاح
الا فى بيتى والحمد لله الذى أثنانى من الناس جميعا .
وكانت أم حميدة تلحظها بكم ، فقالت فاتحة آخر الأبواب :
— الحمد لله ألف مرة ، ولكن بالله خبرينى : لماذا قضيت على
نفسك بالعزوبة هذا الدهر الطويل .. ؟ !

فخفق فؤاد الست سنية ، ووجدت نفسها وجها لوجه حيال
ما تريد ، ولكنها تنهدت بانكار وقالت بتأفف متكلف :

— حسبى ما ذقت من مرارة الزواج .. !

كانت الست سنية عفيفى قد تزوجت فى شبابها من صاحب
دكان روائح عطرية ، ولكنه كان زواجا لم يصادفه التوفيق ،
فأساء الرجل معاملتها ، وأشقى حياتها ، ونهب مالها ، ثم تركها
أرملة منذ عشرة أعوام . ولبثت أرملة طوال تلك الأعوام ، لأنها
— على حد قولها — كرهت حياة الزوجية .

ولم يكن هذا القول مجرد كذب تدارى به اهمال الجنس الآخر لها ، فقد كرهت الحياة الزوجية حقاً ، وفرحت باسترداد حريتها وأمنها ، وظلت على نفورها من الزواج وفرحها بحريتها مهذا طويلاً . ثم انسيت تلك العاطفة بمرور الزمن ، ولم تكن تتردد في تجربة حظها من جديد لو تقدم لطلب يدها طالب . وجعلت تراود الأمل حيناً بعد حين ، حتى طال به الأمد ، فغلبها القنوط ، وصرفت نفسها عن مراودة الآمال الكواذب ، ووطنت النفس على الرضا بحياتها كما هي . ولما كان من الضروري ان يوجد في حياة الإنسان شيء تنعقد حوله آماله ، شيء يقرر لحياته قيمة ولو وهمية سخيفة ، فقد وجدت ضالتها كذلك . ومن حسن الطالع أنها لم تكن مما ينتقص امرأة عازبة مثلها ، فالولعت بالقهوة والسجائر واكتناز الأوراق المالية الجديدة . وقد كانت في الأصل تميل قليلاً نحو الخرص ، وكانت من العملاء القدماء لصندوق التوفير ، فجاءت الهواية الجديدة تؤكد ذاك الميل القديم وتقويه وتتقوى به . وكانت تحتفظ بالأوراق الجديدة في صندوق عاجي صغير أخفته في أعماق صوان ملابسها ، ووزعتها رزماً من ذوات الخمس والعشر ، تتسلى بمشاهدتها ومعاودة عدّها وترتيبها . ولما كانت الأوراق خرساً لا كالتقود المعدنية فقد امنت الأخطار ، ولم يدر بها أحد من شطط المدق على شدة حساسيتهم ، ووجدت في حياتها المالية عزاء ، وانتحلت منها اعتذاراً لعزوبتها . وقالت لنفسها : ان أى زوج خليق بأن ينهب أموالها كما فعل الزوج المرحوم ، وبأن يضيع عليها في غمضة عين ثمرة الأعوام الطوال ، ومع ذلك فما كاد يتسرب الى قلبها الإيحاء بفكرة الزواج حتى تناست الاعتذار والمخاوف جميعاً . وكانت أم حميدة المنشولة عن هذا التحول العجيب ، سواء عن قصد او عن غير قصد ، بما قصته عليها مرة من تزويجها لارملة عجوز . ففكرت

في الأمر على انه ممكن التحقيق ، وسرعان ما استولى على
أرادتها ، فتدافعت الى طاعته لا تلوى جلى شيء . ظنت يوما
انها نسيت الزواج ، فاذا بالزواج أملها المنشود لا يغنى عنه شيء
من مال أو قهوة أو سجاائر أو أوراق مالية جديدة . وجعلت
تساءل في جزع : كيف ضاع ذلك العمر هباء ؟ كيف قطعت
عشرة أعوام حتى شارفت الخمسين وحيدة ؟ ! وقالت : ان هذا
هو الجنون وحملت زوجها المرحوم تبعته ، وصممت على أن
تكفر منه ، وان تكفر عنه اليوم قبل الغد ان أمكن .

وأصغت الخاطبة الى تأففها المتصنع بفتنة واستهانة وقالت
لنفسها : « لا يجوز على مكرك يا مرة » . ثم خاطبتها بلهجة
تتم عن لؤم :

— لا تغالى يا ست سنية ، اذا كان حظك الاول قد خاب
فالزيجات السعيدة تملأ المشارق والمغارب . .
فقال الست سنية وهى تعيد قدح القهوة الى الصينية
شاكرة :

— لا ينبغي لعاقل أن يعاند الحظ اذا تجهم .
فاعترضتها أم حميدة قائلة :
— ما هذا الكلام يا ست العاقلات ؟ كفاك وحدة ، كفاك .
فدقت المرأة صدرها الامسح بباطن يسراها وقالت باتكار
مصطنع :

— يا خبر . اتريدن الناس على أن يرموني بالجنون ؟ !
— أى أناس تعنين ؟ ان اكبر منك يتزوجن كل يوم .
فتضايقت من « اكبر منك » وقالت بصوت منخفض :
— لست من الكبر كما تظنين . . لعن الله الهم .
— ما قصدت هذا يا ست سنية ، وما أشك في أنك ما زلت
في حدود الشباب ، ولكنه الهم الذى تلتحفين به مختارة .

- ٢٤ -

فلتراحت الست ، ولكنها كانت لا تزال مصرة على تمثيل دور من يساق الى قبول الزواج بلا تعمد ولا رغبة ، فتساملت بعد تردد :

- الا يعيبني أن اقدم على الزواج الآن بعد ذلك العهد الطويل من العزوبة ؟

فخاطبت أم حميدة نفسها قائلة : « لماذا قصدتني اذا يا مرة ؟ » . ثم خاطبت الست قائلة :

- كيف يعيبك ما هو شرع وحق ! انت ست عاقلة شريفة ، والكل يشهد بذلك ، فالزواج نصف الدين يا حبيبتي ، وربنا شرعه حكمة ، وأمر به النبي عليه الصلاة والسلام ..

فقالت الست سنية بايمان :

- صلى الله عليه وسلم .

- كيف لا يا حبيبتي ! نبي عربي ، والله يحب عبده !

وكان وجه الست سنية قد تورد تحت قناع الاحمر ، ومثل فؤادها سرورا ، فقالت وهي تستخرج سيجارين من علبتها :

- ومن يرضى بالزواج مني ؟

فثنت أم حميدة سبابة سراها ، ولصقتها بحاجبها ، وقالت باستنكار :

- الف رجل ورجل !

فضحكت الست بمجامع قلبها وقالت :

- رجل واحد يكفي ..

فقالت أم حميدة بيقين :

- الرجال جميعا يحبون الزواج من أمماقهم . ولا يكاد يشكو

الزواج الا المتزوجون . وكم من رجل عازب راغب عن الزواج ، ما ان أقول له : « عندى عروس لك ! » حتى تدب في عينيه البقطة ، ويغلبه الابتسام ، ويسألني في لهفة لا تخفى : « حقا ..

من !.. من ؟ » . الرجل يريد المرأة ولو أقعده الكساح ، وهذه
حكمة ربنا .

فهرت الست سنية رأسها في اورتياح وقالت :
- جلت حكمته ! .

- نعم يا ست سنية ، لذلك خلق الله الدنيا ، كان في وسعه
أن يملأها رجالا فحسب ، أو نساء فحسب ، ولكنه خلق الذكر
والأنثى ، ومنحنا العقل كي نفهم مراده ، فلا يحيد من الزواج .

فابتسمت الست سنية عفيفى وقالت برقة :
- كلامك كالسكر يا ست أم حميدة !

- حلى الله دنياك ، وآنس قلبك بالزواج الكامل .
فتشجعت الست وقالت :

- ان شاء الله ، وبفضلك .

- أنا امرأة - بحمد الله - مباركة . زيجاتى لا انفصام لها ،
ياما عمرت بيوتا ، وانجبت أطفالا ، وأسعدت قلوبا ، فليكن
اعتمادك على الله وعلى ..

- جزاؤك لن يقدر بمال .

فقالت أم حميدة فى سرها : « لا .. لا يا مرة ، ينبغى أن يقدر
بمال ، وبمال كثير . هلمى الى صندوق التوفير وأعطينى ، وكفاك
تقتيرا .. » . ثم قالت بلهجة رزينة شأن رجال الأعمال اذا
فرغوا من المقدمات وطرقوا الهام من الامور :
- اظنك تفضلين رجلا متقدما فى السن ؟ ! .

لم تدر الأخرى بماذا تجيب . لم تكن تطمع فى الزواج من
شاب ، ولا كان الشاب بالزوج الذى يناسبها ، ولكنها لم ترتج
الى عبارة « متقدم فى السن » هذه ، وكان تدرج الحديث قد
خلطها بأم حميدة فآتست اليها ، واستطاعت أن تقول وهى
تضحك لتندارى ارتباكها :

- أصوم وافطر على بصلة ! .
 فضحكت أم حميدة ضحكة عالية رنت رنيناً مزعجاً ،
 وازدادت اطمئناناً الى نفاسة الصفقة التى هى بصدد عقدها ،
 ثم قالت بخبت :
 - صدقت يا ست ، والحق أن التجارب دلتنى على أن أسعد
 الزوجات ما كبرت الزوجة فيها الزوج ، ولكم يناسبك رجل فى
 الثلاثين أو يزيد قليلاً .
 فتساءلت المرأة فى قلق :
 - وهل يوافق ؟
 - يوافق ويوافق ! أنت سيدة جميلة وغنية !
 - سلمت من كل سوء !
 فقالت أم حميدة وقد لبس وجهها المجدور هيئة الجسد
 والاهتمام :
 - أقول له سيدة نصف ، لا ولد لها ولا حماة ، ادب وكمال ،
 صاحبة دكاكين بالحمراوى وبيت ذى طابقين بالمدق .
 فابتسمت النسب وقالت تصحح لها ما حسبته هفوة :
 - بل ذى ثلاثة طوابق .
 ولكن الأخرى قالت معترضة :
 - اثنان فحسب ، لأن الطابق الثالث الذى أسكنه لن تقبضى
 إيجاره مدى حياتى !
 فقالت ست سنية فى سرور :
 - لك عيناى يا ست أم حميدة !
 - سلمت عيناك . ربنا يهيىء ما فيه الخير .
 فهزت الأخرى رأسها كالمتعجبة وقالت :
 - يا للعجب ! جئتكم لجرد الزيارة فانظروا كيف انتهى بنا
 الحديث ؟ وكيف أغادرك فى حكم المتزوجات ؟ !

- ٢٧ -

فجارتها ام حميدة فى ضحكها كالمتعجبة أيضا ، وان راحت
تقول لنفسها : « يا مرة احتشمى ، اتحسبين ان مكرك يجوز
على ؟ ! » ثم قالت :
- ارادة ربنا ؟ اليس كل شىء بامرہ ؟ ؟

وعادت الست سنية عفيفى الى شقتها مسرورة فرحة ،
بيد أنها حادثت نفسها قائلة : « ايجار شقة مدى الحياة ! يا لها
من امرأة جشعة ! » .

٣

ودخلت حميدة الحجرة عقب مغادرة الست سنية لها . كانت
تمشط شعرها الأسود الذى تفوح منه رائحة الكيوسين . فنظرت
ام حميدة الى شعرها الفاحم اللامع تكاد تتجاوز ذؤاباته المسترسلة
ركبتى الفتاة ، وقالت بأسف :

- واحسرتاه كيف تدعين القمل يرمى هذا الشعر الجميل ! .

فبرقت عينان سوداوان مكحلتان بأهداب وطف . ولاحت
فيهما نظرة حادة صارمة ، وقالت الفتاة بحدة :

- قمل ؟ ! والنبي ما وجد المشط الا قملتين اثنتين !

- انسيت يوم مشطتك من أسبوعين وهرست لك عشرين
قملة ؟

فقالت بغير مبالاة :

- كان مضى على راسى شهران بلا غسيل ، .

ثم اشتد ساعدها فى التمشيط وهى تجلس جنب امها .
كانت فى العشرين ، متوسطة القامة ، رشيقة القوام ، نحاسية
البشرة ، يميل وجهها للطول ، فى نقاء وزاوة ، وأميز ما يميزها

عينان سوداوان جميلتان ، لهما حور بديع فائن ؛ ولكنها اذا
اطبقت شفتيها الرقيقتين وحدث بصرها تلبستها حالة من القوة
والصرامة لا عهد للنساء بها ! وقد كان غضبها دالما مما لا يستهان
به حتى في زقاق المدق نفسه . وامها على ما اشتهرت به من القوة
تحامها ما استطاعت . قالت لها يوما وهما تتسابان : « لن يلم
الله شعئك برجل ، فإى الرجال يرضى بأن يضم الى صدره جمرة
موقدة ! » . وكانت تقول في مرات أخرى : ان جنونا لا شك فيه
ينتاب ابتها حين الغضب ، وسمتها « الخمسين » باسم الرياح
المعروفة . ومع ذلك كانت تحبها كثيرا وان كانت في الحقيقة امها
بالتبني . كانت الام الحقيقية شريكة لها في الاتجار بالمفتقة
والموفات ، ثم شاطرتها شقتها بالرقاق في ظروف سيئة ، واخيرا
ماتت بين يديها تاركة طفلتها في سن الرضاع ، فتبنتها ام حيدة ،
ومهدت بها الى زوج المعلم كرشة القهوجى فارضعتها مع ابنها
حسين كرشة ، فهى اخته بالرضاعة .

مضت تمشط شعرها الفاحم ، ، منتظرة كالعادة ان تعلق
امها على الزيارة والزائرة ، ولما طال الصمت قالت الفتاة :
- طال الزيارة ، فيم كننما تتحدثان ؟

فضحكت امها في سخرية وتمتمت :
- خمنى !

فقالت الفتاة وقد اشتد اهتمامها :
- طلبت رفع الايجار ؟

- لو فعلت لمخرجت محمولة على ايدى رجال الاسعاف ،
ولكنها طلبت خفضه .

فصاحت حميدة :

- هل جنت ؟

- اجل جنت ؟ ولكن خمنى ..

— ٢٩ —

فنفخت الفتاة وهي تقول :

— اتعبتنى !

فارعشت المرأة حاجبها وقالت وهي تغمز بعينها :

— صاحبك تروم الزواج !

فتولت الفتاة الدهشة وقالت :

— الزواج ! .

— أجل ، وتريد شابا . اسفى عليك من شابة عائرة الحظ

لا تجد من يطلب يدها !

فحدجتها الفتاة بنظرة شرراء وقالت وهي تضفر شعرها :

— بل أجد كثيرين ، ولكنك خاطبة فاشلة تريد أن تدارى

فشلك . وماذا بى مما يعيب ؟ ولكنك كما قلت امرأة فاشلة ،

يصدق عليك المثل القائل « باب النجار مخلع » ..

فابتسمت أم حميدة قائلة :

— اذا تزوجت الست سنبة عفيفى فلا يصح لامرأة ان

تياس ..

ولكن الفتاة رمتها بنظرة غاضبة وقالت بحدة :

— لست أجرى وراء الزواج ، ولكنه يجرى ورائى انا ،

وسانبده كثيرا ..

— طبعاً ! اميرة بنت امراء !

فتغاضت الفتاة عن سخريه امها وقالت بنفس اللهجة

الحادة :

— افى هذا الزقاق احد يستحق الاعتبار ؟

ولم تكن الام فى الواقع يداخلها خوف على الفتاة من البوار .

ولا تشك فى جمالها ، ولكنها كانت كثيرا ما تشور بمعجبتها

وغرورها . فقالت باستياء :

— لا تسلقى الزقاق بلسانك ، ان اهله سادة الدنيا .

- ٢٠ -

- سادة دنياك أنت . كلهم كعدمهم ، اللهم الا واحدا به رmq جعلتموه أخى !

وكانت تعنى حسين كرشة اخاها بالرضاعة ، فهاى امها الامر وقالت بلهجة انتقاد واستياء :

- كيف تقولين هذا ؟ ما جعلناه أخا ، وما نملك أن نصنع أخا ولا اختا ، ولكنه أخوك بالرضاعة كما امر الله ..

فغلبتها روح المجون وقالت عابثة :

- الا يجوز أن يكون قد رضع من ثدى ورضعت أنا من الآخر ؟

فلكمتها امها فى ظهرها وصاحت بها :

- قاتلك الله ..

فضمغمت الفتاة بلوزراء :

- زقاق المدم !

- أنت تستحقين موظفا قد الدنيا !

فتساءلت بتحد :

- هل الموظف اله ؟

فتنهدت الأم قائلة :

- آه لو تخففين من غلوائك .. !

فقلدت لهجة امها قائلة :

- آه لو تنصفين ولو مرة فى العمر !

- آكلة شاربة ثم لا تشكرين . اذكركين كيف اطلقت على لسائك الطويل بسبب جلباب ؟ !

فقالته خميدة يدهشة :

- وهل الجلباب شىء يهون ؟ ! .. ما قيمة هذه الدنيا بشير

الملابس الجديدة ؟ ! الا ترى أن الاولى بالفتاة التى لا تجد ما تتزين به من جميل الثياب أن تدفن حية ؟ !

ثم امتلا صوتها وهى تقول مستدركة :
 - آه لو رايت بنات المشغل ! آه لو رايت اليهوديات
 العاملات ! كلهن يرفلن فى الثياب الجميلة . أجل ما قيمة الدنيا
 اذا لم نرتد ما نحب ؟ !
 فقالت الام باستياء :

ب افقدتك مراقبة فتيات المشغل واليهوديات عقلك ،
 وهيهات أن يهدأ لك بال ..

فلم تعبأ بقولها وكانت قد انتهت من تضفير شعرها ،
 فاستخرجت من جيبها مرآة صغيرة ، ثبتتها على مسند الكنبه ،
 ثم وقفت أمامها منحنية قليلا لترى صورتها ، ثم غمغمت بلهجة
 تنم عن الإعجاب :

- آه يا خسارتك يا حميدة ، لماذا توجدن فى هذا الزقاق ؟ !
 ولماذا كانت أمك هذه المرأة التى لا تميز بين التبر والتراب ؟ !

ثم دلفت من النافذة الوحيدة فى الحجرة التى تطل على
 الزقاق ، ومدت يديها الى مصراعيها المفتوحين وجلبتتهما جتى
 لم يعد يفرج بينهما الا مقدار قيراطين من الفراغ ، وارتفعت
 النافذة ملقية ببصرها الى الزقاق ، متنقلة به من مكان الى مكان ،
 قائلة وكأنما تخاطب نفسها فى سخرية :

مرحباً بك يا زقاق الهنا والسعادة ، دمت ودام اهلك
 الاجلاء . يا لحسن هذا المنظر ، ويا لجمال هؤلاء الناس . ماذا
 ارى ؟ ! هذه حسنية الفرانة جالسة على عتبة الفرن كالزكيةه ،
 عينا على الارغفة ، وعينا على جمعة زوجها ، والرجل يشتغل
 مخافة أن تنهال عليه لكماتها وركلاتها . وهذا المعلم كرشة
 القهوجى متطامن الراس كالنائم وما هو بالنائم ، وعم كامل يغط
 فى نومه ، والدباب يرقص على صينية البسبوسة بلا رقيب .
 آه . وهذا عباس الحلو يسترق النظر الى النافذة فى جمال ودلال،

- ٣٢ -

ولعله لا يشك في ان هذه النظرة سترمينى عند قدميه اسيرة لهواه ، اذكرنى يا هوه قبل التلف . اما هذا فالسيد سليم علوان صاحب الوكالة ، رفع عينيه يا اماء وغضهما ، ثم رفعهما ثانية ، . قلنا الاولى مصادفة ، والثانية يا سليم بك ؟ ! وباه هذه نظرة ثالثة ! . ماذا تريد يا رجل يا عجوز يا قليل الحياء ! . مصادفة كل يوم في مثل هذه الساعة !؟ ليتك لم تكن زوجا وابا اذا لبادلتك نظرة بنظرة ، ولقلت لك اهلا وسهلا ومرحبا . هذا كل شيء ، هذا هو الزقاق فلماذا لا تهمل حميدة شعرها حتى يقبل ؟! . . . اوه . . ها هو ذا الشيخ درويش قادما يضرب الأرض بقبقباه . . . وهنا قاطعتها امها في سخرية :

- ما احق الشيخ درويش أن يكون زوجا لك !

فلم تلتفت اليها ، ورقصت لها عجيزتها وهي تقول :
- يا له من رجل مقتدر . يقول انه انفق في حب السيدة فزينب مائة الف جنيه ، فهل يبخل على بعشرة آلاف ؟ !
ثم تراجعت فجأة كأنها ملت موقفا ، وعادت الى المرأة ملقية اليها نظرا فاحصا ، وتنهدت وهي تقول :
- يا خسارتك يا حميدة . .

٤

في الثلث الاول من النهار يكتنف الزقاق جو رطب بارد ظليل لا تزوره الشمس الا حين تشارف كبد السماء فتتخطى الحصار المضروب حوله . بيد أن النشاط يدب في الأركان منذ الصباح الباكر ، يفتتحه سنقر صبي القهوة فيهيئ المقاعد ويشعل الوابور ، ثم يتوافد عمال الوكالة أزواجا وأفرادا ، ثم يلوح جمدة

حاملًا خشبة العجين ، حتى عم كامل نفسه يشغل في هذه الساعة بفتح الدكان وتناول الإفطار عن النعاس ! . وكان عم كامل وعباس الحلو يتناولان أفطاريهما معا ، فتوضع بينهما صينية عليها طبق المدمس والبصل الأخضر والخيار المخلل ، وكان مزاجهما في الأكل مختلفين ، فالحلو سريع يلتهم رغبته في دقائق معدودات ، أما عم كامل فبطيء يمضغ اللقمة في أناة حتى يكاد يذيقها في فمه ، وكثيرا ما يقول : ان الطعام المفيد يهضم في الفم أولا ، ولذلك فالحلو ينتهي من طعامه ، ثم من احتساء الشاي وتلدخين الجوزة ، والآخر ما يزال يمضغ ويقضم البصل ، ولذلك فانه لكي يأمن تعدى الحلو على نصيبه يشق الفول بلقمة شطرين ولا يسمح للشباب بتجاوز حده ! . وعم كامل - رغم جسامته وضخامته لا يعد أكلًا وان كان يلتهم الحلوى بشراهة . وهو حلواني ماهر ، ولكنه لا يفرغ ما يتمتع به من فن الا في الطلبات الخاصة التي يوصى عليها امثال السيد علوان والسيد رضوان الحسيني والمعلم كرشة . وطار في ذلك صيته حتى جاوز المدق الى الصناديق والفورية والصاغة . ولكن رزقه كان على قدر عيشته البسيطة دون زيادة ، فلم يكن كاذبا حين شكا الى عباس الحلو انهم لن يجدوا بعد وفاته ما يدفنونه به . وقد قال - ذلك الصباح - مخاطبا الحلو بعد ان فرغا من طعامهما :

- قلت انك ابتعت لي كفنا ، وهو صنيع تستحق عليه الشكر والدعاء ، ولكن ما قولك في ان تنزل لي عنه الآن ؟ .

فتعجب عباس الحلو الذي كاد ينسى الكفن كما تنسى عادة الاكاذيب ، وسأله :

- وماذا تريد ان تفعل به ؟؟ ! .

فقال الرجل بصوته الرفيع الذي يحاكي اصوات الفلمان :

زقاق المدق

- انتفع بثيمته ! .. الا تسمع ما يقبال عن ارتفاع ايمان
الاقمسة ؟

فضحك الخلو وقال :

- انت رجل مفاكر على رغم ما تتظاهر به من سداجة .
بالامس شنكوت انك لا تجد ما تكفن به بعد موتك ، فلما اعددت
لك الكفن تريد ان تنتفع بثيمته ؛ ولكن هيهات ان تنال ما تريد ؛
لقد ابتعت الكفن بلاكرم ، به جشيتك بعد عيم طويل ان شاء الله .

فابتسم عم كامل في ارتباك وقال :

- هب ان العمر قد امتد بي حتى تعود الحالة الى ما كانت
عليه قبل الحرب ، الا تكون قد خسرنا ثمن الكفن الغالي ؟ !
- وهبك تموت غدا !

فقطب عم كامل وقال :

- لا قدر الله ! ..

فقهقه الخلو ضاحكا وقال :

- عشا تحاول ان تشينني عما اعترمت . سينبقى الكفن في
حرز حريز حتى يقضى الله امرا كان مفعولا . . .
وعاوده الضحك فضحك طويلا حتى شاطره الرجل ضحكه .
ثم قال الشاب معاتبا : . . .

- يا لك من رجل لا ترجى منه فائدة ! : هل استغدت منك
مليما واحدا في جياي ؟ ! مطلقا ، ذنك جرداء لا تنبت ، وكذلك
شاربك . - وراسك اصبلع ، وليس بهذه الدنيا الواسعة التي
تلعوها جسمك شعرة واحدة انتفع بحلقها - سامحك الله .
فابتسم عم كامل قائلا :

- جسم نظيف ظاهر لن يشق على احد غسله .

وقطع عليهما الحديث صوت يشبه الغواء ، فنظرا الى داخل
الزقاق فرأيا المعلمة حسنية الفرانة تنهال على زوجها جمعة

بالتسبب . والزجل يفتقر امامها لا يملك لها دفعا ، وصراخه
يعلو حتى طبق الافاق ، فضحك الرجلان وصاح عباس الخلو
مخاطبا المرأة :

- العفو والرحمة يا معلمة .

ولكن المرأة لم تمسك حتى ارتمى جعدة عند قدميها باكينا
مستعظما . وليث عباس ضاحكا وهو يقول لعم كامل :
- ما اخلق جسمك بهذا الشئب حتى يدوب شحمه !

وظهر عند ذاك حسين كرشة قادما من البيت في سرواله
وقميصه وقبعته . كان ينظر في ساعة معجمه ، تياها فخورا ،
وعيناه الصغيرتان الحاذقتان تمثلان زهوا . وقد جيا صديقه
الحلاق . ومضى الى الكرسي داخل الصالون وجلس عليه ليحلق
شعره في يوم عطلة . وقد نشأ الصديقان معا في رفاق المدق ،
كما رآيا نور الدنيا في بيت واحد . بيت السيد رضوان الحسيني ،
بيد ان عباس الخلو رأى هذا النور الدنيوى قبل صاحبه بثلاثة
اعوام . وكان الخلو في ذلك الوقت يعيش في حضانة والديه ، قبل
ان يعرف عم كامل ويشاطره شقته بخمسة عشر عاما . وقد قطع
الصديقان الطفولة والصبا معا ، وآخى بينهما الحب والمودة ، وظلا
على صداقتهما حتى بعد ان فرق بينهما العمل . فاشتغل عباس
صبي حلاق بالسكة الجديدة ، وعمل حسين صبيا في دكان
درجات بالجمالية . وقد تباينت اخلاقيهما منذ البدء ، ولكن لعل
تباينهما هذا كان من اهم الاسباب التي ابقت على صداقتهما
ومودتهما . كان عباس الخلو - ولا يزال - شخصا وديعا ، دمث
الاخلاق ، طيب القلب ، ميالا بطبعه الى للمهادنة والمصالحة
والتسامح ، اقصى ما يطمخ اليه من فنون اللهو اللعب السلمى ،
أو ارتياد القهوة لتدخين الجوزة ولعب الكومى ، مع نفور من اللجاج
والشجار ، وذراية في اتقائهما بالابتسامة الخلوة و « الله يسامحك

يا عم» وكان يحافظ على صلاته وصومه ، ولا تفوته صلاة الجمعة في سيدنا الحسين . أجل انه أهمل الآن بعض هذه الفرائض ، لا عن استهتار ، ولكن عن كسل ، وما زال يحافظ على صلاة الجمعة وصوم رمضان . ولم يكن من النادر أن يتجرش به صاحبه حسين كرشة ، ولكنه كان اذا شد صاحبه أرخى ، فلم تصل اليه قبضته القاسية قط . وعرف الى ذلك بالقناعة والرضا ، حتى انه واصل عمله «صبياء» عشرة أعوام كاملة ولم يفتح دكانه الصغير الا منذ خمسة أعوام ، ومنذ ذاك التاريخ وهو يحسب انه نال ارفع ما يطمح اليه . وقد ملأت هذه الروح القنوعة الراضية نفسه ، فنطقت بها عيناه البارزتان الهادئتان ، وجسمه البدن ، وطابع المرح الذي لا يفارقه . أما حسين كرشة فكان من شطار الزقاق ، مشتهرا بالنشاط والحدق والجراءة ، بل هو معتد ائيم اذا دعا الداعي . وقد اشتغل بادىء امره في قهوة أبيه ؛ ولكنهما لم يتفقا ، فهجرها وعمل بدكان الدراجات ، ولبث بها حتى اندلع لهيب الحرب فالتحق بخدمة المعسكرات البريطانية ، وبلغت يوميته بها ثلاثين قرشا - نظير ثلاثة قروش في عمله الاول - غير ما يسميه هو «اكل العيش يحب خفة اليد» فارقت حاله وامتلا جيبه ، ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعترف بالحدود . فتمتع بالشباب الجديدة ، وغشى الطعام ، واكثر من اكل اللحوم التي هي في حسابانه طعام المحظوظين ، وارتاب السينمات والملاهي ، وعافر الخمر ورافق النساء ، وربما اخذته نشوة كرم فدعا رفاقه الى سطح البيت حيث يقدم لهم الطعام والنبيد والحشيش ، وفي نشوة من نشواته - كما يحكى عنه - قال لبعض مدعويه : « في بلاد الانجليز يسمون من كان مثلى في بحبوحة العيش بالالارج Large ، ولما كان مثله لا يعلم حاسدين فقد دعوه بحسين كرشة الالارج ، ثم حرفت فيما بعد الى حسين كرشة الجراج ! » .

امسك عباس الحلو بالماكينة واقبل على رأس صاحبه بهمة. ونشاط يصلح من اطرافه ، دون مساس بالشعر المغفل الذى يكاد يقف من فظاظته وخشونته ، ولم يكن يخلو من شعور بالحزن. يساوره كلما التقى بهذا الصديق القديم . أجل ما زالا صديقين ، ولكن الحياة تغيرت بطبيعة الحال ، فلم يعد حسين كرشة يواظب على قضاء سهراته بقهوة ابيه كما كان يفعل فى الايام الخالية ، فدعا هذا الى ندرة اجتماع الصديقين . ولم يخل الامر من عاطفة حسد تخامر فؤاد الخلاق كلما ذكر الهوة الواسعة التى تفصل بينهما . بيد أنه فى حسده - كما هو فى حياته - ودع عاقل لا يتهور ولا يتورط فى خطأ ، فلم ينل صاحبه بلفظ سوء ، وكأنه يغبطه ولا يحسده ، وربما قال لنفسه متعزيا : « سوف تنتهى الحرب يوما ، ويعود حسين الى الرقاق معدا كما خرج منه » .

وجعل حسين كرشة - بشرثرته المعهودة - يحدث صاحبه عن حياة « الارنس » والعمال والمرتبات والسرقات وما يحدث بينه وبين الانجليز من نوادر ومداعبات ، وعما يكنه الجنود لشخصه من الحب والاعجاب ، قال :

قال لى الاونباشى جوليان مرة انى لا افترق عن الانجليز الا فى اللون !.. وكثيرا ما نصحنى بالاقتصاد ، ولكن الساعد (وهناك حرك ساعده فى زهو) الذى يربح النقود فى اثناء الحرب خليق بان يربح اضعا فهما فى زمان السلم . ومتى تظن الحرب تنتهى ؟! لا تفرنك هزيمة الطليان ، فاولئك لا حساب لهم فى الحرب ، ولسوف يحارب هتلر عشرين عاما ! . والانباشى جوليان من المعجبين بشجاعته ، ويشق فى ثقة عمياء ، وبفضل هذه الثقة يسرحنى فى تجارته الواسعة من تبغ وسجائر ، وشوك وسكاكين ، وملاءات أسرة ، وجوارب واحذية !.. دنيا !

فتمتم عباس الحلو متفكرا :

- دنيا ! .

فألقى حسين على صورته في المرأة نظرة متفحصة وقال :
- أتدرى أين أذهب الآن ؟ الى حديقة الحيوان . او تدرى
مع من ؟ .. مع بنت كالثشدة والشهد (وقبل الهواء قبلة ذات
وسوسة) وسأنتقل بها هناك الى اقفاص القروء .

وقهقهه عاليا ثم استدرك :

- اراهن على أنك تتساءل : لماذا القروء ؟ وهذا طبيعي من
انسان مثلك لم ير الا قرد القزداني . فاعلم يا حمار أن القروء في
حديقة الحيوان تعيش جماعات في اقفاص . وهى كبيرة الشبه
بالانسان في صورته وسوء أدبه ؛ تراها تتغازل وتتحارب في علانية
مكتشوفة ، فاذا سقطت الفتاة الى هنالك تفتحت لى الأبواب ! .

فتمتم الحلو وهو يكب على عمله :

- دنيا ! .

- النساء علم واسع لا تحذقه بمجرد شعرك الرجل .

فضحك الحلو ونظر الى شعره في المرأة ، وقال بصوت
منكسر :

- انا رجل مسكين !

فحجج حسين صورته في المرأة بنظرة حادة وتساءل متكهما :
- وحميدة !؟ .

فخفق قلب الحلو بعنف لأنه لم يكن يتوقع سماع هذا الاسم
المحبوب ، وتمنلت لعينيه صورتها ، فتورد وجهه ، وشمغم وهو
لا يدرى :

- حميدة !؟ .

- أجل حميدة بنت أم حميدة !

ولاذ الحلاق بالصمت وقد لاح في وجهه الارتباك ، وراح
الأخر بقول بحدة :

- يالك من رجل خامل معدوم الحياة . عيناك نائمتان ،
دكانك نائم . حياتك نوم وخمول ؛ اعيانك ايقاظك يا ميت .
اتحسب ان هذه الحياة خليفة بتحقيق آمالك ؟ هيهات . ولن
ترزقك - مهما بسعيت - باكثر من لقمته .

فلاح التفكير في العنين الهادئين وقال متكدرا بعض الكدر :
- الخيرة فيما اختاره الله ؛
فقال الشاب ساخرا :

- عم كامل ، قهوة كرشة ، الجوزة ، الكومي ؟
فقال الخلو في حيرة :

- لماذا تهزأ بهذه الحياة ؟

- اهي حياة حقاً ؟ . هذا الزقاق لا يحوى الا موتاً ، وما
دمت فيه فلن نحتاج يوماً للدفن ، عليك رحمة الله ؛
فسأله الخلو بعد تردد وان كان يدرى ما الآخر قائله :
- وماذا تريدني ان افعل ؟
فصاح به الفتى :

- طالما اخبرتك . طالما نصحتك . اخلع رداء هذه الحياة
القلدة الحقيرة . اغلق هذا الدكان . اهجر هذا الزقاق . ارح
عينيك من رؤية جثة عم كامل . وعليك بالجيش الانجليزى .
الجيش الانجليزى كنز لا يفنى . هو كنز الجسن البصرى . ليست
هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم . لقد
بعثها ربنا لينشلنا من وهدة الشقاء والعوز ، على الرحب والسطة
ألف غارة وغارة ما دامت تقذفنا بالذهب . ألم أنصحك بالالتحاق
بـالجيش ؟ وما زلت اقول لك ان الفرصة سانحة : حقا هزمت
ايطاليا ولكن المانيا باقية . ووراءها اليابان ؛ وسوف تطول الحرب
عشرين عاما . اقول لك للمرة الاخيرة انه توجد أماكن شاذرة
في التل الكبير . سافر !

واستيقظ خيال الخلو ، واضطربت عواطفه ، حتى وجد

— ٤٠ —

صعوبة في امتلاك عنائه واثقان عمله . ولم يكن ذلك نتيجة لكلام حسين الراهن فحسب ، ولكنه نتيجة لالحاحه المتواصل كلما قابله . كان يطبعه قنوما ، عزوفا عن الحركة ، هيابا لتل جديد ، مبعضا للأسفار ، ولو ترك وشأنه ما اختار عن المدق بديلا . ولو لبث فيه مدى الحياة لما مله ولا فتر حبه له . ولكن طموحه صحا بعد سبات ، وكان كلما دبت فيه الحياة امتزج في نفسه بصورة حميدة ، أو لعل حميدة هي التي ايقظته وبعثته بعثا جديدا ، فكان طموحه وصورتها المحبوبة شيئا واحدا لا يتجزأ . وعلى رغم هذا كله خاف أن يبوح بذات نفسه ، وكانما اراد أن يفسح لنفسه وقتا للتدبر والتفكير . فقال متظاهرا بالاحجام والاباء :

— السفر ابن كلب ! .

فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح به :

— أنت ابن ستين كلبا . السفر خير من زقاق المدق . وخير من عم كامل . سافر وتوكل على الله . أنت لم تولد بعد . ماذا أكلت ؟ ماذا شربت ؟ ماذا لبست ؟ ماذا رأيت ؟ صدقني أنك لم تولد بعد .

فقال عباس متأسفا :

— من المحزن أنى لم أولد غنيا .

— من المحزن أنك لم تولد بنتا ! لو ولدت بنتا لكنت من بنات الدقة القديمة . حياتك في البيت والبيت ، لا سينما ولا حديفة الحيوان ، حتى ولا الموسيقى الذي تتراده حميدة في العصارى . فضاعف ذكر هذا الاسم من ارتبأك ، وآله أن ينطق به صاحبه مستهينا ساخرا كأنه لفظ تافه لا يشير مكانم القلوب ، وقال مدافعا عن فتاته :

— أختك حميدة فتاة كريمة الاخلاق ، ولا يعيبها أن تروح عن نفسها بالمشى في الموسيقى .

— أجل ولكنها فتاة طموح ما فى ذلك من شك ، ولن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك .

وعاود قلبه الخفقان العنيف ، والتهب وجهه احمرارا ، وذابت نفسه وجدا وقلقا وانفعالا . وكان انتهى من حلق رأس الشاب . فراح يمشطه دون أن ينبس بكلمة ، وفكره لا يستريح من اضطرابه . تم نهض حسين كرشة وأعطاه نقوده . وقبل أن يغادر الدكان اكتشف أنه نسي منديلته فرجع مسرعا الى البيت . وجعل يتابعه بعينه من موقفه ، فلاح لعينه مرحا نشيطا سعيدا ، وكأنه يرى فيه هذه الصفات لأول مرة . « لن تحظى بها حتى تغير ما بنفسك » . صدق حسين بلا ريب ، انه يعيش عيشة الكفاف ، ولا يكاد يتمخض كدح يومه الا من رزق ذلك اليوم ، فاذا اراد ان يبنى عشه فى هذه الايام العسيرة فلا معدى عن فتح جديد . الام يقنع بالأحلام والتمنى وهو قابع هامد مغلول اليد والارادة ؟ لماذا لا يجرب حظه ويقتحم سبيله كما يفعل الآخرون ؟ « فتاة طموح » هكذا يقول حسين ، وان كان هو لا يدري شيئا على وجه التحقيق ، وربما كان حسين أدرى بها ، لانه — عباس — اعتاد ان يراها بعين الحب الحاملة الخالقة . واذا كانت فتاته طموحا فلا معدى له عن ان يكون طموحا كذلك . ولعل حسين يحسب غدا — وقد ابتسم هذا الخاطر — انه ايقظه من سباته ، وخلقه خلقا جديدا ، ولكنه يعلم دون الناس جميعا انه لولا ذاك الشخص المحبوب ما استطاع شىء ان ينتزعه من قناعاته الوديمة المستسلمة وشعر عباس فى هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب . ولعله أحس — احساسا غامضا لا يرتقى لمرتبة الوعى والفكر — بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والابداع والتجديد . ولذلك خلق الله الانسان محبا ، وترك مهمة تعمير الوجود امانة

فى رعاية الحب . ولقد تساءل الفتى فى وجده . وانفعاله لماذا لا يسافر ؟ ألم يعتس فى هذا الزقاق حوالى ربع قرن من الزمان ؟ !
فماذا افاده ؟ انه زقاق لا يعدل بين اهله ، ولا يجزيهم على قدر حبهم له . وربما ابتسم لمن يتجهمه وتجهم لمن يبتسم له ، فهو يقطر عليه الرزق تقطيرا ، ويفدقه على السيد سليم غدقا ؛ وعلى كئيب منه تتكدس رزم الأوراق المالية حتى ليكاد يشم عرقها الساحر ، فى حين ان راحته لا تقبض الا على تمن الرغيف .
فليكن سفر ، وليتغيرن وجه الحياة .

جرى فكره هذا الشوط البعيد ، وليث واقفا امام دكانه ينظر الى عم كامل وقد مضى يغط فطيطا والمذبة فى حجره . ثم سمع وقع اقدام خفيفة آتيا من اعلى الزقاق ، فتحول اليه فرأى حسين كرشة عائدا فى خطوات واسعة . واستمر به بالانفعال والقلق ، ونظر اليه كما ينظر المقامر الى كرة الروليت الدائرة ، حتى حاذاه وأوشك ان يفوته ، فوضع يده على كتفه وقال له بقوة وعزم :

— حسين ، اريد ان أحدثك فى امر هام .

٥

. . العصر . .

عاد الزقاق رويدا رويدا الى عالم الظلال : والتفت حميدة فى ملائمتها ، ومنعت تستمع الى دقات شبشبها على السلم فى طريقها الى الخارج . وقطعت الزقاق فى عناية بمشيتها وهيئتها لأنها تعلم ان اعينا تتبعها متفحصة ثاقبة ، عيني السيد سليم تهلوان صاحب الوكالة ، وعيني عباس الحلوة الخلاق : ولم تكن تفاهة

ثيابها لتغيب عنها ، فستبان من الدمور وملاءة قديمة باهتة وشبشب رق نعلاه ، بيد أنها تلف الملاءة لفة تشي بحسن قوامها ، الرقيق . وتصور عجزتها الملمومة أحسن تصوير ، وتبرز ثدييها الكاعين . وتكشف عن نصف ساقها المدملجتين ، ثم تنحسر في أعلاها عن مفرق شعرها الأسود ووجهها البرنزي الفاتن القسبات . وكانت تتعمد الا تلوى على شيء فتنحدر من الصناديق الى الفورية ثم الى السكة الجديدة فالوسكى . حتى اذا غابت غيغ العين الشاقبة علت شفيتها ابتسامة وراحت تنهب الطريق الزاجو القامر بعينيها الجميلتين . هي فتاة مقطوعة النسب ، معدمة اليد . ولكنها لم تفقد قط روح الثقة والاطمئنان ، ربما كان لحسنها الملحوظ الفضل في بث هذه الروح القوية في طواياها ، ولكن جسيبها لم يكن صاحب الفضل وحده . كانت بطبعها قوية ، لا يخذلها الشعور بالقوة لحظة من حياتها . وكانت عيناها الجميلتان تنطقان احيانا بهذا الشعور نطقا يذهب بجمالها في رأى البعض ويضاعفه في رأى البعض الآخر . فلم تفتا اسيره لاحساس عنيف يتلهف على الغلبة والقهر . يتبدى في حرمها على فتنة الرجال . كما يتبدى في محاولتها التحكم في امها ، ويتعزى في اسوأ مظاهره فيما يشجر بينها وبين نسوة الزقاق من شغب وسباب وعراك ، حتى ابغضنها جميعا ، ورميتها بكل سوء . وربما كان من أغرب ما رميت به انها تبغض الاطفال ، وانها بالتالى متوحشة محرومة من نعمة الانوثة ، وهذا ما جعل امرأة المعلم كرشة القهوجى - امها بالزبالة - تتمنى على الله ان تراها اما ترضع الاطفال في كنف زوج جبار يبيتها بالضرب ويسبحها بالضرب ! مضت في سبيلها مستمتعة بنزهتها اليومية ، مرددة الطرف في معارض المتاجر المتعاقبة . كانت تهوى مشاهدة المعروضات النقيسة من الثياب والانية ، فتثير في نفسها الطموح المتلهفة على القوة والسيطرة

أحلاما ساحرة . ولذلك تركزت عبادتها للقوة في حب المال على اعتبار أنه المفتاح السحري للعالم ، المسخر لجميع قواها المدخورة . فجل ما كانت تعرفه عن نفسها أنها تحلم بالمال ، المال الذي يأتي بالثياب وبكل ما تشتهيهِ الأنفس . وعسى أن تتساءل : أيمن يا ترى أن تبلغ يوما ما تتمنى ؟ ! لم تكن الحقائق لتغيب عنها . ومع ذلك فهي لا تنسى قصة فتاة من بنات الصناديق ، كانت فقيرة في الأصل مثلها ، ثم أسعفها الحظ بزواج ثرى من المقاولين فانتسلاها من وهدتها ، ونقلها من حال الى حال . فماذا يمنع القصة أن تتكرر ، والحظ أن يبتسم مرتين في هذا الحى ؟ ! ليست دون صاحبته جمالا ، والحظ الذى لعب دوره في حياة الأخرى يستطيع أن يعيده مرات ومرات دون عناء أو خسارة . بيد أن هذا الطموح كان يضطرب في دنيا ضيقة تنتهى عند حدود ميدان الملكة فريدة . لا يدرى عما وراءها شيئا ، ولا عما تحويه هذه الدنيا الواسعة من أناس وحظوظ ، ولا كم منهم يلقى خيرا وسعدا ، وكم منهم يتردد مثلها حائرا لا يعلم لنفسه مرسى . فعلى كثر من هذه المنطقة رأت صويحباتها من عاملات المشغل قادمات ، فهرعت نحوهن وقد تخلصت من جميع أفكارها وابتمت أساريها ، وسرعان ما سلمن وأخذن في تافه الأحاديث ، وهى تتفحص وجوههن وثيابهن بأعين نافذة ، ذاهبة نفسها حشرات على ما يتمتعن به من حرية وجاه . أولئك فتيات صغيرات من أهل الدراسة ، خرجن بحكم ظروفهن الخاصة البائسة وظروف الحرب عامة عن تقاليدهن الموروثة ، واشتغلن بالمحال العامة مقتنيات باليهوديات ، ذهبن إليها مكدودات هزيلات فقيرات ، وسرعان ما أدركهن تبدل وتغير في ربح قصير من الزمن ، شبعن بعد جوع ، وكسبن بعد عري ، واملأن بعد هزال ، ومضين على أثر اليهوديات في العناية بالمظهر وتكلف الرشاقة ، ومنهن من يرطن بكلمات ، ولا يتورعن عن تابط

الأذرع والتخبط في الشوارع الغرامية . تعلمن شيئا واقتحمن الحياة . أما هي فقد فوت عليها عمرها وجهلها ما يمرحن فيه من فرص . وها هي تتمسح بهن والحسرة ملء حناياها ، غابطة حياتهن المرهقة وثيابهن المزرکشة وجيوبهن العامرة . كانت تضاحكن في صفاء كاذب والحسد يأكل قلبها ، ثم لا تتردد عن نهشهن - ولو على سبيل اللعابة الساخرة - لأقل هفوة ، فهذه فستانها قصير معدوم الحياء ، وهذه ذوقها سقيم ، وتلك عيناها تزوغان من التحديق في الرجال ، والرابعة كانها نسيت أيام كان القمل يرحف على رقبتها كالنمل ! كان هذا اللقاء بلا ريب من بواعث تمردها الدائم ، ولكنه كان كذلك أكبر تسلية لها في يومها الطويل المغمم تبرما وعراكا ، لذلك قالت يوما لامها وهي تنهد :

— حياة البهود هي الحياة حقا !

فانزعجت أمها وقالت :

— انك من نبع أبالسة ودمى برىء منك . .

فكانت الفتاة امعانا في اغاظتها :

— لا يجوز أن اكون من صلب باشوات ولو على سبيل الحرام !

فهزت المرأة رأسها ، وقالت ساخرة :

— رحم الله أبالك بائع الدوم بمرجوش . .

سارت وسط صويحباتها تياهة بجمالها ، مدرعة بلسانها الطويل ، يلدها أن الاعين تمر بهن مر الكرام وتستقر عليها دونهن . ولما انتصف الموسكى او كاد لاحت منها التفاتة الى الطريق فرأت عباس الحلو يسير متاخرا عنهن قليلا وعيناه تلحظانها بتلك النظرة المألوفة . وتساءلت عما دعاه الى ترك دكانه في هذه الساعة على غير عادة . هل تبعها عمدا ؟ ألم يعد يقنع برسائل النظر ؟ كان على فقره متأنقا كأكثرية اهل فنه ، فلم يضايقها ظهوره . وقالت لنفسها : ان اية واحدة من صاحباتها لا تطمع في زوج خير منه ،

- ٤٦ -

كانت تجد نحوه شعورا غريبا معقدا ، فهو من ناحية الساب الوحيد في الزقاق الذي يصلح لها زوجا ، وهى من ناحية اخرى تحلم بزواج على مثال المقاتل الفنى الذى حظيت به جارنها فى الصناديق ، فهى لا تحبه ولا تتمناه ، وفى الوقت نفسه لا تقطعه . ولعلها تسرها نظراته المشوقة ! . وكان من عادتها ان توصل الفتيات حتى نهاية الدراسة ثم تعود بمفردها الى الزقاق . فسارت بينهن وهى تسترق اليه النظر ، فلم تعد تشك فى انه يتبعها عامدا ، وانه ينوى ان يخرج من صمته اخيرا . ولم تخطئ ظنونها ، فما كادت تودع آخر الفتيات وتدور على عقبها حتى انحدر نحوه من الطوار ، وفى خطوات مضطربة ووجه ينطق بالانفعال ، وقاربها حتى حاذها ، ثم قال بصوت متهدج :
- مساء الخير يا حميدة .

فالتفت نحوه كالمنزعجة وكأنها بوغتت بظهوره مباغطة . ثم قطبت وأوسعت خطاها دون أن تنبس بكلمة ، فتورد وجهه . ولكنه عاد يقول بصوت ينم عن العتاب :
- مساء الخير يا حميدة .

وخافت أن هى لأزمت الصمت مع هذا الخطو الخنيث ان ينتهيا الى الميدان الماهول قبل ان يقول ما يريد ، وكانت راغبة فى سماعه ، فقالت فى لهجة تنطق بالاستياء :
- يا للعار ! جار وتفعل كالغريب !
فقال عباس بلهفة :
- بل جار حقا ، ولا افعل كالغريب ، احرام على الجار أن يتكلم ؟

فقالت عابسة :
- نعم الجار يحمى جارته ، لا ان يهاجمها . .
فقال الشاب بصدق حار :

— ٤٧ —

— انا جار وأعلم واجبات الجار . ولم يخطر ببالي قط أن
اهاجمك — لا سمح الله — بيد انى اريد ان احدثك ، ولا عيب أن
يحدث الجار جلوته . . .
— كيف تقول هذا ؟ ! اليس من العيب أن تتعرض لى فى
الطريق ، وتعرضنى للفضيحة ؟ . . .

فهاهه قولها . وقال بأسف :
— الفضيحة لا . . . معاذ الله يا حميدة ، صدرى طاهر ،
ولا ينك لك الا الظهر وحياة الحسنيين ، وستعلمين ان كل شيء
سيتتهى بما أمر به الله لا بالفضيحة ، فاهضنى الى قليلا ، اريد
ان احدثك عن أمر هام . ميلى بنا الى شارع الأزهر بعيدا عن
اعين الدين يعرفوننا . . .

فقالت باستياء متضنع :
— بعيدا عن اعين الناس ؟ ! ما شاء الله ؟ . دمت من جار
طيب حقا !

وكان قد تنسج بمنازعتها اياه الحديث ، فقال بحرارة :
— ما ذنب الجار ؟ ! . . . اموت قبل ان ينوح بدات نفسه !
فقالت بسخرية :
— ما اطهر كلامك . . .

فقال عباس بلهفة وثبت باشفاقه من اقتراب الميدان الماهول :
— طاهر النية وسيدنا الحسين . لا تسرعى هكذا يا حميدة .
ميلى بنا الى شارع الأزهر . اريد ان اقول لك كلمة هامة .
ينبغى ان تصفى الى . انت تعلمين ولا شك بما اريد قوله .
الا تعلمين ؟ الا تشعرين ؟ قلب المؤمن دليله . . .
فقالت كالغاضبة :

— لقد جاوزت حدك . كلا . كلا . . . دعنى . . .
— حميدة . . . انا اريد ان . . . انا اريدك . . .

— يا للعار . دعنى والا فضحتنى امام الخلق .

وكانا قد بلغا ميدان الحسين ، فمرقت من جانبه الى الطوار
الايسر وحشت خطاها على عجل ، ثم انعطفت الى الفورية وهى
تبسم ابتسامة خفيفة . كانت تعلم ما يريد قوله كما قال ، ولم
تنس انه الفتى الوحيد الصالح لها فى الرقاق ، وقد قرأت فى
عينيه البارزين أى الحب كما قرأتها مرارا من نافلتها فى الماضى
القريب ، ولكن هل حرك ذلك جميعه قلبها الجامد الجحود ؟
اما حالته المالية التى تعلم عنها الشئ الكثير فلا يمكن أن تحرك فيها
ساكنا ، واما شخصه فوديع تنم عيناه عن القناعة والخضوع ،
مما يجعله خليقا بأن يرتاح اليه فؤادها المغمم بالسيطرة ، بيد
أنها وجدت نحوه — رغم ذلك — نفورا لم تدر له سببا ، ماذا
تريد ماذا ؟ ومن يرضيها اذا لم يرضها هذا الفتى الوديع الطيب ؟!
لم تهتد لجواب بطبيعة الحال ؛ وقد عزت نفورها منه الى فقره ! .
والظاهر ان حبها للسيطرة كان تابعا لحبها العراك لا العكس ،
فلم تهش للمسألة ، ولم تفرح بظفر هين سهل المنال . وكان
قلبها ما يزال فى غفوته لم يستبين بعد رغائبه ، فملأها شعورها
البهم الغامض حيرة وقلقا .

وتكص عباس الخلو عن ملاحظتها خيفة الامين ، فترجع مغمم
الفؤاد خيبة وحسرة ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليأس . قال
لنفسه وهو يسير متمهلا غافلا عما حوله : انها بادلتها الكلام
طويلا ، ولو قصدت صده ونبذه ما منعها مانع ولا اعيتها الحيلة ،
فهى لا تكرهه ، ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعا ، ولعله الحياء
الذى جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار . فكان أبعد الناس
عن اليأس ، بل راح يستسلم لمغازلة الامل ويتوثب للكرة التالية .
وقد سكر قلبه برحيق نشوة ساحرة لم يكن له عهد بمثلها من
قبل . كان مجبا صادقا ملتهب العاطفة ، وكان يشعر حيال

نظراتها النافذة الجميلة بخضوع كلى ، ولدة لا حد لها ، وحب لا يبيد . أجل كان كأمثاله من الفتيان مولعا بالنساء عامة ؛ ولكنه كان كالحمام يحلق فى السماء ويطوف بأطرافها ثم يقع فى النهاية على برجه ملبيا صغير صاحبه ؛ فهى دون النساء جميعا أمله المنشود . أجل لم تعد مخاطرته خائبة ؛ وفتحت له اكمام الأجلال من زهر الآمال ، فعاد منتشيا مسرورا فرحا بحبه وبشبابه . ولما عرج الى الصنادقية صادف الشيخ درويش قادما من ناحية الحسين ؛ فالتقيا عند مطلع الزقاق ، وأقبل على الشيخ يريد أن يصافحه تبركا . ولكن الشيخ أشار نحوه بسبابته محذرا ، وحملق فى وجهه بعينه الدابلتين وراء نظلته الذهبية وقال :

— لا تمس بلا طربوش ! احذر تعرى راسك فى مثل هذا الجو فى مثل هذه الدنيا . فمخ الفتى يتبخر ويطير ، وهذا أمر معروف فى المأساة ، ومعناه بالانجليزية Tragedy وتهجيتها Tragedy

٦

وكان المعلم كرشة قد شغل بأمر هام ، ومن النادر أن ينصرف عام من حياته دون أن يشغل نفسه بمثل هذا الأمر ، على ما يسببه له من الكدر والتنغيص . بيد أنه كان رجلا مسلوب الإرادة ، لم يترك له الحشيش من أرائده نفعا . ومع ذلك كان على خلاف الأكثرية من تجار هذا الصنف فى حكم الفقراء ، لا لأن تجارته غير نافقة ، ولكن لأنه كان مبذرا — فى غير بيته — يبعثر ما يربحه ، وينثر المال بلا حساب ، جاريا وراء شهواته ، خصوصا هذا الداء الوبيل .

وعندما أذنت الشمس للمغيب غادر القهوة دون أن ينبىء
 تنقير عن طيته ، مرتديا عباءته السوداء ، متوكئا على عصاه
 العجرا ، ينقل على مهل خطواته الثقيلة ! ولا تكاد تدل عيناه
 الظلمتان المتخفیان تقريبا وراء جفنيه الغليظين على أنه يحسن
 رؤية طريقه . وكان قلبه يخفق ! والقلب يخفق ولو شارب
 صاحبه الخمسين . ومن عجب أن العلم كرشة قد عاش عمره في
 أحضان الحياة الشاذة ، حتى خال لظول تمرغه في ترابها انها الحياة
 الطبيعية . هو تاجر مخدرات امتاد العمل تحت جنح الظلام ،
 وهو جريد الحياة الطبيعية وفريسة التدوؤ . واستسلامه
 لشهواته لا حد له ولا ندم عليه ولا توبة تنتظر عنه . بل انه ليظلم
 الحكومة في تعقبها لامثاله ، ويلعن الناس الذين جعلوا من شهوته
 الأخرى مثالا للازدراء والاحتقار ، فيقول عن الحكومة : « انها
 تحلل الخمر التي حرمها الله ، وتحرم الحشيش الذي اباحه !
 وترعى الحانات الناشرة للسموم ، في حين تكبس « الفرز » وهي
 طب النفوس والعقول . وربما هز رأسه أسفا وقال : « ماله
 الحشيش » ! « راحة للعقل وتحلية للحياة وفوق هذا وذاك فهو
 مدر للنسل ! » وأما عن شهوته الأخرى فيقول بقبحته المعهودة :
 « لكم دينكم ولي دين ! » ولكن ايلافه شهواته لا يمنع من أن يخفق
 قلبه كل مطلع هوى جديد . وقد يسار متمهلا في الغورية
 ومستسلما لخواطره ، يتساءل والأمل ملء فؤاده : « ماذا يا ترى
 وراءك أيها المساء ؟ » وعلى رغم انهماكه في خواطره كان يحس
 بالذكاكين على الصفيين اخنسانا غامضا ، ويزد بين الفينة والفينة
 تحينات بعض اصحابها من معارفه . وكان يسعى الظن بهذه التحينات
 وامثالها ، ولا يدري ان كانت لمحض السلام أمان وراءها ما وراءها
 من الغمز واللمز . قال الناس لا يريحون ، ولا يستريحون ،
 ويتلقفون المثالب بافواه نهمة جشعة . وطالما قالوا فيه واعادوا ،

— ٥١٠ —

فماذا أفادهم التشهير ؟ لا شيء ! وكأنه ولع بتجديدهم ، فواجه يجهر بما كان يسره . وهكذا مضى في سبيله حتى اقترب من آخر دكان على يساره فيما يلي الأزهر . فاشتد خفقان قلبه وتناست تحيات الناس التي أثارت سوء ظنه . وانبعث من عينيه المنطقتين نور خافت شرير . وراح يرنو منه بغيه الفاجر وشفته المتدلية . وجاز عتبه . دكان صغير يجلس في صدره شيخ عجوز وراء مكتب صغير . ويستند الى احد رفوفه المكدسة بالبضائع بائع متسربل بالشباب اليافع . ما إن رأى القادم حتى استقام ظهره . وتلقاه بابتسامة البائع اللبق . وارتفع الجفنان الثقيلان لأول مرة واستقرت العينان على الشاب . ثم حيا برقة . ورد الشاب التحية في لطف ، وقد ادرك لأول وهلة انه يرى هذا الرجل للمرة الثالثة في ثلاثة أيام متتابعات . وقد تساءل : لماذا لا يبتاع ما يريده مرة واحدة ؟ وقال المعلم :

— ارنى ما عندك من جوارب . .

فاحضر الشاب انواعا منها وبسطها على « طاولة » المحل ، واخذ المعلم يتفحصها وهو يخالس النظر الى وجه الشاب ، والشباب لا يخفى امره عليه . وقد دارى ابتسامة كادت ترسم على ثغره . وتعهد ان يطيل الفحص والتقصي ، ثم قال للشباب بصوت منخفض :

— لا تؤاخذنى يا بنى فبصرى ضعيف . هلا اخترت لى لوأنا مناسبا يدوئك الجميل . .

وسكت لحظات يتفرس في وجهه ، ثم اردف وهو يرسم ابتسامة على شفثيه المتدلية :

— كوجهك الجميل . .

فأراه الشاب الجميل نوعا متجاهلا اطراءه ، فاستدرك الرجل قائلا :

- لف لى ستة ..

وتريث حتى مضى الشاب يلف الجوارب ، ثم قال :

- الأفضل ان تلف لى اثنى عشر .. انا رجل لا ينقصنى

المال والحمد لله !

ولف الشاب له ما أراد صامتا ، ثم غمغم وهو يناوله الليفة:

- مبارك ..

فابتسم المعلم كرشة ، او بمعنى آخر انفرج فمه انفراجة

آلية قصيرة يرافقتها اضطراب خفيف فى جفنه ، وقال بخبث :

- شكرا لك يا بنى (ثم بصوت منخفض) الحمد لله !

وغادر الدكان بعد أداء الثمن منفلا كما دخله . واتجه نحو

شارع الأزهر ، ثم عبره مهرولا الى الناحية الأخرى ، ووقف لصق

شجرة فى مقابل الدكان مستظلا بالظلمة الأخذة فى الانتشار ، وقف

يدا متوكئة على العصا ويذا قابضة على الليفة ، وعيناه لا تتحولان

عن الدكان من بعيد . كان الشاب بموقفه حين دخل الدكان وقد

شبك ذراعيه على صدره ، فجعل ينظر نحوه ، لا يكاد يرى منه

الا صورة غامضة المعالم ، ولكن ذاكرته وخياله اسعفاه بما لم

يسعفه به البصر الكليل : وراح يقول لنفسه : « أدرك المراد بلا

ريب! » ثم ذكر كيف كان رقيقا لطيفا مؤدبا . ورجعت أذناه سوته

وهو يغمغم : « مبارك » فأللج صدره وتنهذ من الأعماق . ولبث

فى مكانه سوية مضطربا بالقلق والتوتر ، حتى رأى الدكان يفلق

ابوابه ، وقد افترق عنده الشيخ العجوز الذى اتجه صوب

الصاغة ، والشاب الذى سار نحو شارع الأزهر . ابتعد المعلم

عن الشجرة رويدا ، وسار فى الاتجاه الذى يتسمته الشاب ،

فراة هذا بعد أن عبر ثلثى الطريق ، ولكنه لم يبد اهتماما ،

وأوشك أن يمر به دون اكتراث لولا أن دنا منه المعلم وقال بركة:

- مساء الخير يا بنى .

- ٥٣ -

فنظر الشاب وقد نمت عيناه عن ابتسامة خفيفة وتمتم :
- مساء الخير يا سيدى .
فساله لمحض الرغبة فى مجاذبته الحديث :
- اغلقت الدكان ؟
ولاحظ الشاب ان الرجل يتناقل كأنما يدعوهُ الى التريث ،
ولكنه ثابر على متبته وهو يقول :
- أجل يا سيدى .
فاضطر الرجل الى مسايرته ، فسارا معا على الطوار والمعلم
لا يحول منه رأسه ، ثم قال :
- ساعات عملك طويلة ، كان الله فى عونك .
فنفع الشاب قائلا :
- ما الحيلة ؟ أكل العيش يحب التعب ..
فسر المعلم باقبال الفتى على محادثته ، واستبشر خيرا
برفقته وقال :
- رزقك الله بتعبك يا بنى ..
- أشكر لك يا سيدى .
فقال الرجل بحماسة :
- تعب كلها الحياة حقا ، ولكن من النادر جدا أن ينال التعب
الجزاء الذى يستحقه ، فما أكثر العاملين المظلومين فى هذه الدنيا .
فشد هذا الكلام على وتر حساس فى قلب الفتى وقال بتبرم :
- صدقت يا سيدى ، ما أكثر العاملين المظلومين فى هذه
الدنيا ..
- الصبر مفتاح الفرج . أجل ما أكثر المظلومين ، ومعنى
هذا بالحرف الواحد ما أكثر الظالمين . ولكن من لطف الله أن
الدنيا لا تخلو من رحماء كذلك ..
فتساءل الفتى :

- أين هؤلاء الرخماء ؟
وكاد يجيبه : « هأنذا واحدا منهم » ، ولكنه أمسك عن ذلك ، وقال بلهجة إلتائب :
— لا تكن متشائما يا بنى فامة محمد بخير ، (ثم غير لهجته قائلا) : علام تسرع ؟ أمستعجل انت ؟؟
— ينبغي ان أذهب الى البيت لأغير ملابسى .
فسأله باهتمام :
— وبعد ذلك ؟
— أنطلق للقهوة .
— أية قهوة ؟
— قهوة رمضان .
فابتسم المعلم ابتسامته الآلية حتى لمت أسنانه الذهبية في الظلمة ، وتساءل في اقراءه :
— لماذا لا تشرف قهوتنا ؟
— أية قهوة ياسيدى .. ؟ ..
فاخشوشن صوت المعلم وهو يقول :
— قهوة كرشة بالمدق ، محسوبك المعلم كرشة !
فقال الفتى بامتنان :
— تشرفنا يا معلم ، هذه قهوة ذالعة الصيت ..
فسر المعلم ، وسأله بلهجة ثشى بالرجاء :
— أنأنى ؟
— ان شاء الله ..
فقال المعلم كمن نفذ صبره :
— كل شىء بمشيئة الله . ولكن اتنوى الحضور حقا ام تقول ذلك تملصا منى ؟
فضحك الشاب ضحكة رقيقة وقال :

— ٥٥ —

- بل أنوى الحضور حقا ..
 — الليلة اذا !
 ولما لم ينبس الفتى بكلمة ، قال الآخر بتوكيد وقلبه يرقص
 طربا :
 — لا بد ..
 فغمغم الشاب :
 — بلأن الله ..
 فتنهذ الرجل بعوت مسموع ثم ساله :
 — أين تقيم ؟
 — عطفة الوكالة ..
 — نحن جيران تقريبا . متزوج ؟
 — كلا .. مع اهلى ..
 فقال برقة :
 — انت ابن ناس طيبين كما يبدو لى ، الاناء الطيباء ينضج
 ماء طيبا . وينبغى أن ترعى مستقبلك بعين الاهتمام ، اذ لا يجوز
 أن تبقى مدى العمر عاملا بسعيطا فى ذكان ..
 فلاح الاهتمام والطموح فى الوجه الجميل ، وتساءل الشاب
 فى خبث :
 — وهل لمثلنى أن يطمع فى أكثر من هذا ؟ !
 فقال المعلم كرشة باستهانة :
 — هل نسقت « بنا » الخيل ! ألم يكن جميع الكبار ضغارا ؟
 — بلى كانوا ، ولكن ليس من المحتم أن ينقلب الصغير كبيرا .
 فأردف المعلم يتم كلام الفتى :
 — الا اذا صادفه التوفيق ! فلنذكر هذا اليوم الذى تعارفنا
 فيه على أنه يوم توفيق عظيم . أنتظره الليلة ؟ !
 فتردد الفتى قليلا ، ثم قال مبتسما :

- لا يابى الكرامة الا لثيم ! .

وتصافحا عند بوابة المتولى ، ثم رجع المعلم يخبط فى الظلماء .
صحا الرجل الداهل وسرى فى صدره دفء السرور . ولم يكن
يستيقظ من ديا النسيان التى يغط فيها الا اذا لطمته موجة
عنيقة من شهواته الخبيثة . ومر فى طريقه بالدكان المغلق فالتقى
عليه نظرة طويلة تفيض بالشوق . وعاد الى الرقاق وقد اغلقت
دكاينه ، وكادت تشمله الظلمة لولا النور المنبعث من القهوة .
وكان جو القهوة على خلاف الجو البارد فى الخارج - دافئا يحفظ
حرارته دخان الجوز وأنفاس السمار ووهج « النصبه » ، وقد
تربع الحاضرون على الأرائك يتحدثون ويحتسون الشاي
والقهوة ، والراديو يذيع ما فى جوفه فلا يلقى الا الاعراض
والاهمال كأنه خطيب ثقيل يخطب صما ، ودار سنقر كالنحلة
لا يسكن ولا يكف عن الصياح . مضى المعلم الى مجلسه وراء
صندوق الملوكتات فى هدوء بالغ متحاميا الأنظار . واتفق عند
حضوره أن كان عم كامل يسأل اصحابه ان يقنعوا عباس الحلو
بالنزول من الكفن المحتفظ له به ، ولكنهم ابوا عليه ذلك وانكروا
غرضه ، وقال له الدكتور البوشى :

- لا تفرط فى كسوة الآخرة . ان الانسان ليعيش كثيرا فى
دنياه عاريا ، اما عتبة القبر فلا يمكن ان يجوزها عاريا مهما
كان فقره ..

وتكرر الرجاء من ناحية الرجل الساذج فاصطدم كل مرة
بالرفض والسخرية ، حتى كف الرجل يائسا ، وراح الحلو بعد
ذلك يعلن للاخوان ما اعتزم من العمل فى الجيش البريطانى .
ويستمع الى آرائهم ونصائحهم ؛ وقد اجتمعت كلمتهم على
الموافقة على مشروعه ، وتمنوا له النجاح والثراء . وكان السيد
رضوان الحسينى منهمكا فى حديث طويل من أحاديثه المليئة
بالوعظ والارشاد ، وقد مال على محدثه وأنشأ يقول :

.. فلا تقل مللت ! الملل كفر . الملل مرض يعتور الايمان .
 وهل معناه الا الضيق بالحياة ؟! ولكن الحياة نعمة الله سبحانه
 وتعالى ، فكيف لمؤمن أن يملها أو يضيق بها ! ستقول ضقت
 بكيت وكيت ، فأسالك من اين جاءت كيت وكيت هذه ؟ اليس
 من الله ذى الجلال ؟ فعالج الامور بالحسنى ، ولا تتمرد على صنع
 الخالق . لكل حالة من حالات الحياة جمالها وطعمها ، بيد أن
 مرارة النفس الامارة بالسوء تفسد الطعوم الشهية . صدقنى ان
 للألم غبطته واللباس لذته وللموت مظهره ، فكل شيء جميل وكل
 شيء لذيذ ! كيف نضجر ، وللسماء هذه الزرقة ، وللأرض هذه
 الخضرة ، وللورد هذا الشدا ، وللقلب هذه القدرة العجيبة على
 الحب ، وللروح هذه الطاقة اللانهائية على الايمان . كيف نضجر
 وفى الدنيا من نحبههم ، ومن نعجب بهم ، ومن يحبوننا ، ومن
 يعجبون بنا . استعمل بالله من الشيطان الرجيم ولا تقل مللت .
 وحسا حسوة من قدح القرفة ، ثم أردف وكأنه يعبر عن
 خلجات ضميره :

— اما المصائب فلنصمد لها بالحب ، وسنقهرها به . الحب
 اشفى علاج . وفى مطاوى المصاب تكمن السعادة كقصص الماس
 فى بطون المناجم الصخرية ، فلنلقن انفسنا حكمة الحب .

كان وجهه الابيض الوردى يفيض بشرا ونورا ، تحيط به
 لحيته الصهباء احاطة الهالة بالقمر . وكان كل شيء حوله يلوح
 بالتقاييس الى طمانيئته الراسخة قلعا مضطربا . وكان نور عينيه
 صافيا نقيا ينطق بالايمان والخير والحب والترفع عن الأغراض .
 وربما قيل انه رجل خسر الجاه يوم اخفق فى دراسته الأزهرية
 وانه آيس من خلود الدنيا حين ثكل الابناء ففزعت نفسه الى
 تعويض خسرانها الغادح بالاستيلاء على القلوب بالحب والجود !
 ولكن كم من المصايين مثله من سلك سبيله ، وكم منهم من

سقط فريسة الجنون ، وكم منهم من سب جام غضبه على الدنيا والدين ؟! ومهما يكن امر نفسه الخافية فعما من شك في اخلاصه ، كان مؤمنا صادقا ، ومحيا صادقا ، وجوادا صادقا . ومن عجيب ان يكون هذا الرجل — الذى طار صيته في الخير والحب والجود كل مطار — حازما حابها وعلى فظاظة وحرس في بيته ! ربما قيل انه وقد آيس من كل سلطان حقيقى في هذه الدنيا يفرض سيطرته على المخلوق الوحيد الذى يلزم لارادته ، الا وهو زوجه ! وانه وشيع شهورته الجائعة للنفوذ والسلطان باسطناع الجزم والمهاية معها . ولكن ينبغي الا نسفك من حساب التغدير تغاليد الزمان والكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المراد وفلسفتها ، وما تراه اكثرية اهل طبقتها من وجوب معاملة المرأة كالطفل بتحقيقا لبعادتها هي نفسها قبل كل شيء على ان زوجه نفسها لم ينس لها شيئا ما بشكوه نحوه ، ولولا الجروح التى تركها الابناء بذكرها خالدا في قلوبها ، لعدت نفسها امرأة سعيدة ، فخورا بزوجها وحياتها .

اما المعلم كرشة فكان حاضرا غائبا ، لم يطمئن به المجلس لحظة واحدة ، وعانى مرارة الانتظار في صمت كئيب . ولما مرت دقائق لوى عنقه واشرب به نحو مطلع الزقاق ، تم يعود الى صندوق الماركات متصبرا متجلدا قائلا لنفسه : « سيأتى نجتما ، سيأتى كما اتى اخوان له من قبل . . . » . ومثل له وجهه ، ثم نظر الى الكرسي القائم بينه وبين اريكة الشيخ دروينس فراه بعين الخيال يطمئن اليه . لم يكن فيما سلف ليجرؤ على دعوة احد من امثال هذا الشاب الى قهوته تسترا وخياه ، ثم افترض امره : « وذاقت فضيحتي » ، فكشف وجهه وارتاد الائم جهارا : « وكان يقع البيئة ولين روجه من الماسى ما يبقى حذينا فاضحا تتناقله اللسان » ، ويثقله بئس الغف : امثال الدكتور بوشى وأم حميدة ، ولكنه لم يقل شيئا : « وما يكاد النار تخدم الى

حين حتى يصب عليها نفطا بسوء سيرته فيضرها ضراما ، وكأنه وجد اخيرا في الجهر لذة فلهج بها . وهكذا جلس قلقا لا تعرف السكنينة سبيلا الى نفسه الملوثة . كأنه يجلس على مشواة ، يكاد ينبرى عنقه من كثرة ليه ، حتى لاحظ الدكتور بوشى اضطرابه وقال للحلو فى خبث :

— هذه علامات الساعة ! .

وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته فجأة ، وانشد يقول :

حننت الى ريا ونفسيك باعدت

مواذك من ريا وشبعيا كما مبعا .

فمما حسن ان تاتى الامر طائعا

وتجرع ان داعى الصباية اسمعا

اه يا ست . الحب يساوى الملايين . انفقت فى حبك يا ست

مائة ألف جنيه ، وانه لقدر زهيد .

واخيرا راي الدكتور بوشى المعلم كرشة يحرق باهتمام شديد فى مطلع الزقاق ، وراه يستوى جالسا وقد ابتسمت اثاريره ، فنظر الى مدخل القهوة مترقبا ، وما لبث ان طالعة بوجه الشاب ، وقد اتى على السمار نظرة التردد من عينيه المشاجيتين .

٧

يقع الفرن فيما يلى قهوة كرشة ، لصق بيت الست سنية
عفيفى . بناء مربع على وجه التقريب ، غير منتظم الاضلاع . تحتل
الفرن جانبه الأيسر ، وتشغل الرفوف جدرانها . وتقوم مصطبة
فيما بين الفرن والمدخل ينام عليها صاحبها الدار : المعلمة حسنية
وزوجها جعدة . وتكاد الظلمة تطبق على المكان ليل نهار لولا
الضوء المنبعث من فوهة الفرن . وفى الجدار المواجه للمدخل يرى
باب خشبى قصير يفتح على خرابة ، تسطع فيها رائحة تراب
وقدارة ، اذ ليس بها الا كوة فى الجدار المواجه للمدخل تطل على
فناء بيت قديم . وعلى بعد ذراع من الكوة ، وعلى رف ممتد ،
مصباح يشتعل ، يلقى على المكان ضوءا خفيفا يفضح أرضه المتربة
المغطاة بأنواع لا يحصيها العد من القاذورات المتنوعة ، كأنها مزبلة ،
أما الرف الذى يحمل المصباح فطويل ممتد بطول الجدار قد رصت
عليه زجاجات كبيرة وصغيرة وادوات مختلفة وأربطة كثيرة ، كأنه
رف صيدلى لولا قذارته النادرة . وعلى الأرض - تحت الكوة
مباشرة - كان يوجد شيء مكوم لا يفترق عن أرض المكان قدارة
ولونا ورائحة لولا أعضاء ولحم ودم تهبه الحق - على رغم كل
شيء - فى لقب انسان ؟ ذلك هو زينة مستاجر هذه الخرابة من
المعلمة حسنية الفرانة وحسبه ان يرى مرة واحدة كيلا ينسى
بعد ذلك أبدا ، لبساطته المتناهية ، فهو جسد نحيل أسود ،
وجلباب أسود ، سواد فوقه سواد ، لولا فرجتان يلمع فيهما
بياض مخيف هما العينان . ولم يكن زينة - على ذلك - زنجيا ،
بل انه مصرى أسمر اللون فى الأصل . ولكن القدارة الملبدة بمرق

العمر كونت على جثته طبقة سوداء ؛ كذلك جلبابه لم يكن فى البدء اسود ، ولكن السواد مصير كل شىء فى هذه الخرابة . وهو لا يكاد يمت بسبب للزقاق الذى يعيش فيه ، فلا يزور ولا يزار ، لا نفع فيه لاحد ولا نفع فى احد له ، اللهم الا الدكتور بوشى ، والآباء الذين يستعينون بصورته على تخويف اطفالهم ، اما صناعته فمعروفة لدى الجميع ، وهى صناعة تخول له لقب دكتور وان لم يتخذة اكراما لبوشى . كان يصنع العاهات ، ليست هذه العاهات الطبيعية المعروفة ، ولكن عاهات صناعية من نوع جديد . يقصده الراغبون فى احترام الشحاذة ، فبفنه العجيب - الذى يحشد ادواته على الرف - يصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات . يجيئونه صحاحا ويفادرونه مميانا وكسحانا واحدا با وقصانا ومبتورى الاذرع او الأرجل ، وقد اكتسب البراعة فى فنه من تجارب الحياة التى صادفته ، وعلى راسها جميعا اشتغاله عهدا طويلا فى شرك متجول ، ولا اتصاله بأوساط الشحاذين - اتصالا يرجع عهده الى صباه حين كان يعيش فى كنف والدين شحاذين - فكر فى تطبيق فن « المكياج » الذى تلقنه فى الشرك على بعض الشحاذين . فى بادئ الامر على سبيل الهواية ، ثم على سبيل الاحتراف حين ضاقت به اوجه العيش . ومن مشاق عمله انه يبدأ فى الليل ، او عند منتصف الليل على الأصح ، ولكنها مشقة غدت بالعادة مألوفة ميسرة . اما فى اثناء النهار فلا يكاد يفارق الخرابة بحال . يجلس القرفصاء يأكل او يدخن ، او يتسلى بالتجسس على الفرن والفراثة ، ولكم كان يلده ان يسرق السمع لما يدور بينهما من حديث ؛ او ان يشاهد من تقب الباب انهيال المرأة بالضرب على زوجها صباح مساء ، حتى اذا اتى الليل رآهما وقد شعلهما الصفاء واقبلت المعلمة على زوجها القرد تمازحه وتبأسطه السمر . وكان زبطة يمقت جعدة ويحتقره ويستقبح

وجهه ! فضلا عن ذلك كله كان يحسده على ما حباه الله به من
 ذوق «كاملة الجسم» او على حد تعبيره «امراة بقري !» . وكان
 كثيرا ما يقول عنها انها في دنيا النساء تقابل عم كامل في دنيا
 الرجال ! . وكان من اهم الأسباب التي دعت اهل الزقاق الى
 تجنبه رائحته المنتنة ، فلم يكن الماء يعرف سبيلا الى وجهه
 او جسده . وقد أثر وحشة العزلة على الاستحمام ! وبادل
 الناس مقنا بقت عن طيب خاطر ، فكان يرقص طربا اذا قرع
 مسمعية صوات على ميت ، ويقول وكأنه يخاطب الميت : « جاء
 ذورك لتدق التراب الذي يؤذك لونه ورائحته على جسدى ! » .
 وربما قطع وقت فراغه الطويل في تخيل صنوف التعذيب التي
 يمتناها للناس واجدا في ذلك لذة لا تعادلها لذة ، يتصور جمعة
 الفران هدفا لعشرات القوسى تضربه حتى تتركه كتلة مهشمة
 كلها ثقب . او يتخيل السيد سليم علوان وقد استلقى على
 الأرض ووابور الزلط يروح عليه ويجيء ودمه يجري نحو
 الصناديق . او يتمثل له السيد وضوان الحسينى تجره الأيدي
 من لحيته الصهباء نحو الفرن المتهبة ثم يستخرجونه منها زكية
 من الفحم . او يرى المعلم كرشة مطروحا تحت عجلات الترام
 يمزق أوصلاله ثم يلعون أشلاءه في مقطف قدر ييمونه لهواة
 الكلاب . وغير هذا كثير مما يراه دون ما يستحق الناس .
 وكان اذا باشر عمله واخذ في صنع العاعة لطالباها ، اشتد عليه
 في قسوة مقصودة مستخفيا وراء سر المهنة ، حتى اذا ندت
 التناوهات عن قريسته لعت عيناه المخيفتان بنور جنونى . ومع
 ذلك كان الشحاذون احب البشر الى نفسه ، وتمنى كثيرا لو كان
 الشحاذون اكثرية اهل الأرض .

هكذا جلس زينة غارقا في احيائه يترب وقت العمل ،
وعندما انتصف الليل او كاد نهض قائما ، ونفخ المصباح فانطفا
وساد ظلام ثقيل . ثم تلمس طريقه الى الباب وفتحه في هدوء
بالغ ، ثم اخترق الفرن الى الرقاق . والتقى في سبيله بالشيخ
درويش يغادر القهوة ، وكثيرا ما يلتقيان في منتصف الليل دون
ان يتبادلا كلمة واحدة ، ولذلك كان للشيخ حظ موفور في محكمة
التفتيش التي ينسبها زينة في خياله للبشر . وانعطف صانع
العاهات الى سيدنا الحسين في خطوات قصيرة وثيدة ، وكان
يقرب في سيره من جدران البيوت على رغم الظلمة الخالكة - كانت
بعض قيود الاضواء ما تزال موجودة - فلا يراه المقبل نحوه في
الطريق حتى يصطدم بعينيهِ المبرقتين تلمعان في الظلام لمعان
القطعة المعدنية في حزام الشرطي . وفي الطريق ، يداخله شعور
بالانتعاش والزهو والسُرور ، فهو لا يشقه الا حين يكاد ينقطع
الا من الشحاذين الذين يدينون له بالسيادة المطلقة . وشق ميدان
الحسين منعطفًا صوب الباب الاخضر فبلغ القبو القديم ، وجعل
يردد عينيهِ المخيفتين بين اكوام الشحاذين على جانبيه ، فملاه
الارتياح . . ارتياح السيد الى قوته ، وارتياح التاجر يرى بين
يديهِ السلع النافقة : ودنا من اقرب الشحاذين اليه ، وكان
جالسا ^{القبو} في ^{القبو} معتيدا راسه على ركبتيهِ ويغط غليظا ، فوقف
حياله لحظة متفرسا كأنما ليسبر نومه هل هو نوم حقيقة او نفا
بالنوم ، ثم ركله في راسه الاشعث ، فانبثج الرجل من نومه
- غير مدعور - كأنما يقظته انامل ناعمة ، ورفع رأسه متشاقلا
وهو يحك جنبه وظهره ورأسه باظافره . فوقع بصره على الشبح
المشرف عليه ، وحملق فيه لحظة ، فمرنه - على عماء - لاول
وهلة . وتنهَّد الرجل فند عن صدره صوت كالوحوحة ، ثم دس
يده في صدره واستخرج مليما غمز به كف الرجل . وانتقل

زبيطة الى من يليه ، ثم الى من يليهما ، حتى اذا فرغ من جناح القبو جميعا اتجه نحو الجناح الآخر ، ثم مضى الى الازقة والحوارى المحيطة بالجامع الكبير لا يفلت منه شحاذ واحد . ولم يكن اكبابه على تحصيل يوميته لينسيه واجب رعاية العاهات التى سنمها . وربما سال هذا أو ذاك : « كيف عمالك يا فلان ؟ » او « كيف كساحك يا فلان ؟ » فيجيبونه : « الحمد لله .. الحمد لله » . ثم دار حول المسجد من الناحية الأخرى وابتاع فى طريقه رغيفا وحلاوة طحينية وتبغا ورجع الى الزقاق . كان الصمت شاملا يقطعه بين آونة وأخرى ضحكة أو سعلة ساقطة من أعلى بيت السيد رضوان الحسينى حيث تجتمع غرزة المعلم كرشة . وجاز الرجل عتبة القرن فى هدوء بالغ أن يوقظ الزوجين ، ودفع بابه الخشبي فى حذر ورده فى سكون .. لم تكن المزبلة مظلمة كما غادرها ولم تكن خالية . كان المصباح مشتعلا ، وعلى الأرض تحته يجلس رجال ثلاثة ، ودلف الرجل بينهم فى هدوء لان وجودهم لم يدهشه ولم يزعجه ، وعانهم بعينيه البراقتين فعرف منهم الدكتور بوشى . ووقفوا له جميعا ، وقال له الدكتور بوشى بعد أن حياه تحية طيبة :

— هالك رجلين مسكينين يستشفعان بى اليك .

فتظاهر زبيطة بعدم المبالاة ، وقال متظاهرا بالملل :

— فى مثل هذه الساعة يا دكتور ؟ !

فوضع الدكتور يده على كتفه وقال له :

— الليل ستار وربنا أمر بالستر !

فقال زبيطة وهو ينفخ :

— ولكنى متعب الآن ! ..

فقال البوشى برجاء :

— لا رددت لى بدا ..

- ٦٥ -

وراح الرجلان يضرعان ويسعوان له ، فتظاهر بالاذعان مرغما ، ووضع الطعام والتبغ على الرف ووقف حيالهما متفرسا في اناة وهدوء . ثم ثبتت عيناه على اطولهما . كان عملاقا قويا فدهش زبيطة لمنظره وساله :

- انت بغل بلا زيادة ولا نقصان ، فلماذا تروم احتراف الشحاذة ؟ !

فقال الرجل بصوت منكسر :

- لم افلح في عمل ابدا . حاولت امعالا كثيرة ، حتى الشحاذة نفسها ولكن لم يقدر لى التوفيق ، حظى اسود ، وعقلى وسخ ، لا افهم شيئا ولا اتقن شيئا . فقال زبيطة بحقد :

- كان ينبغي اذن ان تولد غنيا .

ولم يظن الرجل لمرماه ، وراح يستعطفه بتصنع البكاء قائلا بصوت كالحوار :

- اخفقت في كل شيء . حتى الشحاذة لم تجذب لى رحيم واحد . كل الناس يقولون : انت قوى ويجب ان تشتغل ، هذا اذا لم يشتمونى وينهرونى . لا ادرى لماذا ؟ .

فقال زبيطة وهو بذلك راسه :

- يا سلام . حتى هذا لا تدركه .

- الله يخلبك ويجبر بخاطرك .

وكان زبيطة لا يكف عن فحصه متفكرا ، فقال بحزم وهو يغمز اعضاءه :

- انت قوى حقا . اعضاؤك سليمة . انى اعجب ماذا تاكل ؟

- الحبز اذا وجد ولا شيء غيره .

- هذا جسم شيطانى بلا ريب . ترى ماذا تكون لو اكلت كما تاكل حيوانات الله التى يؤثرها بخيره ونعمته ؟ !

فقال الرجل ببساطة :

زقاق المدق

— ٦٦ —

— لا ادرى ؟ . .

— طبعا طبعا . . انت لا تدري شيئا . فهمنا هذا . وخير ما فعلت ، فلو كنت تدري لانقلبت واحدا منا . اسمع يا هذا لا فائدة ترجى من تشويه اعضائك .

ولاح الانتقاض في الوجه الثور ، واوشك ان ينبأى كره اخرى لولا ان بادر زينة قائلا :

— عسير جدا ان اكسر لك رجلا او ذراعا ، ومهما صنعت بك فلن تستشير عطف احد . ان البغال أمثالك يترون الخنق أينما يحلون . ولكن لا تياس (كان الدكتور بوشى ينتظر هذه العبارة بصبر نافذ) فهناك طرق شتى ، اعلمك فن العنه مثلا : وانت لا ينقصك منه شيء ذو بال ، اجل العنه . واحفظك بعضا من مدائح الرسول .

فتهلhel وجه الرجل ودعا له كثيرا . حتى قاطعه ربطة متسائلا :

— لماذا لم تشتغل قطاع طرق ؟ .

فقال الرجل بانكسار :

— أنا رجل طيب مسكين ، لا اقصد انسانا بسوء . واجب آل البيت .

فقال زينة باحتقار :

— أتبدؤنى أنا بهذه البوليتيكا ؟ . .

ثم التفت الى الرجل الآخر ، كان قصيرا هزيعا . فقال زينة بارتياح :

— استعداد طيب .

فابتسمت أسارير الرجل ، وقال ممثنا شاكرا :

— الحمد لله كثيرا .

— خلقت لتكون أعمى مقعدا .

فقال الرجل بسرور :

— ٦٧ —

— هذا من فضل ربى .

فهز زبطة راسه وقال ببطء :

— العملية دقيقة وخطيرة . دعنى أسالك عن أسوأ الاحتمالات ، هبك فقدت بصرك حقيقة عن خطأ أو اهمال ، فماذا تفعل ؟ .

فتردد الرجل لحظة ، ثم قال بغير مبالاة :

— نعمة من الله ! وهل افدت من بصرى شيئا حتى آسف على ضياعه ؟ .

فقال زبطة بارتياح :

— بهذا القلب تستطيع ان تواجه الدنيا حقا .
— باذن الله يا سيدى . ستكون روحى ملك يدك . سأنزل لك عن نصف ما يوجد به المحسنون .

فحدجه زبطة بنظرة قاسية وقال بحدة :

— هذا كلام لا يجوز على ، حسبى مليمين غير أجر العملية ، وانى أعرف كيف أستخلص حقى اذا سولت لك نفسك الماطلة .

وهنا قال البوشى محذرا :

— لم تذكر نصيبك من الخبز .

فاستدرك زبطة قائلا :

— طبعا .. طبعا .. والآن فلنسرع فى العمل ، العملية شاقة ، ولسوف تمتحن قوة احتمالك ، فاکتم الألم ما استطعت الى ذلك سبيلا .

وتصور ما سوف يكابده هذا الجسم النحيل الهزيل من هرس يديه القاسيتين لا فارتسمت على شفتيه الباهتتين ابتسامة شيطانية .

٨

كانت الوكالة متار ضجيج لا ينقطع في الزقاق طول النهار ،
وعمال كثيرون لا يكفون عن العمل فيما عدا فترة الغداء القصير ،
وسيل من البضائع الواردة والصادرة يطرد في تتابع متواصل ،
ومدد من سيارات العمل الضخمة يجمع ازيزها فيطبق على
الصناديق وما يتاخمها من الضورية والأزهر ، وتيار زاهر من
الزبائن والعملاء . هي وكالة عطارة بالجملة والتجربة ، وليس من
شك في أن انقطاع الوارد من الهند بسبب الحرب قد أحدث في
سوقها أثرا ملحوظا ، ولكن الوكالة على رغم ذلك حافظت على
سمعتها ومركزها ، كما ضاعفت ظروف الحرب من نشاطها
وأرباحها . فضلا عن هذا وذاك فقد أغرت ظروف الحرب السيد
سليم بالاتجار بمواد لم يكن يلقي اليها بالا كالشاي ، فغامر في
السوق السوداء ، وبيع أرباحا طائلة . وكان السيد سليم علوان
يجلس الى مكتبه الضخم في نهاية الردهة الموصلة الى فناء الوكالة
الداخلي الذي تحدد به المخازن ، وهو مركز وسط يستطيع أن
يشرف منه على داخل الوكالة وخارجها ، ويسر له مراقبة العمال
والحمالين والزبائن جميعا . لذلك كله فضل هذا المركز على
الانفراد في حجرة كما يفعل أقرانه من كبار التجار ، ولأن التاجر
الحق - على حد تعبيره - « ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائما » .
« كان الرجل في الواقع من النماذج العملية الموفقة ، خبيرا في مهنته ،
قادرا على النهوض بأعبائها . ولم يكن من حديثي النعمة الذين
أنجبتهم الحرب ، لأنه على حد تعبيره أيضا : « تاجر ابن تاجر » ،
بيد أنه لم يكن في البدء معدودا من الأغنياء ، ثم خاضت تجارتها

غمار الحرب الاولى وخرجت ظافرة ، وأدركتها هذه الحرب فأنقلت موازينها حتى اتخمتها بالثراء . على ان الرجل لم يخل من الهموم ، وبحسبه ان يناضل في الميدان وحده بلا معين ولا نصير . اجل كان ما يتمتع به من صحة جيدة وحيوية فائضة خليقا بأن يهون عليه همومه . ولكن لم يكن بد من التفكير في الفد القريب او البعيد ، اذا انصرف العمر او كاد ، وافتقدت الوكالة من يديرها . فمن المؤسف حقا ان احد ابنائه الثلاثة لم يقع له في خاطر ان يتقدم لمعاونة ابيه في عمله ، وكانوا جميعا سواء في الاعراض عن التجاره ، وضاعت محاولاته في ثنيهم عن اعراضهم كلها سدى ، فلم يجد مناسا - على بلوغه الخمسين - من النهوض بالامر كله . وليس من شك في انه كان المسئول عن هذا الختام المرهق ، فقد كان على الرغم من عقليته التجارية - جوادا كريما ، او كان كذلك على الأقل في بيته وبين اهله ، فكان بيته كالقصور جمال بناء ونفاسة اثاث وكثرة خدم وحشم ، فضلا عن ذلك فقد انتقل عقب زواجه من البيت القديم بالجمالية الى قصر منيف بالحلمية ، فترعرع الأبناء في وسط جديد منقطع الأسباب ببيئة التجار واوساطهم ، وسط يضمربلا ريب نوعا من الاحتقار للمهن الحرة جميعا ، فتعلقوا بمثل عليا جديدة بحكم معيشتهم ووسطهم وعلى غير علم من والدهم المشغول بعمله وحياته . وحين جد الجد تمردوا على نصحه وابوا حتى الالتحاق بمدرسة التجارة ان تكون فخا لهم ، وشقوا سبيلهم الى الحقوق والطب ، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني . ومع ذلك كانت الحياة سعيدة ، وقد بدت اثارها الطيبة في جسمه البدين المتين ، ووجهه الممتلئ المورد ، وحيويته الشابة المتوثبة ، سعادة منشؤها أن كل شيء في موضعه المأمول ، تجارة رابحة ، صحة جيدة ، أسرة سعيدة ، أبناء موفقون قد عرف كل منهم وجهته واطمان اليها . وكان له غير هؤلاء الأبناء بنات أربع ، تزوجن

جميعا وبارك الله في زيجاتهم . فبدا كل شيء باسماء منبسطة لولا ما ينتابه بين الحين والحين من التفكير في مصير الوكالة والتجارة . وبكرور الأيام تنبه الابناء الى متاعب الأب ، ولكنهم قدروها من ناحية أخرى ، فساورهم خوف ان يفلت الزمام يوما من يد والدهم ، أو ان يتركها لهم بغتة فلا يدرون ماذا يصنعون . وكان أن اقترح عليه أحدهم - محمد سليم علوان القاضي ان يعفى تجارته ليتفرغ لحقه المشروع من الراحة بعد ذلك النضال الطويل . بيد ان السيد لم يغب عنه حقيقة مخاوفه ، واستاء . استياء لم يحاول اخفائه ، فقال له : « اتريد ان ترثني حيا ! » ودهمه قوله هذا وهاله ، لانه واخوته يحبون أباهم حبا صادقا ، فلم يعد احد منهم الى طرق هذا الموضوع الخطير ، ولكن لم ينته الامر عند هذا الحد فراحوا يقولون - واثقين من عدم استفزاز غضبه هذه المرة - ان شراء أرض أو تشييد عمارات أفضل بلا ريب من كنز الاموال في المصارف . وفطن الى بواعث هذا القول الحقيقية بعقله الذي يحسن ادراك مسائل المال وما يتفرع عنها ، فهو يعلم حق العلم ان التجارة التي تدر المال بلا حساب قد تبطله أيضا في ساعة نحس واحدة ، وان التاجر الذي يحتاط للمستقبل بشراء عقار مثلا حقيق اذا وقعت هذه الساعة - وخاصة اذا سجل ما ابتاع من عقار باسم ابنائه مثلا أو زوجته - ان يخرج من شدته ببعض المال ، وصى ان يكون مالا كثيرا ، لا صفر اليدين . وهو الى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا اموالا طائلة ، وانتهوا الى الافلاس والفقر المدقع ، أو الى شر من ذلك كالانتحار أو الموت كمدا . اجل انه يعلم ذلك كله ، ويعلم ان ابنائه على حق فيما يريدون ، ولعل التفكير في هذا الذي يريدون لم يكن جديدا عليه ، ولكن هل تسمح ظروف الحرب بالشروع في مثل هذا العمل ؟ ! كلا ، هذا بين بلا ريب . واذا فليؤجل الى حين ، وليطو في نفسه حتى يتيسر تحقيقه .

ولم يكذب يحسب انه فرغ من هذا الهم حتى اقترح عليه ابنه -
القاضي ايضا أن يسعى للحصول على رتبة البكوية . قال له :
كيف لا تكون بيكا والبلد ملاي ببيكوات وباشوات دونك مالا
وجاها ومقاما .

وسره هذا الاطراء . وكان في الحق - وعلى خلاف التجار
الحسعاء - مغرما بالجاه والجلال ، ولكنه تساءل في سذاجة عن
السبيل الى التماس هذه الرتبة . وغدا الامر شغل الأسرة
الساغل ، وتحمسوا له جميعا وان اختلفوا في الوسيلة . فاقترح
البعض عليه ان يستغل بالسياسة وان يدلى فيها بدلوه ! حقا
كان السيد سليم علوان لا يكاد يفقه شيئا - فيما عدا التجارة -
من امور الدنيا . ولا تكاد تسمو اراؤه او معتقداته على آراء
ومعتقدات عباس الخلو مثلا . فكان مثله يضرع خاشعا الى ضريح
الحسين . وكان مثله يبجل الشيخ درويش ويتبرك به . كان
بايجاز معدة قوية وجبة زاهية . بيد ان السياسة لا تحتاج في
كثير من الاحايين الى اكثر من هذا . وقد مضى يفكر في الامر
تفكيراً قويا . لولا ان اعترضه ابنه المحامي - عارف سليم علوان -
فقال له محدرا :

- السياسة حقيقة بأن نخرب بيتنا وتلتهم تجارتنا . ستجد
نفسك ملزما بالانفاق على الحزب انصاف ما تنفق على نفسك
وأهلك وتجاركت . وعسى ان ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات
آلآفا من اموالك دون جدوى ثمننا لكرسى غير مضمون ، وهل
البرلمان في بلادنا الا كمرئف بالقلب تهدده السكنة في أية لحظة !
ثم اى حزب تختار ؟ اذا اخترت حزبا غير الوفد اضعفت مكانتك
فى الوسط الذى نعمل فيه . واذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس
وزاره كصديقى باشا يجعل تجارتك هشيما تدرره الرياح .

وتأثر السيد بقول ابنه . وكان يثق فى ابنائه . « المتعلمين » ثقة

كبيرة ، وزاده انحيازاً الى طرح السياسة جانباً جهله التام بشئونها ، وبروده حيالها ، فلم يكن يعلم من أمورها الا اسماء ورث حبها أو بغضها عن عهد سعد زغلول .

واقترح عليه البعض أن يتبرع بقدر من المال لمشروع من المشروعات الخيرية لعله أن يجزى عليه بالرتبة . ولم يرقه الاقتراح من بادئ الامر ، لأن غريزة التجارة الكامنة فيه بنفر نفورا طبيعيا من البذل والعطاء ، ولا يتعارض هذا مع كرمه المعروف ، لأنه في الواقع كان كرماً لنفسه وبيته . على انه لم يقطع بالرفض ، فما زالت الرتبة مغرية محبوبة ، وما زال يطمع فيها ويريدها . وقد أدرك انها تقتضيه قدراً من المال لا يقل عن الخمسة الآلاف جنيه ، فمأسى أن يصنع ؟ لم يبت برأى قاطع ، وان قال لابنائه : « كلا » ، يبد انه اضاف الرتبة الى همومه القائمة بلا فـض كادارة الوكالة وشراء العقار ، تاركاً أمر الجميع للمستقبل وللظروف .

ومهما يكن من أمر هذه الهموم فهي ليست بالخطر الذي ينغصص صفوف الحياة وخصوصاً حياة رجل يستغرقه العمل نهاراً ، والغريزة ليلاً . والحق أنه اذا شغله العمل لم يعد يفكر في شيء سواه ، وقد جلس الى مكتبه مركزاً انتباهه كله في كلام سمسار يهودى ، مستجمعا يقطته ، مستحضرا حذر ، يعجب لرقه محدثه ولطفه ، حتى ليحسبه الجاهل صديقاً ودوداً ، وهو في الحقيقة نمر يتوآب ، يتمسكن ويتمسكن حتى يتمكن ، والويل لمن يتمكن منه ، وقد علمته التجارب أن هذا الحوآجا وامثاله أعداء ما من صداقتهم بد ، أو أنه - على حد تعبيره - شيطان مفيد . وكان يساومه بصفقة شأى مضمونة الريح فزيرته ، فجعل السيد يفتل شاربه الضخم ويتجشأ شأنه اذا استغرقه التفكير الخطير ! وحاول الحوآجا بعد أن فرغ من الشأى أن يعرض عليه شراء عقار

صالح - وكان على علم برغبته في الشراء - ولكن السيد كان قد صمم على تأجيل الشروع في ذلك الى ما بعد الحرب ، وأبى أن يصفى اليه ، فغادر الرجل الوكالة قائما بصفقة واحدة . وجاء غير هذا الخواجا آخرون . وواصل السيد العمل بما عرف عنه من مقدرة وهمة وعند منتصف النهار نهض للغداء . وكان يتناول غداءه في حجرة أنيقة اعد بها فراشا للمقيل . وكان غداؤه يتكون عادة من خضر وبطاطس وصينية فريك . ولما انتهى من طعامه مضى الى الفراش يستجم ساعة أو ساعتين . وفي اثناء ذلك تسكن حركة الوكالة ، فيسود السكون الزقاق جميعا ، وكان لصينية الفريك قصة يعرفها اهل الزقاق جميعا . هي طعام ووصفة في آن واحد . وقد برع في تهيتها أحد عماله المقربين ، فظلت حقيقتها سرا بينهما لولا انه لا يؤمن على سر في زقاق المدق . هي صينية فريك محشو بالحمام . ومخلوط بقدر من مسحوق جوزة الطيب ، يلتهمها في الغداء ، ويحتسى بعدها شايا مرتين أو ثلاث مرات ، قدحا كل ساعتين ، فتحدث مفعولها ليلا ، ويستمر تأثيرها الساحر ساعتين كاملتين في بهجة خالصة ! وقد ظلت الصينية سرا لا يدريه الا الرجلان والمعلمة حسنية الفرائة . وكان اهل الزقاق يرونها فيحسبون انها غداء خالص ، فبقول البعض : « بالهناء والشفاء » . ويغمغم البعض : « يطفعها سما باذن الله » ثم لرب الطمع يوما يقلب المعلمة حسنية ، فسولت لها نفسها ان تجرب هذه الوصفة في زوجها جعدة الفران ، واختلست من الصينية قطعة موفورة ملأت فراغها بفريك خالص . ودابت منذ ذلك اليوم على اختلاس نصيبها مطمئنة الى غفلة السيد ، مدفوعة بما أسفرت عنه التجربة من نجاح ملحوظ ! بيد ان السيد سليم لم يغفل عن الأمر طويلا ، ولاحظ بسهولة ما طرا من تغير على لياليه ، وعاد باللائمة بادىء الأمر على العامل الذي يبيع

الوصفة ، فلما ان ابرا الرجل ذمته داخله الشك في الفرانة ، واكتشف السرقة بغير صعوبة ، فدعا الفرانة ووبخها ، وعدل عن ارسال الصينية الى فرنسا ، مستبدلا بها الفرن الافرنجى بالسكة الجديدة . وبدأ السر ينكشف ويذيع فعملت به أم حميدة ، وكان في ذلك الكفاية كل الكفاية ، فسرعان ما احاط به اهل الزقاق جميعا ، وراحوا يتلقون الصينية بالغمر واللعز . وادرك السيد غاضبا ان سره قد افترضح ، ولكنه لم يعب بذلك طويلا ! اجل . قطع اكثر عمره في الزقاق ، ولكنه لم يكن يوما من اهله ، ولم يعمل لواحد منهم حسابا ، ولولا السيد رضوان الحسينى والشيخ درويش لما عنى برفع يده تحية . وكادت الصينية تصبح في وقت من الاوقات موضة الزقاق جميعا ، ولولا تكاليفها الباهظة لما سلاها احد . فجربها المعلم كرشة والدكتور بوشى ، حتى السيد رضوان الحسينى ذاقها بعد ان تاكد من انها لا تحوى مادة يجرمها الشرع الخفيف ! اما السيد سليم فكان يواظب عليها الا فيما ندر والواقع انه كان يضطرب من الحياة في مضطرب ضيق : نهاره نهب الوكالة ، وليله خال مما يتسلى به امثاله من الناس ، فلا قهوة ولا ناد ولا ملهى ، ولا شئ مطلقا الا زوجه ، ولذلك نفنن في مسراته الزوجية تفننا شدا بها من جادة الاعتدال .

وقد استيقظ قبيل العصر فتوضأ وصلى ، وارتنى قفطانه وجبته ، وعاد الى مكتبه فوجد قدح الشاي الثانى مهيا ، فاحتسأه بتلذذ وهو يتجشأ جشأت مجمعة يدوى صداها في الفناء الداخلى . واقبل على عمله بنفس الهمة التى استقبله بها في الصباح ، ولكنه كان يبدو في فترات وكان قلقا ينتابه . كان يتلفت نحو الزقاق ، وكان ينظر في ساعته الذهبية الضخمة ، وكان

يعبث بأنفه على غير شعور منه . وعندما ارتفع ضوء الشمس الى اعلى الجدار الايسر للزقاق ، ادار مقعده اللولبي وجعل وجهه للطريق . ومرت دقائق ثقبلة لم تتحول فيها عيناه عن الطريق . ثم ارهف السمع ولعت عيناه لوقع شهبشب على أحجار الطريق المنحدر ، ثم مرت حميدة امام باب الوكالة في ثوان معدودات . وقتل شارببه بعناية ، ودار بكرسيه الى المكتب وقد لاح في عينيه السرور ، وان وجد شعورا بعدم الارتياح ! . من العسير ان يقنع بهدوء الرؤية الخاطفة بعد ساعة كاملة من الانتظار والقلق والشوف . ولم يكن يتاح له رؤيتها في غير هذا الوقت الا من قبل استراق النظر الى نافذتها في اوبقات نادرة كلما جازف بالظهور امام الوكالة كأنما يريح اعصابه بالمشي . كان شديد الحذر بطبيعة الحال صونا لمنزله وكرامته . فهو السيد سليم ، وهى فتاة مسكينة ، والزقاق زخار بالاسن الحداد والاعين المتطفلة . وتوقف عن العمل ، وجعل ينقر المكتب بسببته متفكرا . اجل ، هى مسكينة وفقيرة ولكن الرغبة لا ترحم والاسفاه ، والنفس امارة بالسوء ! . مسكينة وفقيرة ولكن وجهها البرنزي ونظرة عينيها وقدها المشوق . كل اولئك مزايا تستهين بفوارق الطبقات ! . وما جدوى المكابرة ؟ انه يهوى العينين الغائتين والوجه المليح ، والجسم الذى يقطر اشراء ، وهذه العجيزة الانيقة التى تترى بورع الشيوخ . انها انفس من وارد الهند جميعا . ولقد عرفها منذ كانت صببة صغيرة تتردد على الوكالة لاتبياح ماتحتاج اليهامها من الحناء ومواد المفتقة والمغات . راي ثدييها وهما نبتتان ثم وهما دومتان ، حتى استوتا رمانتين . وعاین عجيزتها وهى اساس املس لم ينهض عليه بناء ، ثم وهى تكور رقيق يتمطى به النضج ، واخيرا وهى كرة تنضج اناقة وانوثة ، وراح الرجل يحضن اعجابه المترعرج حتى افرخ فى النهاية رغبة عارمة . انه يعلم ذلك ، ولم

يعد يحاول انكاره . ولطالما قال لنفسه : « ليتها كانت ارملة كالست سنية عفيفى ! » لو كانت ارملة لوجد لنفسه مخرجا . اما وهى عذراء فينبغى ان يطيل التفكير فى امره . وتساءل كما اعتاد ان يتساءل : ماذا يروم لا وذكر وهو لا يدري زوجه واسرته . كانت زوجه امرأة فاضلة ، تتحلى بكل ما يحب الرجل من انوثة وامومة واخلاص ومهارة فائقة فى شئون البيت ، واثبت على شبابها مليحة ولودا . فهو لا يأخذ عليها نقیصة واحدة . فضلا عن ذلك كله كانت من اسرة كريمة تتفوق عليه كثيرا فى الأصل والمحتد . وهو يقر لها بفضائلها جميعها . وبضمر لها ودا صادقا . ولا يضايقه الا انها استوفت سبابها وحبوبنها . فقصرت عن مجاراته ، وعجزت عن احتماله . فبدأ بالقياس اليها - وبسبب حيويته الخارفة - شابا نهما لا يجد فيها ما يستنيه من متاع ! . والحق انه لا يدري ان ذلك ما علقه بحميدة . ام ان هواه ما جعله يستشعر هذا الفراغ الاليم ! . ومهما يكن الأمر فقد أحس رغبة لا تقاوم الى دم جديد ! . وقال لنفسه صراحة : « مالى أحرم على نفسى ما أحل الله لها ! » . على انه كان رجلا محترما ، حريصا جدا على ان يقر له كل انسان بالاحترام ، ويكره غاية الكره ان يكون مضغة الأفواه . كان من الدين يعملون للناس وآرائهم كل حساب . وكان يقول مع القائلين : « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس » . وانه لياكل صينية الفريك ، اما حميدة .. رباه ! لو كانت من اسرة كريمة ما تردد لحظة فى طلب يدها . ولكن كيف تصير حميدة نيرة للست عفت ! ؟ وكيف تصبح أم حميدة الخاطبة حماته كما كانت بوما المرحومة ألقت هانم ؟ ! وعلى أى وجه تكون حميدة امرأة اب لمحمد سليم القاضى وعارف سليم المحامى والدكتور حسان سليم ؟ ! . وهنالك أمور أخرى - لا تقل عن هذه خطورة - ينبغى تقديرها حق قدرها . هنالك بيت جديد لا بد - فى هذه

الحالة - أن يتهاى ، ونفقات جديدة ربما ضاعفت من نفقاته القديمة ، وورثة جدد خليقون أن يمزقوا وحدة أسرته المتماسكة ، وأن يلوثوا صفحتها الناصعة بالعداوة والبغضاء . وفى سبيل أى شىء كل هذه المتاعب ؟ . . ميل رجل - بل زوج واب - فى الخمسين لفتاة فى العشرين ! لم يغب عنه شىء من هذا ، لأنه رجل لا يفوته بحال تقدير المتاعب التى تتصل بالمال وأحوال المعيشة . ومضى يراجع نفسه حائرا مترددا لا يقر له قرار . وباتت هذه العاطفة احدى الهموم المعلقة فى حياته ، وانتظمتها سلسلة مشاكله التى لم تفض كادارة الوكالة ومستقبلها ، وشراء العقار وتشييد العمارات ، ورتبة البيكوية ، بيد أنها كانت أشد إلحاحا وأبعث شجنا .

كان ذهنه يستعرض جميع هذه الخواطر اذا خلا الى نفسه ومد له حبلى التفكير ، أما اذا خطرت حميدة أمام عينيه ، أو لاحت لهما فى النافذة ، فلم يكن يفكر الا فى أمر واحد . .

٩

أصبحت أم حسين - امرأة المعلم كرشة - فى هم مقيم . فانقطاع عادة مألوفة لا يمكن أن يمر دون تساؤل ، خصوصا اذا كان انقطاعها فى الماضى يقترب دائما بشر مستطير . وقد قطع المعلم كرشة عادة محبوبة لا يصح أن تقطع لغير سبب خطير ، فراح يمضى سهرته الليلية بعيدا عن البيت ، بعد أن كان يدعو رفاقه المدمنين الى حجرة السطح كل منتصف ليل فيمتد بهم السهر حتى مطلع الفجر . وطافت بالمرأة الذكريات المحزنة فعاودها الألم الذى ينغص عليها صفو الحياة . ما الذى يدعو الى قضاء الليل

خارج داره ؟ ايكون ذاك السبب القديم ؟ ذاك الداء الويل ؟
سيقول الفاجر انه مجرد تغيير يراد به دفع الملل ، او الانتقال.
لكان اوفق لفصل الشتاء ، ولكن هيهات ان تهضم نفسها امثال
هذه المعاذير الكاذبة ، وانها لتعلم من امر نفسه ما يعلمه الناس
جميعا . لذلك اصبحت المرأة في هم مقيم ، وباتت تتحرق على
فعل شيء حاسم مهما كانت عواقبه . وكانت امرأة قوية - على
دنوها من الخمسين - لا تنقصها اسباب الجراة التى تجاوز الحد
فى كثير من الاحايين . وكانت من نسوة الزقاق المشتهرات بالباس
- كحسنية الفرانة وام حميدة - واشتهرت بوجه خاص لما يقع
بينها وبين زوجها من دواعى الملاحاة بسبب شذوذ سلوك
الرجل !، كما اشتهرت بانفها الكبير الغليظ الافطس . وكانت
زوجا ولودا ، أنجبت بنانا ستا وذكرا واحدا هو حسين كريمة .
وجميع بناتها متزوجات ، وجميعهن يحيين حياة زوجية مقلقة ،
لا تخلو من نكد وان كانت تسير ولا تنقطع . وقد حدثت لصغراهن
مأسة كانت حديث الزقاق يوما ، اذ اختفت بفتة فى عامها الاول
من الزواج ثم ضبطت فى بيت عامل ببولاق ، وانتهى بها وبه
المطاف الى السجن . كانت مأسة الفتاة كريبا شديدا للأسرة
ولكنها لم تكن المأسة الوحيدة التى ابتليت بها ، فللمعلم نفسه
مأسة قديمة جديدة لا يعرف لها انتهاء . وكانت ام حسين تعرف
السبيل الى معرفة ما خفى عليها من الامر . فراحت تستخبر
عم كامل وتستنطق الفلام سنقر صبى القهوة حتى علمت
بالشاب الذى اخذ يتردد فى عهده الاخير على القهوة فيحتفى به
المعلم كل احتفاء ويقدم له الشاى بنفسه !. واخذت تراقب رواد
القهوة خفية حتى رأت الشاب بنفسها وشاهدت مجلسه الى
بين المعلم ، ولمست احتفائه به . وجن جنونها وتكا الجديد القديم
من جروحها ، فباتت ليلة جهنمية ، واصبحت على شر حال

واسوا نفس . ولم يكن رايها قد استقر على حال ، كانت تغلى غليانا ولكنها لا تدري اى سبيل تسلك . ولطالما جربته العراك . فيما سلف دون جدوى ، ولم تكن تتردد عن اعادة الكرة ، بيد انها تربت قليلا — لا تأفغا منه — ولكن دفعا لشماتة السامتين . وكان حسين كرشة يتنهاى للخروج الى عمله فقصدته هانجة النفس تأثرتها . وقالت له بانفعال شديد :

— يا بنى . اما علمت ان اباك يعد لنا فضيحة جديدة ؟

وادرك حسين لتوه ما تعنيه ! فلا يمكن ان يعنى قولها الا معنى واحدا معروفا مشهورا ، وامتلا حنقا ، واتقدت عيناه الصغيرتان فتطايير منهما الشرر . ما بال هذه الحياة لا تكاد تعفيه يوما من المتاعب والفضائح . ولم تكن دواعى السخط لتنقصه حتى بدون هذه الفضائح . كان برما بكل شيء مما حوله . ولعل برمه هذا الذى دفعه الى الارتقاء بين احضان الجيش البريطانى . ثم ضاعفت حياته الجديدة من سخطه بدل ان تسكنه وتطامنه . فضايق باله وببيته وبالزقاق جميعا . وجاء اخيرا قول أمه نفقا على لهيب ، فقال غاضبا :

— ماذا تريدن ؟ وما حيلتى فى هذا كله ! لقد تدخلت فيما سلف وحاولت الاصلاح ، فكاد يبلغ بنا الحال ان نتعارك وان نتضارب . فهل تريدننى على ان امسك بتلابيب ابى ؟ !

لم يكن يعنيه الاثم فى ذاته . ولكن كان يفيظه ما يشيره حولهم من فضيحة وجرس . وما يشعله فى البيت من نيران السباب والنشائم والعراك . اما الاثم ذاته فلم يكن يهمه على الاطلاق ، بل انه حين تنهى اليه خبره اول مرة هز منكبيه استهانة وقال دون مبالة : « انه رجل والرجل لا يعيبه شيء ! » ثم سخط مع الساخطين ونقم على والده ، حين وجد أسرته مضغة الافواه ونادرة المتندرين . وكانت علاقته بابيه فى الأصل متوترة ، ذلك

التوتر الذى ينتشأ عادة من تصادم طبيعتين متشابهتين . فكلاهما
فظ شرس غضوب ، تم جاء هذا الألم فضاعف من اسباب
شقاقهما حتى اصبحا كعدوين ، يتحاربان حيناً ، ويتهادنان
حيناً ، ولا يسكت عنهما السخط ابداً .

ولم تدر ام حسين ماذا تقول ، ولكنها لم تراجعه ان تكون
السبب فى القاء عداوة جديدة بين الابن وابيه . وتركته يغادر
الشقة وهو يهدر غاضباً شاتماً ، وقطعت نهارها على اسوأ حال .
ولم تكن تلمن للهزيمة على كثرة ما عركها الزمن بالتعاسة
والمهانة ، فصدقت عزيمتها على تاديب الرجل الاثم ولو عرضها
ذلك لشماتة الشامتين . بيد انها رأت ان تقدم انذارها بين
يدي باسها ، فانتظرت حتى انتصف الليل ، وتفرق السمار ،
وتأهب زوجها لاجلاق القهوة ، ثم نادته من النافذة ! فعمد
الرجل راسه منزعجاً وعلا صوته متسائلاً :

— ماذا تريدن يا أم حسين ؟

فجاء صوتها يقول :

— اصعد يا معلم لأمري هام . .

وأوما المعلم لفتاه أن ينتظره حيث هو ، وراح يرتقى السلالم
متثاقلاً ، ووقف على عتبة باب شقته لاهثاً ، ثم سألها بصوته
الغليظ :

— ماذا تريدن ؟ أما كنت تستطيعين الانتظار حتى الصباح ؟

رأته المرأة وقد تسمر قدماه بالعتبة لا يريد أن يزايلها
كانه يتحاشى أن يخرق حرمة بيته غريب ، فتميزت غيظاً ،
وحدجته بعينين محمرتين من السهر والغضب ، ولكنها لم ترد
أن تبادره بالغضب ، فقالت وهى تغالب انفعالها :

— تفضل بالدخول يا معلم .

وتساءل المعلم كرشة لماذا لا تتكلم اذا كان لديها حقاً ما تريد
ان تقوله ، ثم سألها بخشونة :

— ماذا تريدین ؟ .. انطقی !

یا له من رجل نافذ الصبر ! یقطع اللیالی الطوال خارج البیت دون ملل ، ولكنه یضیق ذرعا بحديث دقیقتين . ومع ذلك فهو رجلها امام الله والناس ، وأبو ابنائها جميعا ، ومن عجب أنها لم تستطع — على اساءته اليها — ان تبغضه او تهمل شأنه . فهو رجلها وسيدها الذى لا تنی عن الاستئثار به ، واسترداده كلما مد الاثم یداً لاخطافه . بل انها لفخور به حقاً ، فخور بفحولته ومكانته فى الزقاق وسيطرته على المعلمين من اقارانه ، ولولا هذه النقیصة المنكرة لما وجدت له ضرباً فى الدنيا . ها هو يستجيب لداعی الشیطان ، ویود لو أعفته من حديثها لينطلق اليه من توه ! واشتد بها الغیظ فقالت بحدة :

— ادخل اولا .. لماذا تقف على العتبة كالأغراب ؟ !

ففنخ المعلم مغیظاً محنقاً ، وجاز العتبة الى الدهليز برما ساخطاً وهو يتساءل بصوته الأجش :

— ماذا وراءك ؟

فقالت وهى ترد الباب :

— استرج قليلاً .. لدى كلمة قصيرة ..

ونظر اليها مسنرباً ؟ ماذا تريد المرأة ؟ هل تعترض سبيله مرة اخرى ؟ ! وصاح بها :

— تكلمی ، لماذا تضعين الوقت سدى ؟

فسأله بحنق ؟

— أمتعجل أنت یا معلم ؟

— أتجهلین هذا ؟

— ما الذى يدعو لهذه العجلة ؟

فازدادت ريبته ، وامتلأ صدره حنقا ، وتساءل الام یحتمل هذه المرأة ؟ كانت عواطفه نحوها مضطربة متناقضة . كان یكرهها .

حيناً ويحبها حيناً آخر . ولكن كانت الكراهية تغلب عليه اذا جره الاتم الى هاويته ، ويزيد الامر وبالا اذا تونبت المرأة للانقضاض عليه . وكان يتمنى في قرارة نفسه لو كانت امراته « عاقلة » فتركته وشأنه . ومن عجب أنه كان يرى نفسه على حق دائماً ، ويعجب لاعتراضها سبيله بلا مبرر ! اليس من حقه أن يفعل ما يشاء ؟ واليس من واجبها أن تطيع . وأن نرضى ما دامت حاجتها مقضية ورزقها موفوراً ؟! وقد امست من ضرورات حياته ، كالنوم والحشيش والبيت ، بخيرها وبشرها ، فلم يفكر جاداً في التخلص منها ، ولو أراد ما منعه مانع ، ولكنها كانت تملأ فراغاً ، وتقوم على العناية بأمره ، ويريدها - على أية حال - زوجاً له . ولكنه تساءل على رغم هذا كله - في حنقه -
الأم يحتمل هذه المرأة ؟ وصاح بها :

- لا تكوني حمقاء وتكلمى أو دعينى اذهب لحال سبلى .

فسألته باستياء وحنق :

- ألا تجد قولاً أفضل من هذا تخاطبني به ؟

فزمجر المعلم قائلاً :

- الآن علمت أنه ليس لديك ما تقولينه : والأفضل أن تنامى

شأن النساء العاقلات .

- ليتك تنام أيضاً شأن الرجال العقلاء !

فضرب المعلم كفا بكف وصاح :

- كيف لى بالنوم في هذه الساعة ؟

- فلماذا خلق الله الليل ؟

فقال الرجل بدهشة وغيظ :

- ومتى كنت أنام الليل ؟ هل أنا مريض يا مرة ؟ !

فقلت بلهجة ذات معنى خاص علمت أنه سيدركه من فوره :

- تب الى الله يا معلم ، وادع الله يقبل التوبة ولو جاءت

متأخرة ! .

وادرک ما تريد . وقطع الشک بالیقین ، ولكنه قال متجاهلا
وهو يتميز غیظا :
— ما فی السهر من ذنب یتوب الانسان عنه .

فزادها تجاهله لها حنقا وقالت :
— تب عن اللیل واما فی اللیل !
فقال المعلم بخبث :
— اتریدینى ان اهجر حیاتی !
فصاحت به وقد غلبها الغضب :
— حیاتک !
فقال بخبث :
— اجل .. الحشیش حیاتی .

فتطایر الشرر من عینها وهی تقول وقد حدنتها نفسها . بأن
تصک خدیة السوداوين :
— والحشیش الآخر !
فقال متهمکا :
— انا لا احرق الا سيفا واحدا .
— انت لا تحرق الاى . لماذا لا تسهر فی مکانک المعتاد من
السطح ! .

— ولماذا لا اسهر حیث یروقنى السهر ؟ على السطح ، فی
المحافظة ، فی قسم الجمالیة ؟ ما شأنک انت ؟
— لماذا غیرت مکان سهرتک ؟
فصعد الرجل رأسه وصاح :
— اللهم فاشهد . اعفیتنى حتى الآن من محاکم الحكومة
ونصبت لى محكمة دائمة فی بیتى (ثم طامن رأسه كرة أخرى
واستدرک) الا فاعلمى أن بیئنا قد أصبح مشبوها . والمخبرون
یجوسون حوله .

. فسألته بسخرية مرة :

— ترى هل هذا الشاب المتهتك من بين هؤلاء المخبرين الذين
أطاروك عن عشك ؟

آه ، صار التلميح تصريحاً ؟ وأربد وجهه الضارب للسواد ،
وسألها بصوت ينم عن الضجر :

— أى شاب هذا ؟

— الفاجر الذى تقدم له الشاى بنفسك كأنك رددت صبياً
كسئقراً ! .

— ما فى ذلك من عيب ، فالمعلم يخدم زبائنه كالعبد سواء
بسواء .

فسألته متهمكة بصوت متهدج من الغضب :

— لماذا لا تخدم عم كامل مثلاً ؟ لماذا لا تخدم إلا الفاجر ؟

— الحكمة توجب خدمة الزبائن الجدد !

— الكلام سهل على من يريده ، ولكن فعلك فاضح فاجر .

فأوما إليها بيده منذراً وهو يقول :

— امسكى لسانك يا مجنونة .

— الناس جميعاً يكبرون فيعقلون .

فقرض أسنانه وسب ولعن ، ولكنها لم تباله واستطردت
تقول :

— الناس يكبرون فيعقلون ، أما أنت فكلما كبرت قل عقلك .

— خرفت يا مرة ! خرفت وحياة الحسين ! عليه العوض !

فصاحت به بصوت غليظ مرتمش النبرات :

— الرجال أمثالك يستاهلون العذاب . هلا كفتنا شر

الفضائح ! هلا كفتنا ذل السماتة !

— عليه العوض ! عليه العوض ! .

وغلبتها اليأس والغضب فصاحت به منكرة :

— ٨٥ —

— اليوم تسمعى أربعة جدران ، غدا تسمعى الدنيا كلها .
فرفع جفنيه الثقيلتين وسألها بقوة :
— تهددينى ؟ !
— اهددك ، واهدد اهلك ! أنت تعرف من أنا !
— يبدو لى انى سأهشم هذا الراس الخرف !
— هىء .. هىء ، والله ما ترك الحشيش والفجر قوة فى
ساعديك ، والله ما تستطيع ان ترفع يدا .. انتهيت ، انتهيت
با معلم .

— انتهيت بفضلك . وهل ينهى الرجال الا النساء !
— أسفى على من دون النساء جميعا !
— له ؟ .. خلفت بنات ستا ورجلا .. غير حالات الاجهاض
والسقط .

فصاحت فى غضب جنونى :
— الا تستحى من ذكر الأبناء ؟ الا يزجرك ذلك عما تتردى
فيه من الفجور !

فضرب الجدار بقضته ، وتحول عن موقفه متجها نحو
الباب ، وهو يقول :
— امرأة مجنونة مخرفة .

فصرخت وراءه :
— هل نغد صبرك حقا ؟ .. انشفق عليه من دابر الانتظار ؟ ،
سترى عاقبة فجرك يا داعر ؟ .

واغلق المعلم الباب بعنف ، فرنت صفقته رنيناً مدويا مزق
سكون الليل ، وجعلت أم حسين تكور يدها فى غضب وحنق ،
وقد امتلات نفسها رغبة فى الانتقام .

١٠

القي عباس الخلو على صورته في المرآة نظرة فاحصة نافذة
حتى لاحت في عينيه البارزتين نظرة ارتياح : وكان قد رجل
شعره بأناة ، ونفض الغبار عن بدلته بعناية ، ثم دلف من باب
دكانه ووقف ينتظر ، هي ساعة الاصيل المحبوبة . والساء صافية
عميقة الزرقة ، والجو ملطف بدفء طارئ جادت به الطبيعة فب
رذاذ اتصل يوما كاملا ، وقد اغتسلت ارض الزقاق التي لاتستحم
الا مرتين او ثلاثا في العام ، وظلت بعض منخفضات الصناديق
مغمورة بالماء ملبدة بالطين . وكان عم كامل داخل دكانه الصغير
يهوم على كرسيه ، فاشرق وجه الخلو بابتسامة لطيفة . وما لبث
ان دب الوجد في اعماقه فراح يدندن بصوت منخفض :

هلبت يا قلبي على طول الزمن تروح

وتنول وصال اللي تهوى ، وفيه تروح

مصر جروحك على طول الزمن تبرى

ويجيك الطب . لا تعلم ولا ندري

مثل سمعناه منقول عن ذوى الخبرة

الصبر يا مبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح

وفتح عم كامل عينيه وتشاءب ، ثم نظر الى الشاب الواقف

على باب دكانه ، فضحك هذا وعبر الطريق اليه وقرصه في ثديه

الهش ، وقال بسرور :

— عشقنا وستضحك لنا الدنيا .

فتنهدهم كامل وقال بصوته الرفيع :

— مبارك يا عم ، ولكن هلا سلمتني الكفن قبل ان تبينه

لتحصل على المهر ؟.

فمضحك مباس الحلو ضحكة عالية ، وغادر الزقاق متمهلا .
 كان يرتدى بدلته الرمادية ، وهى الوحيدة أيضا ، وكان قد قلبها
 منذ عام ، ثم رفا الرفاء بعض أطرافها ، ولكنه كان يعنى بتنظيفها
 وكبها - فبدا - على نحو ما - أنيقا - وكان يضطرم حماسة ونشوة
 وشجاعة . ويضطرب بهذا الضيق الشديد الذى يسبق عادة
 البوح بمكنون الفؤاد . كان فى تلك الفترة يحيا الحب ، للحب ،
 ويدوم بجناحيه اللاتكيين فى سماء السرور ، وكان حبه عاطفة
 رفيقة ورغبة سادقة وشهوة جائعة ، يهوى الثديين كما يهوى
 العينين . ويلتمس وراء الثديين حرارة الجسد ، كما يلتمس فى
 العينين نشوة غامضة ساحرة . وقد سر سرور الظفر يوم تعرض
 للفتاة فى الدراسة . وصور له خياله اعراضها كما لو كان ذلك
 الاعراض السلبي الذى تلبى به النساء نداء الهوى . واستأثرت
 به النسوة اياما ، ثم مضت حماسته تفتت ونشوته تخبو ،
 لا لجديد جد ، ولكن لتيقظ الشك وفعله . وراح يتساءل لماذا
 يظن الاعراض دلالة لا ولم لا يكون اعراضا حقا ؟ ! انها صدمته فى
 غير فسوة ولا فظاظة لا ولكن هل يتوقع الانسان من جارة العمر
 اقل من هذه المجاملة ؟ . حقا لقد غالى فى سروره ، وانها لنشوة
 كاذبة . بيد انه لم ينكص على عقبيه ، وكان كلما لسعه الشك
 اندفع فى سبيله ذائدا عن سعادته . كان عند الضحى يبرز أمام
 مكانه فيراها اذ تفتح النوافد لتشمس الشقة ، وفى المساء يجلس
 بكرسيه على عتبة القهوة تحت نافلتها ، يدخن الجوزة ، ويخطف
 النظرة تلو النظرة من الشبابك المغلق يجثم وراء خصامه الشبح
 المحبوب . ولم يقنع بهذا فتعرض لها مرة ثانية فى الدراسة .
 ولكنها صدمته كما صدمته اول مرة . واعاد الكرة فافلتت منه
 ايضا . ولكنه رجع وقد عاوده الامل واظله العرج والسرور .
 وقال لنفسه ان السعادة مهياة له ولا تقتضيه الا مزيدا من

الشجاعة والصبر . وهكذا انطلق هذه المرة معتلًا شجاعة وثقة وهياما . ورأى حميدة وصويحباتها قادمات فانحنى جانبًا حتى مروّن به ، ثم تبعهن متميلا . وقد لاحظ أن أعين البنات يشقبنه بخبث مريب فداخله سرور وزهو ، وتابع سيره حتى أنفرط مقدمهن عند نهاية الدراسة ، فحث خطاه حتى سار منها على مرمى ذراع ، وإبتسم اليها ابتسامة رقيقة متعثرة بالارباباك ، وغمغم بتحيته المحفوظة :

— مساء الخير يا حميدة .

كانت تنتظره بلا ريب ، ولكنها كانت في حيرة من أمر نفسها . لم تكن تحبه ولم تكن تكرهه . ولعل كونه الفتى الوحيد الذى يصلح لها فى الزقاق هو ما جعلها تشفق من قطعه او صده بحزم وفضافة . فأغضت عن تعرضه لسبيلها مرة أخرى ، مكتفية بزجر لين ، وافلات لطيف ، ولو شأنت أن تصغقه لصغقته . وكانت على رغم تجربتها المحدودة فى الحياة تشعر بالفارق الكبير بين هذا الفتى الوديع وبين طموحها النهم الذى يضره نزوعها الغريزى الى القوة والجموح والهيمنة والعراك . حقا كانت تهيج جنونا اذا فرات فى نظرة عين معنى للتحدى او الثقة ، ولكن لم تبعها الى الرضا هذه النظرة الودية الطيبة التى تلوح دوما فى عينى الحلو ، وتولاهها شعور بالحيرة والقلق لتردها بين الحرس عايه بوصفه الفتى الصالح لها فى الزقاق ، والنفور منه نفورا لا ينهض على أسباب واضحة يطمأن اليها . فلا ميل سريح ولا نفور صريح . ولولا ايمانها بالزواج كنهاية طبيعية محتومة لما ترددت فى نبذه والقسوة عليه . لذلك احبت مجاراته ، وسهر غوره ، واستخراج مكنون لسانه ، لعلها تجد فى ذلك كله او فى بعضه مخرجًا لها من حررتها المؤسسية . وخاف الفتى ان يمتد صمتها حتى ينطوى الطريق ، فغمغم كالضارع :

— ٨٩ —

— مساء الخير .

وانبسط وجهها البرونزى الجميل ، وتمهلت فى مشيتها وهى
تنفخ فى شجر مصطنع قائلة :

— ماذا تريد !

ولمح انبساط وجهها فلم يعبا بضجرها ، وقال بأمل ورجاء :
— ميلى بنا الى شارع الأزهر فهو طريق مأمون والظلام
وشيك .

وعدلت صامتة عن طريق الدراسة الى الأزهر . فتبعها وهو
يكاد يخرج من جلده فرحا . ورجع راسها صدى هذه الكلمات
« طريق مأمون . . الظلام وشيك » ، فادركت انها تغارف فعلا
نحاذر عليه عين الرقباء ، وابتسمت بجانب نغرها فى تحد ! .
كانت « الاخلاق » اهون شئ على نفسها المتمردة ، وقد نشأت
فى جو لا يكاد يتفيا ظلها ، أو يتقيد باغلالها . وزادها استهانة
طبع جموح وام مهملة قليلا ما تستكن فى بيتها ، فانطلقت على
سجيتها تخاصم هذا وتعارك تلك فلا تعمل لشيء حسابا ، ولا
تقيم لفضيلة وزنا . واما عباس الخلو فقد لحق بها ، وسار لصقها
وهو يقول بصوت ينم عن الفرح والسرور :
— دمت من فتاة كريمة ! .

ولكنها قالت فى شبه شجر :

— ماذا تريد منى !

فقال الفتى وهو يتمالك انفاسه المضطربة :

— الصبر طيب يا حميدة . تلتفى معى ولا تكونى قاسية

على . .

فعطفت نحوه راسها وهى تغطيه بطرف ملاءتها وقالت
بحدة :

— هلا قلت لى ماذا تريد ! .

— ٩٠ —

— الصبر طيب .. أريد .. أريد كل شيء طيب .

فقاله بتأفف :

— لا تريد ان تقول شيئا ، ونحن نجد في السير فنسعد عن طريقنا ، والوقت يمضى ، وانا لا أستطيع ان اتأخر عن موعد هودتى .

فأشفق من ضياع الوقت وقال بلهفة :

— سنعود في وقت قريب فلا تخافى ولا تجزعى . وسنجد عددا تنتحلينه لامك . انك تفكرين كثيرا في الدقائق . اما انا فأفكر في العمر كله ، في حياتنا جميعا . هذا هو شغلى التساغل . ألا تصدقيننى ؟ انه جل تفكيرى وهمى وحياة الحسين الذى يبارك هذا الحى الطاهر ؟ .

كان يتكلم في بساطة وصديق فشعرت بحرارة حديه . ووجدت لذة في الاصغاء اليه ، وان لم يتحرك قلبها الجامد ، فتناست حيرتها المعبدة ، والفت اليه بانتباهها . ولكنها لم تدر ماذا تقول فلاذت بالصمت ، وتشجع الفتى فاستدرك قائلا في انفعال :

— لا تعدى على الدقائق ولا تلقى على هذا السؤال الغريب . تسأليننى يا حميدة عما أريد ، اتجهلين حقا ما أريد قوله ؟ ! لماذا اتعرض لك في الطريق ؟ لماذا أتبع ميني ظلك حيث تكونين ؟ لك ما تشائين يا حميدة . ألم تقرلى شيئا في عيني ؟ يقولون ان قلب المؤمن دليله ؟ فماذا علمت ؟ .

اسألى نفسك . اسألى اهل الزقاق جميعا ، كلهم يعرفون . وقطبت الفتاة وتمتت وهى لا تدرى :
— فضحتنى ! .

فهاه قولها . وهتف متأثرا :

— لا فضيحة في حياتنا وما اكن لك الا الحير ، وهذا الحسين

ينشهد قولى ويعلم بسريرتى . انا احبك ، ولطالما احببتك ،
احبك اكثر مما تحبك امك . واحلف لك على صدقى بالحسين ،
وجد الحسين ، ورب الحسين .

وشعرت بسرور ولذة ، ودخلها زهو تعلق نزوعها الجامح الى
القوة والسيطرة ، والحق ان كلمات الحب الحارة خليقة بأن تطرب
الأذان ولو لم ترجع القلوب انغامها ، فهي كالأفاويه للنفس
المسدودة ! بيد أن خيالها وثب وثبة قوية عبر بها قنطرة الحاضر
الى المستقبل ؛ فتساءلت : ترى كيف تكون حياتها فى كتفه لو
صدقت الأيام أمله ؟ انه فقير ، رزقه كفاف يومه ، ولسوف
ياخذها من الطابق الثانى لبيت الست سنية عفيفى الى الطابق
الأرضى فى بيت السيد رضوان الحسينى . وأحسن ما يمكن أن
تجهزها امها فراش نصف عمر وكنبة وعدد من الاواني النحاسية ،
ولا يدخر لها بعد ذلك الا الكنس والطبخ والغسل والارضاع ،
وربما قطعت طريقها حافية فى جلباب مرقع . وريعت كأنها
أطلعت على مشهد مخيف . وتحرك فى أعماقها هيامها المفرط
بالثياب ؛ وتيقظ ذلك النفور الوحشى من الاطفال الذى تصيرها
به نسوة الزقاق . وعاودتها حيرتها المعبدة ، فلم تدر أصابت
أم أخطأت فى مطاوعتها له وسيرها معه ؟ وكان عباس ينعم اليها
النظر فى افتتاح هيام وامل ، فأول صمتها وتفكيرها على هواه ،
وقال لها بصوت ينبعث من أعماق فؤاده :

— لماذا تصمتين يا حميدة !.. كلمة واحدة تشفى الفؤاد
وتغير الدنيا . كلمة واحدة تكفينى . تكلمى يا حميدة . اخرجى
عن هذا الصمت .

ولكنها لم تنبس بكلمة ، وظلت فريسة للحيرة ، فاستطرد
عباس قائلا :

— كلمة واحدة تملأ روحى أملا وسعادة . لعلك لا تدريين

ما فعله حبك بى ! انه يبعث فى روحا جديدة لا عهد لى بها !
انه يخلقنى خلقا جديدا ، ويدفعنى لاقتحام الدنيا غير هياب .
أما علمت هذا ؟ . لقد استيقظت من سباتى ، وهذا نرينى
شخصا جديدا .

ماذا يعنى ؟ وانعطف راسها كالمسائل . فانتصرح صدره
لاهتمامها وقال بحماسة وفخار :
- اجل ، . توكلت على الله وسأجرب حظى كالاخرين .
سألتحق بخدمة الجيش البريطانى ، وعسى ان يصادقنى من
التوفيق ما صادف أخاك حسين .

فلاح الاهتمام فى عينيها وسالته على غير وعى منها :
- حقا ، . متى يكون ذلك ؟

كان يؤثر بلا شك ان تحدثة حديثا آخر ، وان يلمس انفعالها
قبل ان يستتير اهتمامها . ان يسمع هذه الللمد العذبة التى تذوب
نفسه شوقا لسماعها ؛ ولكنه ظن هذا الاهتمام قناعا نسجه
الحياء ليستر به عاطفة متبوبة كعاطفته تهاب البوح بسرها .
واهتز صدره فرحا ، وقال مفتر التفر :

- عما قريب اسافر الى التل الكبير ، وسأستغل بادىء الامر
بيومية مقدارها خمسة وعشرون قرشا ، وقد اكد لى جميع
الذين استشترتهم فى الامر ان هذا المقدار قليل من كثير مما يصيب
جميع المستغلين فى الجيش . وسأجعل همى فى أن اوفر من
يوميتى اقصى ما أستطيع توفيره ، حتى اذا عدت الى هنا عقب
انتهاء الحرب - وهى بعيدة كما يقولون - فتحت صالونا جديدا
فى السكة الجديدة او شارع الازهر ، واستقبلت حياة رغيدة
نعم بها . . معا . . ان شاء الله . ادعى لى يا حميدة .

هذا شيء جديد لم يخطر لها ببال . واذا كان الفتى جادا
فقد حقق لها كثيرا مما تصبو اليه نفسها . وان نفسا كنفسها

— ٩٣ —

مهما تناهى بها التمرد والجموح حرية بان يروضها المال
ويستانسها ، وغمغم عباس معاتباً :
— الا تريدان ان تدمى لى ؟

فقال بصوت خافت وقع فى اذنيه موقعا جميلا وان كان
صونها نقطة ضعف فى جمالها :
— الله يوفق خطاك .

فتنهدهم مسرورا وقال :
— آمين . استجب لها يا رب . ستبتسم لنا الدنيا باذن
الله . ارضى انت على ترضى الدنيا جميعا . . انا لا اسالك شيئا
الا الرضا .

واخلدت تخرج من حيرتها رويدا رويدا ، فقد وجدت فى
الظلمة التى كانت تتخبط فيها بصيص نور . نور الذهب اللامع .
واذا كان شخصه لا يرضيها ، ولا يحرك انوثتها ، فعسى ان يبرز
منه هذا الضوء اللامع الذى يستهويها ، ويلبى نزوعها الصارخ
الى القوة والجاه . وهو بعد هذا كله — وقبل هذا ايضا — الفتى
الوحيد الصالح فى الزقاق ! اجل ! هذا حق لا ريب فيه . وقد
خامرها شعور بالارتياح ، وانصتت اليه وهو يقول :
— الا تسمعيننى يا حميدة ؟ انا لا اسالك الا الرضا ! .

فارتسمت على شفيتها الرقيقتين ابتسامة ، وغمغمت :
— وفقك الله .

فعاد يقول فى ابتهاج :
— ليس من الضروري ان ننتظر حتى نهاية الحرب ! . .
سنكون اسعد مخلوقين فى الزقاق .

وقطبت فى تقزز ، وندت عنها هذه الكلمة بلا وعى ، وفى
ازدراء شديد :
— زقاق المدق !

فنظر إليها فى ارتباك ولم يجرؤ على الدفاع عن الزقاق الذى يحبه ويؤثره على الدنيا جميعا ، وتسائل منزعجا : ترى هل تزدري هذا الزقاق الطيب كأخيها حسين ؟ حقا لقد رضعنا من ثدى واحد ! . وأراد أن يمحو ما تركه فيها من اثر سيئ فقال : — نختار المكان الذى نحبين . هناك الدراسة والجمالية وبيت القاضي ، اختارى بيتك حيثما تشائين !

وتنبهت لقوله فى حيرة ، وأدركت انها تكلمت أكثر مما ينبغى ، وإن لسانها خانها بلا وعى منها ، فعضت على شفتيها ، ثم قالت بانكار :

— بيتى ؟ ! أى بيت تعنى ؟ ! ما شأنى انا فى هذا الامر !
فهتف بها فى عتاب :

— كيف تقولين هذا القول ؟ ألم يكفك ما عانيت من عذاب ؟ ألا تدرين أى بيت أعنى ؟ سامحك الله يا حميدة . أعنى البيت الذى سنختاره معا ، بل الذى تختارينه انت وحدك ، لأنه بيتك أنت دون الناس جميعا . وانى أهاجر فى سبيل هذا البيت كما علمت . ولقد دعوت لى بالتوفيق ، فلا مفر من الحقيقة السعيدة الرائعة ، اتفقنا يا حميدة وانتهى الامر .

هل اتفقا حقا ؟ أجل اتفقا ! ولولا ذلك ما رضيت بالسير معه ومنزلته الحديث والخوض فى أحلام المستقبل . وماذا يضيرها من ذلك ؟ اليس هو فتاها على أى حال ؟ ومع ذلك ساورها شعور بالقلق والتردد . احقا أصبحت فتاة أخرى لا تكاد تملك من أمر نفسها شيئا ؟ وأحست عند ذاك يده تتلمس راحتها وتقبض عليها وتضفى على أناملها الباردة الحرارة ودفئا . انتزعها منه وتقول له : « كلا .. لا شأن لى فى هذا الأمر ! » ؟ ولكنها لم تفعل شيئا ، ولم تنبس بكلمة ؛ ومضيا معا وراحتها فى كفها الساخنة . وشعرت بأصبعه تشد عليها بخنان وسمعته يقول :

- ٩٥ -

— سنتقابل دوما . اليس كذلك ؟

وأبت أن تنبس بكلمة ، ففنع بلغة الصمت وقال مرة أخرى :

— ستقابل كثيرا ، ونزن أمورنا جميعا . ثم أقابل امك . .

لا بد من الاتفاق قبل السفر .

وأنترعت راحتها من يده وهي تصيح في جزع :

— سرقنا الوقت ، وابتعدنا كثيرا . . هلم الى العودة . .

ودارا على عقبيهما معا وهو يضحك ضحكة سعيدة رجعت

بعض اصداء السعادة التي يجيش بها قلبه . واستحشا الخطى

حتى بلغا الفورية في دقائق ، وافترقا عندها ، فمالت هي اليها ،

واتجه هو نحو الأزهر ليعود الى الزقاق من طريق الحسين .

١١

« اللهم عفوك ورحمتك » .

نطقت الست أم حسين بهذه العبارة وهي ماضية الى مسكن

السيد رضوان الحسيني . كانت تسأل الله العفو والرحمة في

ياس وغیظ وحنق مما تعانيه . أعيها اصلاح زوجها وعجزت عن

ردعه . فلم تر بدا في النهاية من مقابلة السيد رضوان ، لعله أن

يفلح هو — بصلاحه وهيبته — فيما أخفقت هي فيه . ولم يكن

سبق أن فاتحت السيد في مثل هذا الامر الفظيع ، ولكن بأسها

من ناحية ، واشفاقها من شماتة الأعداء اذا جاهرت بالخصومة

والطحان من ناحية أخرى ، دفعها الى طرق هذا الباب الصالح

الامن لعل وعسى ! . وفي البيت استقبلتها حرم السيد رضوان

فجلستا معا بعض الوقت . وحرم السيد في منتصف الحلقة

الخامسة من عمرها ، وهي حلقة يمتاز بها نساء كثيرات ، ويعتبرنها

الغاية من النضج الانثوى ؛ ولكن المرأة كانت مهزولة مهدمة .
تلوح في جسمها وروحها آثار السهام التي سددها اليها الدهر
حين انتزع من بين ذراعيها اطفالها طفلا بعد طفل . وكانت لذلك
تضفى على بينها الساكن روحا من الحزن والكآبة لم يجد ايمان
السيد العميق في تبديد غشاوته . وكانت تبدو ، في هزالها
وحزنها ، صورة مناقضة لصورة زوجها القوى المنرق المظلمن
البسام . كانت امرأة ضعيفة فلم يقلها ايمانها - على رسوخه -
من عثرتها المضنية . وكانت ام حسين تعلم بامرها ، فاقبلت
تشكو بثها وهما بقلب مظمن الى انه سيجد اذنا مصغية تسنمليها
التسكوى والاحزان . ثم استاذنت في مقابلة السيد رضوان فغابت
المرأة لحظات ثم رجعت تدعوها الى لقائه ، وقادتها الى حجرته .
وكان السيد يجلس على فروة مسبحة ، المجرة امامه ،
وابريق الشاي على يمينه . كانت حجرته الخاصة صغيرة انيقة ،
تحديق بآركانها الكنبات ، ويفطى ارضها سجاد شيرازى . تقوم
في وسطها مائدة مستديرة رصت عليها الكتب الصفر ، ويتدلى
فوقها من السقف مصباح غازى كبير . وكان السيد يرتدى جلبابا
رماديا فضفاضاً ، وطاقية صوفية سوداء يضىء تحتها وجهه
الابيض المشرب بالحمرة كالبدر المنير . في هذه الحجرة كان يخلو
الى نفسه كثيرا ، قارئا او مسبحا او متاملا . وفيها كان يجتمع
باصدقائه من العلماء والصوفيين وائمة الازكار يتذاكرون الاخبار
ويروون الاحاديث ويناقشون ما يعرض لهم من الآراء . ولم يكن
السيد رضوان معدودا من العلماء المتفقيين في الدين ، ولا من
الاذكياء الافذاذ ، ولا من اولئك الذين يجهلون اقدارهم فيضعونها
من حيث يريدون أن يرفعوها فوق طاقتها ، ولكنه كان مؤمنا
صادقا ، ورعا تقيا ، يستأسر نفوس العلماء بقلبه الكبير وسدرة
المسماح وخلقه القويم وعطفه وحنانه ورحمته ، فكان بحق من
اولياء الله الصالحين .

- ٩٧ -

وقد استقبل أم حسين واقفا ، غاضا بصره ، فأقبلت عليه
في ملاءتها مبرقعة ، وسلمت عليه بيد ملتفة بطرف الملاة كيلا
تنقض وضوءه . رحب بها الرجل قائلا :
- اهلا وسهلا بجارتنا الفاضلة ..

ودعاها الى الجلوس فجلست على الكنبه قبالتة . وتربع
الرجل على الفروة وراحت أم حسين تدعو له :
- الله يكرمك يا حضرة السيد ويطيل عمرك بحق جاه
المصطفى ..

وكان يحدس ما حملها على مقابته . فلم يسألها عن صحة
المعلم زوجها كما تقضى بذلك آداب الضيافة ! وكان يعلم كالأخوين
بسيرة المعلم كرشة ، وتناهى اليه ما قام بين الرجل وزوجه من
شقاق وشجار في ظروف سابقة مماثلة .. نايقن انه اقحم في
هذا النزاع المتجدد على غير ارادة . وسلم بالأمر الواقع ، وتلقاه
بصدره الرحب كما يتلقى غيره مما يكره ، وابتسم ابتسامة لطيفة
وقال يشجعها على الكلام :
- خير ان شاء الله .

لم تكن المرأة تعرف التردد ، ولا كان الحياء من اسباب ضعفها
في يوم من الايام ، بل هى امرأة على قدر كبير من الشراسة
والوقاحة ، ولم تكن امرأة تفوقها مراسا في الزقاق كله الالم
الا حسنية الفرانة ؛ لذلك قالت للسيد بصوتها الغليظ :
- يا سيد رضوان ، انت الخير والبركة ، وانت رجل زقاقنا
الفاضل ؛ لذلك قصدتك اسالك المعونة في شدتي ، واشكو اليك
الرجل الفاجر زوجي ..

وعلا صوتها في آخر كلامها واخشوشن ، فابتسم السيد
مرة أخرى ، وقال بصوت لا يخلو من رنة الاسف :
- هاتي ما عندك يا ست أم حسين . انى مصنع اليك ..
زقاق المدق

فتنهلت المرأة وقالت :

- الله يرفع قدرك يا زين الرجال . الرجل يا سى السيد لا يحتشم ولا يرعوى . وكلما حسبت أنه قد تاب عن فيه طالع على بفضيحة جديدة . انه رجل فاجر لا يرده عن شهوة لا يمن ولا زوجه ولا ابناء . ولعلك علمت بأمر هذا التاب الرقيق الذى يوافيه كل ليلة الى القهوة لا . هذه هى فضيحتنا الجديدة . . ولاحت فى العينين الصافيتين سيماء الكدر ، واطرق متفكرا مفتما . اغتم الرجل الذى عجز الم الشكل المبرج عن ان ينال من صفاء نفسه ، وليت صامتا ساكنا ، يتعوذ قلبه من الشيطان وعيئه . واتخذت المرأة من حزنه مبررا قويا لغضبها ، فنهلت . وهدرت قائلة بنبرات فظيعة :

- فضحنا الرجل المتهتك . والله لولا عشرة العمر والابناء لهجرت بيته لغير رجعة أبدا . أيرضيك هذا العار يا سى السيد؟! أيرضيك هذا السلوك الثائث؟! لقد نصحتك فلم ينتصح . وانذرتك فلم يراع . فلم أجد سبيلا الاك . وما كنت أحب أن ألقى على سمعك الطاهر هذه الأنباء المخجلة ، ولكن لا حيلة لى . رانت سيد الحى جميعا ورجله الفاضل . وامرك مطاع . فلعلك بالغ منه مالم يبلغه كلامى ولا كلام الناس جميعا ، حتى اذا تبين لى أن نصحك نفسه لا يجدى كان لى معه شأن آخر . اجل انى ادارى اليوم غضبى . ولكنى اذا يئست من صلاحه ف... انصب النار فى الزقاق جميعا واجعل من جسده النجس خطاما لها . . فحدجها السيد بنظرة عتاب وقال لها بهدوئه المألوف :

- أفرخى روعك يا ست أم حسين . ووحدى الله ، ولا تغلبى الغضب على نفسك . أنت ست طيبة ! والكل يشهد لك بالفضل! فلا تجعلى من نفسك وزوجك نادرة ظوكها اللسن . الزوجة الطيبة غطاء محكم يستر ما أمر الله به أن يستر . عودى الى دارك آمنة مطمئنة ، ودعى لى هذا الأمر ، والله المستعان . .

فقال المرأة وهى تتمالك انفعالها :

— الله يكرمك ، الله يسعدك ، الله يشرف قدرك . أنت يا سيدى الملاذ والماوى ، وسأدع هذا الامر بين يديك وانتظر ، وربنا بينى وبين هذا الرجل الفاجر ..

وسكن الرجل خاطرها بما وسعه من كلم طيب ، وكان كلما ذكر كلمة طيبة دعت له المرأة وانهاالت بالشتائم على زوجها وراحت تسرد عليه طرفا من فضائحه ، حتى أوشك صبر الرجل ان ينغدا . ثم ودعها مكرمة وهو يتنهد من الأعماق ! . وعاود جلسته متفكرا . كلن يتمنى بلا شك لو لم يقحم فى هذا الامر ، أما وقد وقع المحذور فلا معدى عن انجاز وعده . ونادى خادمه ، وأمره ان يدعو اليه المعلم كرشة ، فمضى الغلام على عجل . وانتظر ساكنا ، وذكر أنه يدعو لحجرته — لأول مرة — فاسقا ، فلم يدخلها قبل ذلك الا الفقهاء والصوفيون . وتنهد من الأعماق ثم قال لنفسه : « ان من يهدى فاسقا خير ممن يجالس مؤمنا » . ولكن هل يبلغ هداية الرجل حقا ؟ . وهز راسه الكبير واستشهد بقوله تعالى : « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » . ومضى يتعجب من غواية الشيطان للانسان ، وكيف يشد به عن فطرة الله السوية ، ثم قطع عليه جبل تاملاته دخول خادمه معلنا حضور المعلم ، فأذن له . ونهض لاستقباله . وجاء المعلم كرشة بجسمه الطويل النحيل ، والتقى على السيد من تحت جفنيه الثقيلين نظره تجلة واحترام ، وانحنى على يده مسلما . ورحب به السيد رضوان ودعاه للجلوس ، فجلس الرجل فى المكان الذى كانت تجلس فيه زوجته قبل هنيهة ، وملا له قدحا من الشاي . كان المعلم آمنا مطمئنا لا يتوجس خيفة ، ولا يدرى شيئا عما دعا السيد الى استدعائه . والحق ان من بلغ مبلغه من الدهول والشروء خليك بان يفقد كل

— ١٠٠ —

قدرة على التوجس والحيلة والحدس . وقد قرأ السيد في عينيه
نصف الغمضتين الطمانينة ، فقال له بهدوء مبتسما :

— شرفت دارنا يا معلم .

فرفع المعلم يديه الى عمامته وقال :

— شرف الله قدرك يا سى السيد .

فقال السيد :

— لا تؤاخذنى على دموعك فى أثناء عملك ، فقد رايت ان

احادثك فى امر هام كما يتحدث الاخوان ، ولم اجد لذلك مكانا
انسب من البيت .

فأخى المعلم رأسه وقال بأدب جم :

— انى طوع امرك يا سى السيد ..

وخاف السيد الاسترسال فى المجاملات فيضيع الوقت .
سدى ، وتطول مدة غياب المعلم عن عمله ، فاراد ان يخوض
الموضوع بلا تردد ، ولم تكن تنقصه الشجاعة ولا تعوزه
الصراحة ، فقال بلهجة جدية :

— احب ان احديثك كما يتحدث الاخوان ، او كما ينبغي ان

يتحدث الاخوان اذا كان رائدهم المودة والاخلاص . والاخ المخلص
من اذا راي اخا له يهوى تلقاه بذرعيه ، او وجده يتعثر اقباله من
عثرته ، او حسبه فى حاجة الى النصيح محضه النصيحة ..

وفترت حماسة المعلم ، وادرك فى تلك اللحظة فحسب انه
وقع فى فخ ، فلاح فى عينيه المظلمتين نظرة ارتباب ، وتمتم فى
ارتباك وهو لا يدري ماذا يقول :

— نظقت بالحق يا سى السيد ..

ولم يخف على السيد شيء من ارتبائه وارتبابه ، فقال بلهجة
جدية ايضا لطفها نظرتة الوديعه الصافية :

— أخى ، سأصارك بما فى نفسى فلا تؤاخذنى على صراحة .

- ١٠١ -

فما استحق المودة من كان هدفه الاصلاح وباعثه المودة
والاخلاص . والحق يا اخى انى رايت فى بعض سلوكك ما ساعنى،
وما لا اعده خليقا بك ..
وقطب المعلم كرشة منزعجا ، وجعل يخاطب السيد فى
سره قائلا :

« مالك انت ولهذا ! » . ثم قال متصنعا الدهشة :
- اسألك سلوكى حقا يا سى السيد ؟! .. معاذ الله ..

ولم يعبا السيد دهشته المتصنعة واستدرك قائلا :
- ان الشيطان ليجد ابواب الشباب مفتحة فيلجها خفية
وعلائية ويعيث فسادا ، ومع ذلك فنحن لا نتسامح مع الشباب
مفتح الابواب ونلزمه ان يغلّق ابوابه فى وجه الشيطان ، فماذا
يكون الحال مع الشيوخ الذين وهبهم العمر مفاتيح العصمة ؟
ماذا يكون الحال لو رايناهم يفتحون ابوابهم طوامية ويدعون
الشيطان بانفسهم ؟! .. هذا ما ساعنى يا معلم كرشة ..

شباب شيوخ ! ابواب مفاتيح ! شيطان شياطين ، لماذا
لا يريح نفسه ويدع الناس يستريحون ؟! .. وهز راسه حيرة ،
ثم قال بصوت منخفض :

- لا افهم شيئا يا سيد رضوان ..
وحدجه السيد بنظرة ذات معنى وسأله بلهجة لا تخطو من
عتاب :

- حقا ؟!

فغمغم المعلم وقد بدأ يستشعر البرم والخوف :
- حقا ..

فقال السيد رضوان بحزم :
- حسبتك تعلم ما اعنى . والحق انى اعنى هذا الشاب .
الرقيع ..

- ١٠٤ -

وسدت المنافذ في وجهه ، فاحتدم الغيظ في نفسه ، ولكنه
كالغبار الواقع في المصيدة جعل يتخبط وراء المنافذ المسدودة ،
فتساءل بصوت ينم عن الهزيمة :
— أي شاب يا سي السيد ؟

فقال السيد بلهجة ودیعة متحاميا انارته :
— انت تعرفه يا معلم . وانی لم افاتحك بامرہ لاسیء الیک
أو اخجلک ، معاذ الله ، ولكن لارشدک لما فیہ الخیر . ما فائدة
النکران ؟ الجميع يعرفون والجميع يتکلمون . وهذا لعمری
ما آلمنی اتد الالم . آلمنی أن أجدک مضفة الافواه ..
فغلب المعلم الغضب ، وضرب فخذه بقبضة قاسية ، وقال
يصوت أجش تطايرت فظاظته مع نثار ريقه :

— ما بال الناس لا یریحون ولا یستريحون ! احقسا تراهم
یتکلمون یا سی السيد ؟ هكذا هم ابدا منذ خلق الله الأرض ومن
عليها . انهم يخوضون فی الأعراض لا لقبیح یستقبحون ، ولكن
لیتنقصوا اخوانهم . ولو لم یجدوا نقيصة لخلقوها خلقا تم
خاضوا فیها ، اتحسبهم یتهامسون تافقا وازدرا ؟ كلا والله .
انه الحسد یاکل قلوبهم اکلا ... ؟

وهال السيد هذا الرأى ، فقال له دهنسا :
— یا له من رأی خاسر ! اتحسب أن هذا الفعل النسائین
مما تحسد علیه ؟

فتهافف ضاحكا وقال بحقد :
— لا تشک فی قولی یا سيد رضوان ! انهم طغمة ذالکة .
ولیس للخیر من رجع فی نفوسهم (وأدرك عند ذاك انه سلم
بالتهمة وكاد يدافع عنها فاستدرك) : الا تدرى من هذا
الشاب ؟ انه شاب مسکین اذاری يؤسه بالاحسان !!
فضجر السيد من مراوغته ، وحدجه بنقرة كأنما بقول له :
« أیجوز هذا القول علی ! » ثم قال :

- ١٠٣ -

- يا معلم كرشة : الغالب أنك لا تفهمنى . انا لا احاكمك ولا أعيرك . فكلانا فقير الى رحمة الله وعفوه . ولكن لا تحاول النكران . اذا كان هذا الشاب مسكينا فدعه لخالفه والدنيا ملأى بالمحتاجين ان احببت احسانا .
- ولماذا لا يكون احسانى لهذا الشاب ؟ يؤسفنى أنك لا تصدفنى وانا رجل برىء .

ونظر السيد الى الوجه المشرب بالسواد فى استياء مكتوم ، وقال بتؤدة :

- هذا شاب رقيق سبىء السمعة ، ولقد أخطأت فى محاولة خداعى ، ولكن الاخلاق بك ان تقدر نصحى ، وتواجهنى سادقا صريحا .

وأدرك المعلم ان السيد قد استاء وان ام يلج الاستياء فى وجهه ، فلاذ بالتصمت كاظما غيظه ، واخذ يفكر فى الانصراف . ولكن السيد استدرك قائلا :

- انى ادعوك لما فيه سلاحك وصلاح بيتك ، ولست يائسا من جذبك للخير . اهجر هذا الشاب انه رجس من عمل الشيطان . وتب الى ربك انه غفور رحيم . لو كنت من الصالحين كنت الآن من الموسرين ؛ ولكنك تبيع كثيرا وتخسر فى بالوعة الرجس كثيرا ؛ وتبقى على الايام فقيرا مدمما . فماذا قلت ؟

وعدل المعلم عن المكابرة بصفة نهائية . وخاطب نفسه قائلا انه حر يفعل ما يشاء ، وليس لاحد من سلطان عليه ولو كان السيد رضوان الحسينى نفسه ! ولكنه لم يفكر لحظة واحدة فى اغضاب السيد ولا تحديه . فاطبق جفنيه على عينيه المظلمتين ، وقال بصوت منكر :

- هذا امر الله !

فلاح الانزعاج فى الوجه الصبيح وقال بحدة :

- ١٠٤ -

- بل امر الشيطان ! حرام عليك يا شيخ .
- فغمغم المعلم قائلا :
- لما يأمر الله بالهدى !
- لا تطع الشيطان يهدك الله لما فيه صلاحك . اهجر هذا الشاب او دعنى اصرفه بسلام . .
- فانزعج المعلم وغلبه الجزع ، ولم يعد يستطيع مداراة عواطفه . فقال بحزم :
- كلا يا سى السيد ، لا تفعل . .
- فرمقه الرجل بنظرة استياء وازدراء ، وقال بصوت ينم عن الاسى :
- ارايت كيف تؤثر الغواية على الهداية ؟ !
- ربنا الهادى .
- وتولاه اليأس من هدايته ، فقال متضجرا :
- اقول لك للمرة الاخيرة ، اهجره او دعنى اصرفه بسلام . .
- فقال المعلم بعناد وهو يتزحزح الى طرف الكتبة كانما يهم بالنهوض :
- كلا يا سى السيد . اضرع اليك ان تدع هذا الأمر حتى يأمر الله بالهداية .
- فتعجب السيد من عناده الوقح ، وتساءل متعززا :
- الا يخجلك هذا الحرص على هذا الفعل الشائن ؟ !
- ونفض المعلم قائما وقد ضاق صدره بالسيد ، وعظله ، وهو يقول :
- ان الانسان ليقارف أفعالا كثيرة شائنة ، وهذا واحد منها ، فادع لى بالهداية ، ولا تفضب على ، وتقل عدى واسفى . ماذا يملك الانسان من أمر نفسه ؟
- فابتسم السيد ابتسامة حزينة ، وقال وهو ينفض قائما كذلك :

- ١٠٥ -

- يملك كل شيء لو اراد ، ولكنك لن تفقه معنى لقولى ،
فلا امر الله
ومد له يده قائلا :
- مع السلامة .
وغادر المعلم كرشة البيت مقطبا مدمما ، يسب الناس
والزقاق والسيد رضوان .

- ١٢ -

وانتظرت أم حسين متصبرة متجلدة يوما ويومين . كانت
تقف وراء خصاص النافذة المطلّة على القهوة تترقب مقدم الشاب ،
فتراه قادما يخطر ثم تراه مرة أخرى - عند انتصاف الليل -
وزوجها منصرفين صوب الغورية !! ابيضت عينها من المقت
والغضب ؛ وتساءلت يا ترى هل ذهبت نصيحة السيد رضوان
هباء ؟ وزارت السيد مرة أخرى ؛ فhez رأسه آسفا وقال لها :
« دميّه لحاله حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » ، فرجعت الى
شقتها تغلى غليانا . وتتوعد شرا . لم تعد تقيم وزنا لشماتة
الشامتين ، وانتظرت بالنافذة حتى أتى الليل وقدم الشاب ؛
فتلفعت بملاءتها وغادرت الشقة كالمجنونة ؛ ونزلت السلالم وثبا
فكانت أمام القهوة فى دقيقة واحدة . كانت الدكاكين قد اغلقت
واوى أهل الزقاق الى القهوة كمادتهم كل ليلة ، وكان المعلم كرشة
مكبا على صندوق الماركات فى شبه نعاس فلم ينتبه لحضورها .
واستقر بصرها الزائغ على الشاب وهو يرشف الشاي من قدح
فى يده ، فاقتربت منه مارة أمام المعلم الذى لم يرفع بصره اليها ،
وضربت القدح بكفها فاندلق على حجر الشاب الذى قام فرعا
صارخا ! وصاحت به بصوت كالرعد :

— ١٠٦ —

— تشرب شايا يا بن العاهرة !

واحدت الأعين بالمرأة سواء من يعرفها من اهل الزقاق
او من لا يعرفها من بقية الجلوس . والتفت نحوها المسلم كرشة
كانه يستيقظ بصب دلو ماء على وجهه . وهم بالوقوف ، ولكن
المرأة دفعته في صدره ، وهى تصرخ فى وجهه وقد أخرجها
الغضب عن وعيها :

— اياك وأن تتحرك يا فاجر ! والتفت نحو الشاب
واستدركت (ماذا أفزعك يا شاطر . يا مرة فى تياب رجل ،
هلا أخبرتنى عما يدعوك الى المجيء هنا !)

ووقف المعلم كرشة وراء الصندوق وقد الجم الغضب لسانه ،
واربد وجهه ، ولكنها صاحت فى وجهه :
— ان حدثتك نفسك بالدفاع عن رفيقك هشت عظمك
امام الناس .

واندفعت نحو الشاب الذى تقهر حتى التصق بالشيخ
دوريش وهى تصيح :

— أريد أن تخرب بيتى يا رقيع يا ابن الرعاء !

فقل لها الشاب مرتعدا :

— من أنت ياستى ، ماذا فعلت حتى ..

— من أنا ؟ ألم تعرفنى ؟! أنا ضرتك ..

وانهالت عليه ضربا ، فسقط طربوشه ، وسال الدم من أنفه ،
ثم قبضت على ربطة رقبته وشدت عليها بعنف حتى اختنق
صوته . وقد ذهل الجلوس ، وحملقوا فيما يقع أمامهم بأعين
دهشة . ولكن قلوبهم رقصت جذلا ، ومنوا أنفسهم برؤية منظر
بهيج مسل . فى حين دما صراخ أم حسين المعلمة حسنية الفرانة
فجاءت مهرولة يتبعها زوجها جعدة فاغرا فاه . ثم ظهر بعد قليل
زينة صانع العاهات ، ولكنه وقف بعيدا كأنه شيطان انشقت

— ١٠٧ —

عنه الأرض . ولم تلبث نوافل البيتين ان فتحت وأطلت منها
الرهوس تستطلع ما هنالك . واهاج الغضب المعلم كرسنة . وراى
فتاه يتضور متلويًا . محاولا عبثا أن يخلص عنقه من قبضة المرأة
القوية ، فاندفع نحوهما ثائرا وهو يرغى زبدا كالبحول ، وشد
على ساعدى امراته صائحا فى وجهها :
— التركيبة يا مرة وكفى فضيحة !

واجبرت المرأة تحت ضغط زوجها على ترك غريمها وقد
سقطت ملاءتها عند قدميها ، فجن جنونها ، وتعالى صراخها ،
وامسكت بتلابيب المعلم وهى تصيح :
— أضربنى يا فلجر دفاعا عن رفيقك ! اشهدوا يا ناس على
الرجل الفاجر !

وانتهز الشاب فرصة افلاته فتطايير خارج القهوة . وعدا
لا يلوى على شيء . واستمرت المعركة بين المعلم وزوجه ، هى تشد
على تلابيبه ، وهو يحاول دفعها والتخلص منها ، حتى نهض اليهما
السيد رضوان الحسينى وخلص بينهما . وتلفعت المرأة بملاءتها
وهى تلهث ، وصرخت بصوت كادت تتصدع له اركان القهوة :
— يا حشاش ، يا مدهول ، يا وسخ . يا ان الستين ،
يا ابا الخمسة ، وجد العشرين ، يا عرة ، يا رطل ؛ سفخص
على وجهك الاسود ..

فحدجها المعلم بنظرة قاسية وهو منتفض من الانفعال .
وصاح بها :

— لمى لسانك يا مرة ، وسدى هذا المرحاض الذى يقذفنا
بوسخه !

— قطع لسانك . ما مرحاض الا انت ، يا خرع ، يا مفضوح ،
يا ظل العيال ..

فلوح لها بقبضته وهو يقول :

١ - تخرفين كعادتك . كيف سولت لك نفسك الاعتداء على زبائن القهوة ؟

فضحكت المرأة ضحكة مروعة وقالت بسخرية مريرة :
- زبائن القهوة ؟! المغر ! ما قصدت زبائن القهوة بسوء .
ولكنى اعتديت على زبون المعالم الخصوصى !
وتدخل السيد رضوان مرة اخرى ، وطلب من المرأة ان تمسك ، وأن تعود الى بيتها ؛ ولكنها قالت وقد غيرت نبرات صوتها بجهد شديد :

- لن أعود الى بيت الفاسق ما حييت ..

فألح عليها ، وتطوع عم كامل لمعاونته ، فقال لها بصوته الرقيق اللاتكى :

- عودى الى بيتك يا ست أم حسين . عودى ووحدى الله واسمعى كلام السيد رضوان ..

وحال السيد بينها وبين مغادرة الزقاق ، ولم يتركها حتى رجعت الى البيت مظهرة السخط والتدمر . واختفى عند ذاك زبيطة ، وانسجبت حسنية الفرانة يسبقها زوجها ، وقد لکمه فى ظهره وهى تقول له :

- لا تغثأ تندب حظك وتقول مالى اضرى من دون الرجال جميعا ! أرايت كيف يضرب أسیادك وأسیاد من خلفوك .. !

وخلفت جمجمة المعركة صمتا ثقیلا ، وتبادلت الحاظ نظرات ساخرة تشى بالخبيث والسرور ، وكان أشد الحاضرين سرورا وأرتياحا الدكتور بوشى ، وهو الذى هز رأسه أسفا وقال فى نبرات حزينة :

- لا حول ولا قوة الا بالله ، اللهم اصلح الحال ..

وكان المعلم « كرشة » لا يزال ملازما مكانه - الذى باشر فيه المعركة - فتنبه الى فرار فتاه ، وقطب فى عناد ، وبدا منه

— ١٠٩ —

أنه يريد اللحاق به ، ولكن السيد رضوان — وكان غير بعيد عنه — وضع يده على كتفه وقال بهدوء :

— اقعد يا معلم واسترح ..

فنفخ مغیظا محنقا ، وتراجع متشاقلا وهو يخاطب نفسه في حقد شديد :

— لبؤة ، فاجرة ، ولكن الحق على ، أنا أستاهل أكثر من هذا ، مغفل من لا يبيت أمراته بالعصا ..
وعلا صوت عم كامل وهو يقول :

— وحدوا الله يا هوه ..

وارتمى المعلم كرشة على مقعده . ثم أخذه الفضب كرة أخرى ، فشارت ثأثرته ، وراح يضرب جبهته بكف غليظة قاسية صالحا :

— أنا في الأصل مجرم قاتل . وجميع هذا الحى عرفنى مجرما يرتوى بالدماء . أنا مجرم ، أنا ابن كلب ، أنا وحش ، ولكنى أستاهل كل اهانة لأنى ثبت بمحض ارادتي عن الشر (ورفع راسه) انتظرنى يا مرة يا وسخة ، ستلقين الليلة كرشة الزمان الاول ..

وصفق السيد رضوان بيديه وهو يتربع على الأريكة ، وخاطب المعلم قائلا :

— وحد الله يا معلم كرشة . نريد أن نشرب التناى في هدوء !

ومال البوشى على اذن عباس الحلو وهمس قائلا :

— لا بد أن نصلح بينهما ..

فساله الحلو بخبث :

— بين من ومن ؟

فكتم الدكتور ضحكة فخرجت من اتفه ريحا كالفحيح ، وقال :

— ١١٠ —

— أظنه يعود إلى القهوة وقد حصل ما حصل ؟

فمط الحلو بوزه وقال :

— ان لم يعد هو جاء غيره !

ثم شمل القهوة جوها المألوف ، وعاد القوم الى ما كانوا فيه من لعب وسمر ، وكادت تنسى المعركة وتذهب آثارها . لولا ان حاج المعلم كرشة مرة أخرى ، وصاح مرعدا كالوحوش الضارية .
— لا لا .. لا يمكن ان أذن لارادة امرأة . أنا رجل ، حر ، أفعل ما أشاء ، لتترك البيت اذا شأنت ، ولتتسكع مع الشحاذين ، أنا مجرم .. أنا من أكلى لحوم البشر ..

ورفع الشيخ درويش راسه بفتة وقال دون ان يلتفت نحو المعلم :

— يا معلم ، امراتك قوية ، فيها من الرجولة ما يعوز الكثيرين من الرجال ، هي ذكر وليست بانثى ، فلماذا لا تحبها ؟

وصوب المعلم نحوه عينين ناريتين وصاح في وجهه :
— اقطع لسانك !

وصاح أكثر من واحد من الجالسين :
— حتى الشيخ درويش !

وولاه المعلم ظهره صامتا ، وراح الشيخ درويش يقول :
— هذا شر قديم ، يسمونه في الانجليزية Homosexuality وتهجيتها Hom o s e x u a l i t y ولكنه ليس بالحب .
الحب الحقيقي لال البيت . تعالى يا حبيبتي .. تعالى يا ست ..
أنا عاجز يا أم العواجز ..

- ١١١ -

- ١٣ -

كانت مقابلة الأزهر فتحا جديدا في حياة عباس الحلو . عهد الحب . شعلة وهاجة تضطرم في الفؤاد ، نشوة سحر تسكر العقل . شهوة تصهر الأعصاب . كان مرحا مختلا مزهوا . كأنه فارس لا يشق له غبار أو ثمل قد أمن عوادي الخمار . وتقابلا بعد ذلك مرات ، فلم يملا الحديث عن مستقبلهما . أجل بات مستقبلهما واحدا ، ولم تنكر حميدة ذلك ، لا في حضوره ، ولا في غيابه ! ولكم تساءلت : ترى هل تظفر واحدة من صويحباتها بنكت المشغل بخير منه ؟ . وتعمدت أن تسير معه وتظهرهين ، وجعلت تسترق النظر الى أعينهن الفاحصة وكانها ارتاحت الى ما تركه فيهن من اثر . وقد سألنها يوما عن السباب « الذي رأيته معها » فقالت :

— خطيبي . . صاحب صالون حلاقة !

وقالت انفسها : ان اية واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة اذا خطبها صبي قهوة أو صبي حداد . وهذا صاحب دكان : أو سطى . وأفندى أيضا ! كانت مشغولة ابدا بالموازنة والاختيار والتفكير ، فلم تنجذب الى الدنيا السحرية التي يهيم في سماواتها . بيد انه كان يبلغ بها التائر في لحظات منتهاة ؛ فكانها كانت — في تلك اللحظات — محبة حقا . وفي احدى هذه اللحظات استوهبها قبلة ، فلم تقل لا ولم تقل نعم . ارادت ان تذوق هذه القبلة التي سمعت عنها كثيرا وتغنت بها كثيرا . ونظر هو محاذرا يراقب المارة ، وتحسس ثغرها في ظلمة المساء . ثم وضع شفثيه على شفثيها وهو يرتعد ، وغمرتها أنفاسه الملتهبة ، فسالت الى نحرها وطرقت عيناها .

ثم دنا موعد سفره فرأى أن يخطو الخطوات الحاسمة . واختار الدكتور بوشى - الذى يسر له مهنته التردد على بيوت الزقاق - سفيرا له لدى أم حميدة ، وسرت المرأة بالشباب الذى تراه الصالح الوحيد لابنتها فى الزقاق ، وكانت تعده دائما « صاحب صالون وقد الدنيا » ولكنها خافت شماس ابنتها المتمردة ، وظنت أنها مقبلة على معركة طاحنة ، فما أدهشها بعد ذلك إلا أن تتلقى الفتاة الخبر برضا وتسليم مما جعلها تهز رأسها وتقول :

— هذا فعل النافذة وراء ظهرى !

وكلف الحلو عم كامل بصنع صينية بسبوسة فاخرة وارسالها لام حميدة ، واستأذن فى مقابلتها ، ومضى اليها مصحوبا بعم كامل شريكه فى بيته وحياته . وقد وجد عم كامل صعوبة شديدة فى ارتقاء السلم ، وجعل يتوقف كل درجتين لاهثا منوكثا على الدرابزين ، حتى قال للحلو مداعبا عند أول « بسطة » :

— هلا أجلت الخطبة لحين عودتك من الجيش ؟ !

ورحبت بهما أم حميدة ، وجلس ثلاثتهم يتبادلون طيب المجاملات ، حتى قال عم كامل :

— هذا عباس الحلو ابن زقاقنا ، وابنك ، وابنى ، يطالب اليك يد حميدة ..

فابتسمت المرأة وقالت :

— أهلا بالحلو الذى هو حلو ، ستكون ابنتى عنده وكانها لم تفارقنى ..

وتحدث عم كامل عن الحلو وأخلاقه ، وعن الست أم حميدة وأخلاقها ، ثم قال :

— سيفادونا الفتى فتح الله عليه ، وقرىبا تحسن حاله فيتم له ولنا المراد بأذنه تعالى ..

ودعت أم حميدة له ، ثم داعبت عم كامل قائلة :

— وابت يا عم كامل متى تنوى وتتوكل على الله ؟
 فضحك عم كامل حتى صار وجهه كالطماطم فى ابانها ،
 ومسح على كرشه المحيط وقال :
 — دون ذلك هذا الحصن المنيع .. !
 وقرأوا الفاتحة وشربوا الشربات ..
 ثم كان بعد ذلك بيومين اللقاء الأخير بالأزهر . سارا
 واجمين ، والخلو يشعر بدموعه تدق أبواب صدره لتجد سبيلا
 الى مجارى عينيه . وقد سألته :
 — هل تغيب طويلا ؟
 فقال الشاب بصوت رقيق حزين :
 — ربما امتدت خدمتى عاما او عامين ، ولكن لن تفوتنى
 فرصة مناسبة للحضور ..
 فمغمت قائلة ، وكانت تجد نحوه فى تلك اللحظة ودا عميقا :
 — يا له من زمن ؟
 فابتهج قلبه — على اساه — لهذه العبارة التى تنم عن
 الجزع ، وقال منفعلا :
 — هذا آخر لقاء قبل السفر ، والله وحده يدري متى يكون
 اللقاء التالى . وانى لفى حيرة يا حميدة ما بين الحزن والسرور .
 اجدنى محزونا لانى مبتعد عنك ، ثم اجدنى مسرورا لأن هذا
 الطريق الطويل الذى اخترت هو الطريق الوحيد المفضى البك .
 ولكنى سائر لك قلبى ورائى فى الزقاق ، فتصورى رجلا مهاجرا بلا
 قلب ، رمى به السفر الى بلد ناء ، وابى قلبه ان يسافر معه .
 وغدا فى التل الكبير ، وعند مطلع كل صباح ، سافتقد النافذة
 المحبوبة التى كنت اراك تكتسبين حافتها ، او تمشطين شعرك وراء
 فرجة مصراعها ، وهيهات ان اجد لها اثرا . ولقاؤنا فى الموسيقى
 والأزهر ماذا يبقى لى منه ؟ أواه يا حميدة ، هذا ما يتقطع له

— ١١٤ —

لمبى ، دعيني آخذ منك كل ما أستطيع أخذه ، ضعى راحتك فى
يمنى ، وشدى على يدى كما أشد على يدك . لله ما أطيب مسك .
انه يرعش قلبى ، انى قلب كبير بين يديك ، يا عزيزة ، يا حبيبة ،
يا روح قلبى يا حميدة . ما أجمل اسمك . كانى اذا نطقت به
استحلب سكرًا ..

واستنامت الفتاة الى كلامه المتدفق الحار ، فلانت نظرة
عينيهما ، وغمغمت فائلة :
— أنت الذى اخترت السفر ..

فقال بصوت كالنواح :
— أنت السبب يا حميدة . أنت أنت السبب . انا والله احب
زفائنا ، واحمد الله على ما يرزقنى به من كفاف . وما احب ان
انأى عن الحسين الذى أقوم واقعد باسمه . ولكنى وا أسفاه
لا أستطيع أن اهيبء لك الحياة التى ترزيناها ، فلم أجد عن
السفر مذهبًا ، وربنا ياخذ بيدي ، ويجمعنا على أهنا حال .
فقلت حميدة بتائر شديد :

— سادمو لك بالتوفيق ، وسأزور سيدنا الحسين واساله
أن يرعاك ويكتب لك النجاح . والصبر طيب ، والحركة بركة .
فتنهذ من الأعماق وقال :
— أجل الحركة بركة ، ولكن يا ولى من بلد لا أجد لك
مبه ظلاً ..

فغمغمت بركة :
— لن تكون هكذا وحلك ..
فالتفت نحوها وقد سكر بقولها ، ورفع يدها حتى مسست
قلبه ، وهمس :
— حقا ؟!

فابتسمت ابتسامة عذبة لاحت لعينيه الهائمتين على الضوء

- ١١٥ -

المنبعت من بعض الدكاكين . وغاب في تلك اللحظة عن كل شيء ،
ما عدا وجهها المحبوب ، وسالت هذه الكلمات من بين شفثيه :
- ما أجملك ، ما أرقك ، ما أعذبك . هذا هو الحب . إنه
عذب جميل يا حميدة ، الدنيا من غيره لا تساوى مليما واحدا .

ولم تدر ماذا تقول فتعوذت بالصمت ، وجرت كلماته متناغمة
في أذنيها ، فأخذت تنشوة الطرب ، وودت ألا يسكت أبدا ،
وكانت حرارة العاطفة قد أذهلته عن وعيه نراح يقول :
- هذا هو الحب ، هو كل ما لنا . فيه الكفاية وفوق
الكفاية . هو في القرب السرور ، وفي البعد العزاء ، وفي الحياة
حياة فوق الحياة ..

وسكت لحظة متنهدا ، ثم استطرد :
- أسافر باسمه ، وبفضله أعود وقد ربحت كثيرا .
فتمتعت وهي لا تدري .
- كثيرا أن شاء الله ..
- بأذن الله ، وببركة الحسين . وسوف يحصلك جميع
أولئك الفتيات .
فابتسمت في سرور قائلة :
- آه .. ما أمتع هذا !

وانطوى الطريق وهما لا يشعران ، فضحكا معا في فرح ،
ثم دارا على عقيبهما ، وأحس في العودة أن اللقاء يقترب من
نهايته ، فعادته أفكار الوداع والفراق ، وخبت نشوته كثيرا ،
واعتوره الشجن ، وعند انتصاف الطريق سألها بلهفة :
- أين أودعك ؟

وأدركت ما يعنيه ، وقلقت شفثاها ، فقالت متسائلة :
- هنا ؟

ولكنه اعترض قائلا :

- ١١٦ -

- لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفا ..

- أين تريد إذا ؟

- اسبقيني على البيت وانتظريني على السلم ..

وحشت خطاها ، وسار هو متمهلا فبلغ الزقاق وقد اغلقت
دكاكينه ، واتجه نحو بيت الست سنية عفيفى لا يلوى على شيء .
وارتقى السلم محاذرا فى ظلمة دامسة ، كاتما أنفاسه ، يدا على
الدرابزين . وبدأ تتحسس الظلام . وعند « البسطة » الثانية
لمست أنامله طرف اللادة . فخفق قلبه باعثا الشوق الحبس فى
اطرافه ، وقبض على ذراعها ، واقترب منها فى رفق ، وأحاطها
بذراعيه ، ثم ضمها الى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون
مشوق ، وهوى اليها بفمه ، فوقع على أنفها ، ثم هبط على
شفتيها ، وكانتا منفرجتين لاستقباله ؛ وأخذته سنية من ذهول
الحب لم يستيقظ منها حتى تخلصت من ذراعيه بلطف ، ومضت
مصعدة وهو يمس ، وراها « مع السلامة » . لم يلبث بها الانفعال
بوما ما بلغه هذا المساء على السلم ، حيث فى دقبة قديمة حياة
طويلة منعمة بالاحساس والعاطفة والحرارة ، وحسبت أن
حياتها قد ارتبطت به الى الأبد .

وزار عباس الحلو أم حميدة ، تلك الليلة ، مودعا . ثم مضى
الى القهوة ومعه صديقه حسين كرشة لبضم آخر سهرة فيها
قبل سفره . وكان حسين يبدو مسرورا ظاهرا لانتصار رايه ،
وحمل يقول لصاحبه بصوته الذى يبه عن التحدى لسبب ولغير
ما سبب :

- رددع هذه الحياة القدرة واستمتع بالحياة الحقيقية ..

فابتسم الحلو صامتا ، وقد أخفى عن صاحبه الكتابة القابضة

على قلبه لفراق الزقاق الذى يحبه ، والفتاة التى يهيم بها ،
وجلس بين رفاقه يعانى أشواقه المكتومة ؛ ويتلقى كلمات التوديع
بوما تحمل من جميل الدعاء . وقد باركه السيد رضوان
الحسينى ، ودعا له طويلا ، وقال ناصحا :

— اقتصد ما يفيض عن حاجتك فى غربتك ، واحذر الاسراف
والخمر ولحم الخنزير ، ولا تنس أنك من المدق ، وأنك الى
المدق راجع ..

وقال له الدكتور بوشى ضاحكا :

— ستعود إلينا ان شاء الله من الموسرين ، ولا بد عند ذاك
من خلع أسنانك المسوسة هذه وتركيب طقم ذهبى يليق بالمقام .

فابتسم الحلو ، وكان يشعر نحو الدكتور بامتنان ، لانه
هو الذى أسفر بينه وبين أم حميدة ، ولانه هو ايضا الذى باع
له ادوات صالونه بثمان لا بأس به كى ينتفع به فى سفره . ولكن
عم كامل واجما ساهما ، يحز الفراق الوشيك فى فؤاده ،
ولا يدرى كيف يلقى غدا الوحشة والوحدة ، بعد أن يذهب
الشاب الذى شاطره العيش أعواما طويلة ، والذى أحبه كأنه
فلذة كبده . وكان كلما اثنى أحد على الحلو أو توجع لفراقه
اغرورقت عيناه حتى ضحكوا منه جميعا .

وقرا الشيخ درويش على رأسه آية الكرسي وقال له :

— أصبحت الآن من المتطوعين فى الجيوش البريطانية ، وإذا
أظهرت بسالة فليس بعيدا ان يقطعك ملك الإنجليز مملكة صغيرة
ينصبك عليها نائب ملك ، ومعناها بالانجليزية Viceroy
وتهجيتها Viceroy ..

وفى الصباح الباكر غادر الحلو البيت حاملا بقجة ثيابه . كان
الجو باردا شديدا الرطوبة ، ولم يكن أحد من أهل الزقاق
قد استيقظ الا الفرائة وسنقر صبي القهوة ، ورفع الشاب

- ١١٨ -

رأسه الى النافذة المحبوبة فوجدها مغلقة ، فودعها بنظرة عطف وحنان أذابت الطل على خصاصها . وسار متمهلا مطرقا حتى بلغ باب دكانه فالتقى عليه نظرة اخرى متنهدا . وعلق بصره بلافتة ثبتت على الباب قد كتب عليها بخط كبير « للايجار » ، فانقبض صدره واوشكت عيناه أن تدمعا ..
وحث خطاه كأنما ليفر من عواطفه ، فما ان ترك الزقاق وراء ظهره حتى شعر بأن قلبه يفارقه اليه ..

١٤

كان حسين كرشة الذي افترى عباس الحلو بالخدمة في الجيش البريطاني ، ولما أن سافر الشاب الى التل الكبير ، وخلا منه الزقاق - حتى دكانه اكتراه حلاق عجوز - جن حسين جنونا واجتاحته ثورة عنيفة تغور مقتا للزقاق واهله . أجل كان من زمن بعيد يعلن كراهيته للزقاق واهله ، ويتطلع لحياة جديدة ، ولكنه لم يستتب سبيله ، ولم يعزم عزيمة صادقة على تحقيق أحلامه ، حتى ذهب الحلو ، فجن جنونه ، وكانما كبر عليه أن يجدد الحلو حياته وينأى بنفسه عن الزقاق القدر ، وهو باق فيه لا يدرى كيف يتخلص منه ، فأجمع عزمه على تجديد حياته مهما كلفه الأمر ، وبمظاظته المعهودة قال لأمه يوما وقد امتلا بعزمه حتى فاض عنه :

- أصغى الى ، لقد عزمت عزما لا رجعة فيه ، فهذه الحياة لا تطاق ولا داعى مطلقا لتحملها قسرا !
وكانت المرأة آلفة سخطه ، معتادة سماع سياحه للزقاق واهله ، وكانت تراه - كآبيه - سفيها لا يصح ان تحفل بهذيانه ، فسكتت عنه وهى تغغم :

- ١١٩ -

- اللهم تب على من هذه الحياة !
ولكن حسين عاد يقول وقد تطاير الشرر من عينيه
الصغيرتين واربد وجهه الضارب للسواد :
- هذه الحياة لا تطاق . ولن احتملها بعد اليوم . .
ولم يكن في وسعها أن تلزم الصمت طويلا حيا ل هياج أحد ،
فنقد صبرها الرقيق ، وصاحت به بصوت دل على أن صوته
متوارث عنها :

- مالك ؟! مالك يا ابن اللثيم ؟
فقال الشاب بازدرأ :
- لا بد من هجر هذا الرقاق .
فحدجته بحلق ، وانتهرته قائلة :
- أجننت يا ابن المجنون !
فشبك ذراعيه على صدره وقال :
- بل ثبت الى رشدى بعد جنون طويل . افهمينى جيدا ،
فلست ألقى القول على عواهنه . ولكنى أعنى ما أقول ، ولقد
جمعت ثيابى فى البقعة ولم يبق الا ان أستودعك الله . بيت
قلدر ، زقاق نتن ، أناس بهائم !
وحدجته بنظرة متفحصة لتقرأ عينيه ، فخلها عزمه
المتوثب وصاحت به :

- ماذا تقول ؟
فعاد يقول وكأنه يخاطب نفسه :
- بيت قلدر ، زقاق نتن ، أناس بهائم .
فهزت رأسها ساخرة وقالت :
- مرحبا بك يا ابن الاماتل ، يا ابن كرشة باشا !
- كرشة قطران . كرشة المشبوه . اف اف ، ألم تعلمى
بأن قضيتنا زكمت الأنوف جميعا ؟! . يفمزوننى فى كل مكان .
يقولون هربت اخته مع واحد ، وسيهرب أبوه مع واحد آخر !

— ١٣٠ —

وضرب الأرض بقدمه حتى طقطع زجاج النافذة وسرخ غاضبا :-
— ماذا يضطرني الى البقاء في هذه الحياة ؟ سأحمل ثيابي
وأذهب الى غير رجعة .

وضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :-
— جنت والله . أورتك الحشاش جنونه . ولكني سأدعوه
ليردك الى عقلك .

فصاح حسين باستهانة :-
— ادعيه . نادي أبي ، نادي الحسين نفسه . انا ذاهب ..
ذاهب .. ذاهب ..

ولما وجدته المرأة جادا معاندا ، ذهبت الى حجرته فرات
البقعة منتفخة بالثياب كما قال ، فتولاها القنوط ، وصممت
على احضار ابيه مهما تكن العواقب . كان حسين عزاءها الوحيد
في حياتها ، ولم تكن تتصور أن يهجر البيت ويتركها كالوحيدة .
وكانت الى ذلك ترجو أن تستبقيه حتى بعد زواجه حين
يتزوج . فلم تستطع مغالبة قنوطها ، وارسلت في طلب ابيه وهي
تصيح نادبة حظها : « علام يحسدوننا ؟ » على خيبتنا القوية !
على فضائحنا ! على شقائنا « وجاء المعلم كرشة بعد قليل
مكشرا عن انيابه ، وانتهرها قائلا :

— ماذا تريدان ؟ فضيحة جديدة ؟ زبون جديد رايتني اقدم
له الشاي !

فقالت المرأة ملوحة بيدها كالنادبة :-
— فضيحة ابنك ! أدركه قبل أن يهجرنا ، فقد ضاق بنا
ذرعنا !

فضرب المعلم كفا بكف وقال وهو يهز رأسه مغيظا محنقا :-
— أمن أجل هذا أترك عملي يا هوه ! . أمن أجل هذا اصعد
مائة درجة ؟ أه يا اولاد الكلب ، لماذا تعاقب الحكومة على قتل
امثالكم !!

— ١٢١ —

وجعل يردد بصره بين الأم وابنها واستطرد قائلا :
— ربنا ابتلاني بكما ليقتص مني . ما هذا الذي تقول أمك؟
ولزم حسين الصمت . وراحت أمه تقول بهدوء ما وسعها
الصبر :

— هديء روعك يا معلم ، فهذه ساعة تحتاج لحكمتك
لا لغضبك . لقد جمع ثيابه في بقجته ، ونوى مغادرتنا . .
فسدد نحوه نظرة حقد وغضب ، وهو بين مصدق ومكذب ،
وقال كالمستأثر :

— جننت يا ابن القديمة ؟
وكانت اعصاب المرأة متوترة فلم تملك أن صاحت به :
— دعوك لتفعله لا لتشتمني . .
فالتفت نحوها غاضبا وهو يقول :
— أولا جنونك الموروث لما شب ابنك مجنونا . .
— الله يسامحك . انا مجنونة بنت مجانين فدعنا من هذا ،
واسأله عما خالط عقله ؟!
وحدهج ابنته بنظرة قاسية وسأله بصوت كالزئير وقد تنائر
بريقه :

— مالك لا تتكلم يا ابن القديمة ! . . هل تروم حقا مغادرتنا ؟
وكن الفتى يتحامي أباه عادة ، ولا يصطدم به إلا اذا شأقت
به السبل . ولكنه كان قد عزم عزما صادقا على نيل ما يشاء
مهما كلفه الأمر ، فلم يتردد ولم يتراجع ، خصوصا وأنه كان
يرى أن مسألة إقامته في البيت أو مغادرته من صميم حقه الذي
لا ينازعه فيه منازع ، فقال بهدوء وعزم معنا :
— نعم يا أبي . !
فسأله الرجل وهو يعاني خنائق غيظه :
— ولماذا ؟

— ١٢٢ —

فتفكر الشاب ثم قال :

— أريد أن أحيا حياة أخرى ..

فقبض الرجل على ذقنه . وهز راسه ساخرا وقال :

— فهمت .. فهمت . تريد حياة أخرى تناسب المقام ! لان
كلنا مثلك نشأ محروما جائعا ، يجن اذا امتلا جيبه ؛ وانت الآن
صاحب قرش انجليزي ، فمن الطبيعي ان نرث حياة اخرى ،
تليق بمقامك العالي يا قنصل الازر !
فكظم حسين غيظه وقال :

— لم اكن جائعا قط ، لاني نشت في بيتك . وبيتك لم
يعرف الجوع ابدا والحمد لله . وكل ما في الامر اني اريد ان اغير
حياتي ؛ وهذا حق لا مراء فيه . ولا داعي مطلقا لغضبك وسخطك .

ولم يفهم المعلم مراده . كان الشاب يتمتع بحرية مطلقة ، فلا
يسال عما يفعل ، فلماذا يريد ان يسئ لنفسه بيتا خاصا ؟ وكان
المعلم ، على رغم ما يقوم بينهما من اسباب الشقاق والملاحاة
والخصام ، يحبه ولكنه حب لم يظفر قط . بالجور الذي يستطيع
ان يتنفس فيه ، وغشيته دائما غواشي الغيظ والحقد والسباب ،
ولطالما نسي كثيرا انه يحب ابنه الوحيد . وحتى في هذه الساعة
والفتى ينلره بهجره غاب حبه واشفاقه تحت ستار الغضب
والحنق ، وتمثل له الامر تحديا وعراكا . ولذلك ساله في تهكم مرة
— تقودك في جيبك . تنفقها كما تشاء وينعم بها الخمارون
والخشاشون والقوادون ، هل سالناك مليما لا .
— ابدا .. ابدا . انا لا أشكو هذا مطلقا ..

فتساءل المعلم بنفس اللهجة المرة :

— امك الجشعة ذات العينين اللتين لا يشبعهما الا النراب ،
هل اخلت منك مليما ؟ .

فقطب حسين ضجرا وقال :

- ١٢٣ -

- قلت انى لا أشكو هذا . كل ما فى الأمر انى أريد حياة غير
 هذه الحياة ، ان كثيرين من زملائى يقطنون فى بيوت فيها الكهرباء !
 - الكهرباء !! أمن أجل الكهرباء تترك بيتك ؟! . الحمد لله
 على ان أمك بفنائحها قد جعلت بيتنا أحمى من الكهرباء ..
 وهنا خرجت المرأة عن صمتها مولولة :
 - مظلومة والله يا ربى ظلم الحسن والحسين ..
 واستدرك حسين قائلا :
 - ان زملائى جميعا يحيون حياة جديدة ، وقد انقلبوا جميعا
 جنتلمان كما يقول الانجليز .
 ففغر المعلم فاه ، فانفجرت شفاته الغليظتان عن أسنانه
 الذهبية وقال :
 - ماذا تقول :
 فلزم الفتى الصمت مقطبا ، واستدرك المعلم :
 - جلمان ؟! .. ما هذا ؟! .. صنف حشيش جديد ؟!
 فقال حسين متدمرا :
 - أعنى رجلا نظيفا ..!
 - ولكنك وسخ ، فكيف تريد ان تكون نظيفا .. يا جلمان !
 وضاق حسين بتهكم ابيه فقال منفعلا :
 - أبى . أريد ان احيا حياة جديدة ، هذا كل ما هنالك ،
 وسأزوج من بنت ناس !
 - بنت جلمان !
 - بنت ناس طيبين .
 - ولماذا لا تتزوج بنت كلب كما فعل أبوك ؟!
 فتأوهت أم حسين قائلة :
 - الله يرحمك يا أبى كنت فقيها وقورا .
 فالتفت نحوها بوجهه المربد وقال :

— ١٢٤ —

— فقيه ! .. كان قارئ قبور ، يتلو السورة بليمين ! —

فقال المرأة متوجعة :

— كان يحفظ كلام الله وكفى ... —

وتحول عنها المعلم واقترب خطوات فصار من ابنه على بعد ذراع ، وساله بصوت مخيف :

— حسبنا كلاما ، فليس لدى من وقت انسيه بين مجانين -
أريد حقا أن تترك هذا البيت ؟ ! .

فلم حسين اطراف شجاعته وقال باقتضاب :
— نعم .

فأدام المعلم النظر اليه مليا ، ثم ثارت ثائثرته بغتة ، فضربه براحته على وجهه ، ولم يستطع الفتى أن يتفادى الضربة العنيفة فتلقاها بحلق جنوني ، وابتعد عن الرجل وهو يصيح :

— لا تضربني ، لا تمسسنى ، لن ترانى بعد اليوم .

وهجم الرجل عليه فحالت دونه المرأة القانطة ، وتلقت لهكماته على صدرها ووجهها ، حتى كف الرجل وهو يصرخ :

— اغرب عنى بوجهك الأسود ! ولا تعد أبدا ، سأفرض.
انك مت واندلقت في الجحيم .

وجرى الفتى الى حجرته ، وتناول البقجة ، ونزل السلم وثبا ، وقطع الزقاق لا يلوى على شيء ، وقبل أن يعدل الى الصناديق بصق عليه ، وهتف بصوت مرتعش من الخلق :

— غر .. انجر ، لعنة الله عليك وعلى اهلك .

- ١٢٥ -

- ١٥ -

سمعت الست سنية عفيفى طرقا على الباب ، ففتحته ،
فراحت - فى فرح لا يوصف - وجه أم حميدة يطالعها بصفحته
المجدورة ، وهتفت من الأعماق :
- أهلا وسهلا بالحبيبة .

وتعالتنا عنقا حارا - أو هكذا بدا على الأقل - وقادتها الى
حجرة الاستقبال وهى تأمر الخادم بصنع القهوة ، وجلسنا على
كنبة متلاصقتين ، واستخرجت من علبة سيجارتين ، وجعلنا
تدخان فى انبساط وسرور . وكانت الست سنية تكابد الآم
الترقب والانتظار مد وعدت أم حميدة بالبحث لها عن زوج .
ومن عجب أنها صبرت على العزوبة أعواما طويلا ولكنها لم
تستطع مع فترة الانتظار - على قصرها - صبرا ، واعتادت فى
هذه الفترة أن تتردد على زيارة أم حميدة دون انقطاع طويل ،
والمرأة لا يخفى عليها من أمرها شيء ، وما انفكت تعدها وتمنحها ،
حتى أيقنت الست سنية أن المرأة تسوف وتماثل حتى تظفر
منها بأكبر نفع مرجو ، ومع ذلك كانت معها جوادة كريمة ،
فأعفتها من دفع ايجار الشقة ، وتنازلت لها عن عدد من
كوبونات الكيوسين ، ونصيبها من الأقمشة الشعبية ، غير
صينية بسبوسة كلفت عم كامل بصنعها لها . ثم أذنتها المرأة
بخطبة عباس الحلو لابنتها حميدة ! وتظاهرت الست سنية
بأسرور ، ولكن الخبر وقع من نفسها موقعا مقلقا ، وتساءلت
ترى هل تضطر الى المساهمة فى تجهيز الفتاة لعرسها قبل أن
تجهز نفسها ؟ ! هكذا تنازعها الخوف عن أم حميدة والتودد

أليها طوال فترة الانتظار . وقد جلست لصقتها تسترق اليها
النظر بين آونة وأخرى متسائلة عما عسى ان تتمخض عنه
ربانيتها هذه : وعود وامانى كالعادة ام البشرى التى يتلهف قلبها
عليها ؟! وراحت تدارى اضطرابها بشجون الحديث ، فكانت -
بلى غير المألوف - المحدثه وأم حميدة المنصتة . تكلمت عن
مضيحة المعلم كرشة ، ومفادرة ابنه حسين لبيته . وانتقدت
ام حسين فى تصرفاتها الغاضبة التى تحاول بها تقويم سلوك
نوجها الشاذ ، ثم تدرج الحديث الى عباس الحلو ، فانت عليه
فائلة :

- أنعم به من شاب طيب . سيفتح الله عليه ويرزقه ،
ويمكنه من تهيئة الحياة السعيدة لعروسه التى تستاهل كل خير .
وابتسمت ام حميدة عند ذاك وقالت :
- الشئ بالشئ يذكر . اعلمى انى حاضرة اليوم لأخطبك
يا عروس !

وخفق فؤادها بعنف ، وذكرت كيف حدثها قلبها بأن زيارة
اليوم خطيرة ، وبأن المرأة تطوى صدرها على سر تفسن به الى
-عين . وتورد وجهها ، وجرى فى عوده الدابل ماء شباب ،
واكتنها تماكنت نفسها وقالت فى حياء مصطنع :

- واخجلناه ! ماذا تقولين يا ست ام حميدة !
فقالت المرأة وقد افتر فغرها عن ابتسامة ظفر وارتياح :
- اقول انى حاضرة لأخطبك يا ست الناس !
- حقا يا له من امر خطير ! اجل اذكر ما تم الإنفاق عابه ،
ولكن لا يسعنى الا أن أضطرب ، وأن أخجل أيضا ، واخجلناه !
فجارتها ام حميدة فى تمثيلها وقالت محتجة :
- حاشا لله ان تخجلنى لغير ما عيب أو نقيصة ، ولكنك
تروحين على شرع الله وسنة الرسول . .

فتنهدت الست سنبه ، تنهد من يدفع الى التسليم على غير

— ١٢٧ —

ارادته ، وقد رن قول الأخرى لها : « ستتزوجين » رنينا حلوا
محبوبا في أذنيها . أما أم حميدة فقد أخذت نفسا طويلا عن
سيجارتها ، وهزت رأسها هزة الثقة والاطمئنان وقالت :
— موظف ..

ودهشت الست سنية ، ونظرت الى محدتها بعينين
لا تكادان تصدقان . موظف !! ان الموظف فاكهة مجرمة على زفان
المدق ، وتساءلت قائلة :
— موظف لا

— أى نعم موظف !

— فى الحكومة ؟ !

وسكتت أم حميدة هنيهة لتستمتع بظفرها ، ثم استطردت :
— فى الحكومة ، وفى قسم بوليس بالذات .. !

فازداد عجب الست وقالت متسائلة :

— وماذا يوجد فى القسم غير الضباط والعساكر ؟ !

فرمقتها المرأة بنظرة عارف لجاهل وقالت :

— يوجد موظفون أيضا . اسألينى أنا . أنا أعرف الحكومة

والوظائف والدرجات والعلاوات . هذه مهنتى يا ست !

فقال الست سنية بدهشة يخالطها سرور لا يصدور :

— هو أفندى اذا !!

— أفندى بستره وبنطلون وطرش وحذاء !

— الله يشرف قدرك يا ست أم حميدة .

— انى أختار الطيب للطيب ، وأعرف لكل انسان قدره .

ولو كان فى اقل من الدرجة التاسعة ما وقع اختيارى عليه ..

فتمتت الست سنية متسائلة :

— الدرجة التاسعة ؟

— ١٢٨ —

— الحكومة درجات . ولكل موظف درجة . والتاسعة احدى هذه الدرجات . ولكنها درجة ولا كل الدرجات يا حبيبتي !
فقالست الست وعينها تتألقان سرورا :
— دمت من صديقة محبة عزيزة !

فاستدركت أم حميدة تقول بصوتها الواشى بالظفر والثقة :
— يجلس الى مكتب كبير ، تتكدس عليه الملفات والأوراق للسقف ، والقهوة داخلة خارجة ، هذا يرجوه وهذا يساله . وهو ينهر هذا ويشتم ذلك ، العساكر تحييه . والضباط تحترمه ..
فابتسمت الست سنية ، ولاحت في عينيها نظرة أحلام ، وواصلت أم حميدة الحديث قائلة :

— مرتبه عشرة جنيهات لا تنقص مليما ..
وصدقتها الست سنية فهتفت قائلة :
— عشرة جنيهات !

فقالست المرأة ببساطة :

— هذا قليل من كثير ، وما مرتب الموظف الا بعض رزقه . وبالحلق والشطارة يستطيع أن يربح أضعافه ، ولا تنسى علاوة الغلاء ، وعلاوة الزواج ، ثم علاوة الأطفال ..
فضحكت الست ضحكة عصبية وصاحت :

— سامحك الله يا ست أم حميدة . مالى أنا والأطفال !
— ربك قادر على كل شيء ..
— نحمده ونشكر فضله على أى حال .
— أما عمره فثلاثون عاما ..
فصاحت الست فى انكار :

— رباه ! اكبره بعشرة أعوام !

ولم يخف على المرأة أنها تناست عشرة أعوام من عمرها ، ولكنها قالت فى لهجة تنم عن العتلب :

- ١٢٩ -

- لا زلت شابة يا ست سنية ! ومع ذلك فقد صارحته بانك
فى الأربعين ووافق سرورا ..

- ارضى حقا ؟ ما اسمه ؟

- احمد افندى طلبة من اهل الخرنفش ، وابن الحاج طلبة
عيسى صاحب القلة بأى الغلام ، أسرة طيبة شريفة تنحدر من
صلب سيدنا الحسين .

- أسرة طيبة حقا ، وأنا شريفة أيضا كما نعلمين يا ست
أم حميدة ..

- أعلم هذا يا حبيبتى . وهو لا يتحرى الا الأخلاق الطيبة ،
ولولا هذا لتزوج من عهد طويل ، ولكنه يردى بنات اليوم
وينقم عليهن قلة الحياء . ولما أن حدثته عن أخلاقك واحتشامك ،
وقلت له انك سيدة شريفة وصاحبة قرى ، سر سرورا لا مزيد
عليه وقال لى هذه طلبتى ، بيد أنه سألنى شيئا واحدا لا يخرج
عن حدود الأدب ، وهو أن يرى صورتك !

فتورد الوجه النحيل ، وقالت باشفاق :

- والله ما صورت منذ أمد بعيد ..

- اليس لديك صورة قديمة ؟

فاومات الست الى صورة على المنضدة وسط الحجرات دون
أن تنبس بكلمة . فانحنى المرأة قليلا وتناولتها بيدها ونظرت
فيها متفحصة . كانت صورة يرجع تاريخها الى ما قبل ستة
أعوام ، وكانت صاحبها وقتذاك على شيء من الإمتلاء والحياة ،
فرددت المرأة بصرها بين الصورة والأصل ، ثم قالت جازمة :
- طبق الأصل ، كأنها صورت بالأمس القريب .

فتهدج صوت المرأة وهى تقول :

- الله يحلى دنياك ..

زقاق المدق

— ١٣٠ —

واودعت جيبها الصورة باطارها . واشعلت سيجارة اخرى .
قدمت لها ، ثم بلهجة رزينة :

— ولقد تحدثنا طويلا فعرفت امورا عما في مرجوه ..

ولحظتها الست بنظرة حذر لاول مرة ، وانتظرت ان تواصل
حديثها فلما ان طال الصمت ، سالتها مبتسمة ابتسامة باهتة :
— ترى ماذا في مرجوه ؟

اتجهل حقا ام تظنه يريد الزواج منها حبا في سواد عينيها ؟
واغتاضت المرأة قليلا ، بيد انها قالت بهدوء وبصوت منخفض .
قليل :

— اظن ليس لديك مانع من اعداد جهازك بنفسك .. ؟
وفهمت الست سنية المقصود لاول وهلة ، فالرجل لا يريد
ان يدفع صداقا ، ويرغب ولا شك ان يترك لها وحدها عبء
الجهاز . ولم يكن ذلك ليغيب عنها من اول الامر ، منذ تملكها
الرغبة في الزواج . وسبق ان لمحت ام حميدة الى هذا في ثنايا
احاديثها فلم تفكر قط في الاعتراض عليها . فقالت بلهجة تنم
عن التسليم :

— ربنا المعين .

فابتسمت ام حميدة وقالت :

— نسال الله التوفيق والسعادة ..

ونهضت المرأة تريد الانصراف . فتعانقتا عناقا حارا .
وسارت الست في توديعها حتى الباب الخارجى ، ووقفت .
مرتفعة الدرابزين وام حميدة تنزل السلم الى شقتها ، وقبل
ان تغيب عن ناظرها هتفت بها :

— مع الف سلامة . قبلى عنى حميدة ..

ثم عادت الى حجرتها بقلب فتى ، ابتعث حرارته الامل الجديد .
وجلست تستعيد ما قالت ام حميدة جملة جملة وكلمة كلمة .

كانت الست سنية على شيء من الحرص ولكنه ليس الحرص الذى يقف عشرة فى سبيل سعادتها . أجل فطالما آتس المال وحدتها ، سواء ذلك الذى تحفظه فى صندوق التوفير أو هذا الذى تتملاه هزما جديدة بدیعة فى صندوقها العاجى ، ولكن لا هذا ولا ذلك يبعث عن الرجل الخطير الذى سيصبح باذن الله بعلا لها . ولكن هل تعجبه الصورة ؟ وتورد وجهها حتى احست بحرارة دمها تلفح جبينها . ونهضت الى المرأة تعاین صورتها ، وجعلت تحرك وجهها يمنة ويسرة حتى تراءى لعينها احسن الاوضاع فثبتته عليه ، وانعمت فى الصورة النظر ، ولاح فى وجهها شيء من الرضا ، وغمغمت برجاء «ربنا يستر» . ثم عادت الى جلستها وهى تقول : « المال يغطى العيوب » ألم تقل له المرأة انها صاحبة قرش ؟ وانها لذلك . وليست الخمسون بسن اليأس ؛ فلا يزال امامها عشرة احوام ، وكم من امرأة فى الستين تستطيع ان تتمتع بالسعادة اذا كفاها الله شر الامراض . والزواج كفيل برى العود الدابل ، وبعث الجسد الخامد ؛ هكذا سرحت مع افكارها الوردية حتى اعترض تيارها الصافى زبد متلبس ، فغطت فجأة ، وتساءلت مغيظة : ترى ماذا يقول الناس غدا ؟ آه . انها تعرفهم حق المعرفة ، وستكون ام حميدة نفسها فى طليعة المتقولين . سيقولون لقد جنت الست سنية ، ويقولون امرأة فى الخمسين تتزوج من ابن لها فى الثلاثين ، وسوف يتحدثون طويلا عن المال الذى يصلح ما افسد الدهر ، وربما قالوا غير هذا وذاك كثيرا . مما لا يخطر لها ببال . فليقولوا ما شاء لهم القول . وهل كانوا اعتقوها من شر الستين وهى أرملة ؟! وهزت الست كتفها استهانة . ثم دعت ربها من الاعماق قائلا :

— اللهم احفظنى من شر العين ..

ثم خطر لها خاطر سرعان ما رحبت به ، وصدقت نبئتها

- ١٣٢ -

على تنفيذه ، وهو ان تذهب الى الشيخة رباح بالباب الأخضر
تستقرئها الطالع ، وتستوهبها بعض الرقى ، فما أحوجها في
حالتها هذه الى حجاب مفيد أو بخور نافع .

- ١٦ -

- ماذا أرى ؟! انك لرجل وقور ! .
قال زبطة ذلك وهو يتفرس وجه رجل عجوز منتصب
القامة ، يمثل بين يديه في خضوع واستكانة . كان رث الجلباب ،
نحيل الجسد ، ولكنه ذو مظهر وقور كما قال صانع العاهات .
كبير الرأس أبيض الشعر ، مستطيل الوجه ، له عينان
هادئتان خاشعتان ، كأنه لوقاره وطول قامته وامتدالها من
رجال الجيش المتقاعدين . وراح زبطة يتفحصه بدهشة واناة على
ضوء المصباح الخافت ، ثم عاد يقول :
- انك لرجل وقور ، اترغب في امتهان الشحاذا حقا ؟!

فقال الرجل بصوت هادئ النبرات :
- انا شحاذا بالفعل ولكنى غير موفق ..

فتنحج زبطة ، ويصق على الأرض ، ومسح شفتيه بكم
جلبابه الأسود ، وقال :
- انك أرق من أن تحتل أى ضغط شديد على امضائك .
والحق انه لا يصح التقدم لاتخاذ عاهة كاذبة بعد العشرين ،
فالعاهة الكاذبة والصادقة سواء فيما تقتضيه من عناء ؟ وكلما
كان العظم طريا ضمن الشحاذا عاهة في حكم المستديمة حقا .
وانت شيخ كبير على عتبة الفناء ، فما عسى أن اصنع بك !
ومضى يفكر . وكان اذا اعتراه الفكر فغر فاه وأرعى لسانه

- ١٣٣ -

فلاح في فمه كراس أفعى . ثم ومضت عيناه البراقتان بغتة وصاح :

— الوقار أنفس عاهة !

فسأله الرجل متحيراً :

— ماذا تعنى يا أستاذ ؟

فانكفاً وجهه زينة غضباً وصاح به محتداً :

— أستاذ ! .. اسمعتنى أقرأ على القبور ؟

فدهم غضبه الرجل ، وبسط راحته مستعظفاً وقال بصوت منكسر :

— معاذ الله .. ما قصدت الا تبجيلك ..

فبصق زينة مرتين وقال منفعلاً في زهو وعجب :

— ان عملى ليعجز أعظم اطباء البلد لو حاولوه . الا تعلم أن

أحداث عاهة كاذبة أشق من أحداث عاهة حقيقية ألف مرة ؟ ..

ان عاهة حقيقية لا تستقصينى أكثر من أن أبصق على وجهك .

فقال الرجل بأدب جم :

— لا تؤاخذنى يا سيدى ، ان الله غفور رحيم ..

وسكت الغضب عن زينة ، وحجج الرجل بنظرة حادة ،

ثم قال بصوت لم تمح منه بعض آثار الحدة :

— قلت ان الوقار أنفس عاهة ..

— كيف يا سيدى ؟ !

— الوقار كفيف بأن يكتب لك النجاح كشحاذا نادر المثال .

— الوقار يا سيدى ؟ !

فمد زينة يده الى كوز على الرف ، واستخرج منه نصف

سيجارة ، ثم أعاده الى موضعه ، واشعلها من فوهة زجاجة

المصباح ، وأخذ نفساً طويلاً وهو يضيق عينيه البراقتين ،

وقال بهدوء :

- ليست العاهة بمطلبك . بل انت في حاجة الى مزيد من التحسين والتجميل . اغسل جلبابك جيدا ، واحصل باية طريقة على طربوش نصف عمر ، وامش بقامتك المعتدلة هذه في خشوع وادب ، واقترب في اشفاق من رواد المقاهى ، ثم قف في حياء ، ومد يدك في تالم دون أن تنبس بكلمة . وتكلم بعينيك ، الا تعرف لغة الأعين ؟ .. ستحديق فيك العيون بدهشة ، سيقولون عزيز قوم ذل ، ويقولون محال أن يكون هذا من أولئك الشحاذين المحترقين . أفهمت الآن ما أريد ؟ ستريح بوقارك أضعاف ما يربحه الآخرون بعاهااتهم ..

وامره أن يقوم بتجربة لدوره الجديد ، ووقف يراقبه مدخنا سيجارته وتفكر قليلا ثم قال مقطبا :

- ربما سولت لك نفسك أن تأكل أجرى بحجة انى لم اصنع لك عاهة تستحق الأجر ، وانت حر تفعل ما تشاء ، على شرط أن تولى وجهك وجهة غير حى الحسين العامر .

فتعوذ الرجل في انكار وقال متألما :

- حاشاى أن اخون صاحب الفضل على ..

وانتهت المقابلة عند ذلك ، فسار زينة بين يدي الرجل ليدله على الطريق ، ووصله حتى الباب الخارجى للعرن ، وفى أثناء عودته لاحظ أن المعلمة حسنية متربعة على حصيرة بمفردها ، وليس لجمدة من اثر ، وكان من عادته اذا التقى بها ان يخلق سببا لمبادلتها كلمة أو كلمتين ، توددا اليها ، وافصاحا عن أعجابه الكمين ، فقال لها :

- أرايت هذا الرجل ؟

فقال المعلمة حسنية بغير مبالاة :

- طالب عاهة ، اليس كذلك ؟

فضحك زينة وراح يقص عليها قصته ، والمرأة تضحك

وتلغنه على شيطنته ، ثم اتجه نحو الباب الخشبي القصير الذى
يؤدى الى ماواه ، وتردد على عتبة لحظة ثم سألها :

- اين جمعة ؟

فأجابته المرأة :

- فى الحمام ..

وظن الرجل لأول وهلة انها تسخر منه لقدارته المعروفة ..
فرمقها بحذر ولكنه وجدها جادة . فادرك ان جمعة قد ذهب.
حقا الى حمام الجمالية ، وهو ما يفعله مرتين فى العام ، وانه
لن يعود قبل منتصف الليل على وجه التقريب ، فحدثته نفسه
بان يجالس المعلمة قليلا ، متشجعا بما اثارته قصته فيها من
سرور ، وجلس على عتبة بابه مستندا الى مصراع الباب مادا
ساقيه كعمودين دقيقين من الفحم غير عابىء بما أحدثه جلوسه
من دهشة وانكار لاحت آياتهما فى عينيها . وكانت المرأة تعامله
كما يعامله بقية اهل الرقاق ، غير كلمات يتبادلانها فى ذهابه
او ايباه . بوصفها مالكة ماواه . ولم تكن تشك فى ان علاقته
بها تنقطع عند هذا الحد ، ولم يدر لها بخلد انه يطلع على الكثير
من دخائل حياتها ودقائقها ، ولكن مخلوقا كزينة لا يعدم ان
يجد منفذا فى الجدار بينه وبين القرن يطلع منه على ما يروى.
غلتة المتطفلة ، واحلامه البهيمية ، فصار وكأنه واحد من هذه
الأسرة ، يشهد عملها وراحتها ، ويلده بوجه خاص ان يرى
المعلمة وهى تكيل الضرب لبعلا لاقل هفوة . وما اكثر هفوات
جمعة التى يقع فيها كل يوم ويعاقب عليها كل يوم ، حتى
بات الضرب من غذائه اليومي ، يتلقاه تارة فى تصبر وتجلد ،
وتارة فى بكاء وصراخ وهواء . وهو لا يفتأ يحرق بعض الأرفة
فى اثناء خبزها ، أو يسرق البعض الآخر ليلتهم خفية فيما بين
الوجبات أو يتناع بسبوسة بنصف قرش من اجر الخبز الذى

— ١٣٦ —

يحصله من البيوت ، ولا يتورع عن ارتكاب هذه الجرائم يوما بعد يوم ، دون توفيق في طمس معالمها ، ولا قدرة على منع عقوباتها الصارمة ، وكان زينة يعجب لخنوع الرجل وجبنه وعته . وأعجب من هذا انه — زينة — كان يستقبحه ويهزأ بصورته ! كان جعدة طويل القامة لحد مفرط ، طويل الدرامين ، ممطوط الفك الأسفل ، غائر العينين ، غليظ الشفتين . ولطالما حقد عليه زينة تمتعه بهذه الزوجة الهائلة التي يرمقها بعين الإعجاب والرغبة ، ولذلك مقتته واحتقره ، وتمنى لو يستطيع قذفه داخل الفرن مع العجين والصواني . ولذلك أيضا سره أن يجد في غياب الحيوان فرصة ليجالس المعلمة قليلا ، فجلس . ومد ساقيه ، غير عابئ بما يحدثه جلوسه من دهشة وانكار . ولم تتردد المعلمة حسنية بجرائها المهددة أن سألته بجفاء بصوت غليظ :

— مالك جلست هكذا ؟

فقال زينة لنفسه : « اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا » ثم قال لها بلطف وتودد :

— أنا ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان ..
فقال بتقرز :

— ولماذا لا تنجحر وتريحني من وجهك ؟

فقال زينة برقة مبتسما عن أنيابه الوحشية :

— لا يمكن أن يقضى الإنسان حياته كلها بين الشحاذين والتأذورات والديدان ، ولا مفر من أن يتطلع لمنظر أبهج وأناس أفضل .

فانتهرته بمنف قائلة :

— يعنى لا مفر من أن يؤذى الناس بمنظره الكريه ورائحته الخبيثة !.. اف .. اف .. انجحر واغلق الباب وراءك !
فقال زينة بخبت :

— ١٣٧ —

— ومع ذلك فعسى أن يوجد مناظر افطع وروائح اخيبت ..
وأدركت المعلمة انه يلوح الى زوجها ، فاربد وجهها وقالت
بلهجة تنم عن الوعيد :

— ماذا تعنى يا اخا الديدان !؟

فقال الرجل ولم تكن تعوزه الجراة :

— اخونا الفاضل جعدة ..

فصاحت به بصوت مخيف :

— حذار يا ابن اللثيمة . لو بلغت يدى شطرتك اثنين ..

ولم يتعام الرجل عن الخطر المائل امامه فقال مستعظفا ::

— قلت انى ضيف يا معلمة ، والضيف لا يهان . ثم انى لم

اعرض بجعدة الا بعد أن ثبت لى ازدراؤك له ، وانهيالك عليه.
بالضرب لاتفه الاسباب .

— جعدة هذا ظفره برقبتهك .!

فقال زينة محتجا :

— ظفرك انت بالف رقبة كرقبتى ، أما جعدة ..

— احسب انك خير من جعدة !؟

فلاح الانزعاج فى وجه زينة وفغر فاه دهشة ، لا لانه

— فى حسبانه — خير من جعدة فحسب ، ولكن لانه كان يعتقد

أن مجرد مقارنته به سبة لا تغفر ، فاين هذا الحيوان الأعجم،

من شخص مقتدر مثله ، يعد بحق ملكا على دنيا برمتها ايا كانت

هذه الدنيا ؟ وسالها بدهوة :

— ماذا تزين انت يا معلمة ؟

فقالت حسنية بتحد وازدراء :

— ارى ان ظفره برقبتهك ..

— هذا الحيوان ..؟

فهمت بصوت فظ :

— هذا رجل ولا كل الرجال يا وجه العفريت ..
 — هذا المخلوق الذى تعاملينه كما تعامل الكلاب الضالة ؟
 وأدركت المرأة فى كلامه حنقا وغيرة ، فراقها ذلك على
 أنفعالها ، وعدلت عن ضربه بعد أن حدثتها نفسها به ، وراحت
 تقول كأنما لتضاعف حنقه وغيرته :
 — هذا شيء لا تفهمه ، وما أجدر أن تموت حسرة على
 الكلمة مما يصيبه ..

فقال زبطة حانقا :

— لعل الضرب شرف لا أدركه ..

— شرف لا تطمح اليه يا مشير الديدان .

وتفكر زبطة مليا ، ترى هل تطيب لها معاشرة هذا الحيوان
 حقا ؟! وقد طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، ولكنه كان يأبى
 أن يصدق هذا ، ان المرأة لا تملك أن تقول غير ما قالت ، ولكنها
 تبطن شيئا آخر بلا جدل . ورمق بنيانها الضخم المكتنز بين
 نارية فازداد اباه وعنادا . ونشط خياله بارعا مجنونا فصور له
 المستقبل فى ألوان زاهية . وأوحى له خلو المكان بتشييلات
 محمومة ، فلمعت عيناه المخيفتان . أما حسنية الفرانة فقد
 استلذت غيرته ، ولم يقلقها انفراده بها لعظيم ثقتها بقوتها ،
 فقالت فى تهكم :

— حتى أنت يا تراب الأرض .. استخرج جسمك من

التراب الذى يغطيه أولا ، ثم كلم الناس بعد ذلك .

ليست المرأة غاضبة . ولو كانت غاضبة حقا لما دارت
 غضبها ولصغته بوحشيتها ، انها تمازحه ولا شك ، فلا يجوز
 أن تغفل الفرصة من بين يديه . قال :

— أنت لا تفرقين يا معلمة بين التراب والتبر .

فقالت المرأة بتحد :

— هل تستطيع أن تنكر أنك طين ؟

— ١٣٩ —

فهز منكبيه استهانة وقال ببساطة :

— كلنا طين ..

فقالت المرأة ساخرة :

— خسئت ! انك طين على طين وقذارة على قذارة ، ولذلك لا عمل لك الا تشويه البشر ، كأنك تنبعث الى ذلك برغبة شيطانية في النزول بالبشر الى مستواك القذر .

فتضحك زينة وما يردد الا أملا ، وقال :

— ولكنى أحسن الناس ولا أقبحهم ، الا ترين أن الشحاذ بغير العاهة لا يساوى مليما ، حتى اذا ما صنعتها له ساوى ثقله ذهباً ؟! والرجل يقوم بشمنه لا بصورته . أما أخونا جعدة فلا ثمن ولا صورة ..

فزمجرت المرأة بصوت ملؤه الوعيد :

— أعود الى هذا الحديث مرة أخرى ؟

فتعامى عن وعيدها ، وتجاهل الموضوع الذى طرقة متعمداً ، وتخطاه قائلاً :

— ومع ذلك فجميع زبائنى من الشحاذين المحترفين ؛ فماذا تريدننى على أن أفعل بهم ؟ .. أكنت تريدن أن أحليهم وأزينهم وأسرحهم فى الطرقات لفواية المحسنين ؟! — يا لك من شيطان ! لسان شيطان ، وصورة شيطان .

فتنهذ بصوت مسموع ، وقال باستكائة المستعطف :

— كنت مع ذلك ملكاً فى يوم ما ..

فهزت رأسها متسائلة فى سخرية :

— ملكها من الأسىاد والغفاريت ؟

فقال بلهجة الاستكائة والاستعطف نفسها :

— بل من البشر أنفسهم . وأى واحد منا تستقبله الدنيا

كملك من الملوك ، ثم يصير بعد ذلك ما يشاء له نحسه . وهذا

- ١٤٠ -

خداع حكيم من الحياة ، والا فلو انها افصححت لنا عما فى ضميرها
مئذ اللحظة الاولى لاينا ان نفارق الارحام .. !

- ما شاء الله يا ابن الدائخة !

فاستدرك زبطة فى حماسة وسرور :

- وهكذا كنت يوما ما مولودا سعيدا تلقفته الايدي

بالسرور ، وحاطته بالعناية والرحمة ، فهل نشكين بعد ذلك انى
كنت ملكا ؟

- ابدا يا مولانا ..

واسكرته حرارة الحديث ولذة الأمل ، فمضى قائلا :

- وكان مولدى يمنا وبركة ايضا . ذلك ان والدئ كانا

شحاذين محترفين ، وكانا يكتريان طفلا تحمله امى فى اثناء

تجوالهما ، فلما ان رزقهما الله بى اغناهما من اطفال الناس ،

وفرحا بى فرحا عظيما .

فلم تملك حسنية ان ضحكت ضحكة مجلجلة . فازداد

حماسة وحرارة ، وقال مواصلا حديثه :

- آه من ذكريات طفولتى السعيدة ؛ لا زلت اذكر مستراحي

من الطوار . كنت اذحف على اربع حتى ابلغ حافة الطوار المطلة

على الطريق ؛ وكانت توجد تحت المكان المختار ثغرة فى الارض

يركد فيها ماء من مطر أو رش أو دابة ، يتكتل الطين فى قعرها ،

وعلى سطحها يغنى الدباب ، وعلى شطآنها تتجمع نفاضة

الطريق . منظر ساحر يأخذ بالالباب . ماؤها مطين ، وساحلها

زباله متعددة ألوانها : قشر طماطم ونفاية مقدونس وتراب

وطين ، والدباب يحوم حولها ويقع عليها ، فكنت ارفع جفنى

المثقلين بالدباب ، واسرح طرفى فى ذاك المصيف الطروب ، والدنيا

لا تسعنى فرحا .

فهتفت المعلمة ساخرة :

- يا بختك .. يا حظك ..

- ١٤١ -

ولده سرورها واقبالها على حديثه . فقال متشجعا .
 - هذا سر ولعى بما يسمونه ظلما بالقاذورات ، والانسان
 خليق بأن يآلف أى شىء مهما شذ وغرب ، ولذلك اخاف عليك
 أن تألفى ذلك الحيوان .

- أعود أيضا الى هذا ؟ .

فقال وفد أعمته الشهوة وأصمته :

- طبعا . لا قبل لانسان باغفال الحق ..

- الظاهر أنك زهدت فى الدنيا ..

- لقد ذقت الرحمة مرة كما قلت لك فى المهد .

ثم أوما بيده الى المزبلة التى يسكنها واستدرك :

- وقلبي يحدثنى بأن لى حظا أن أذوقها مرة أخرى فى
 مأوى هذا .

وأوما براسه الى الداخل كأنه يقول لها : « هلمى » فتميزت

المرأة غيظا ، واحتقتها جرائه ، فصاحت فى وجهه :

- حذار يا ابن الشيطان .

فقال بصوت متهدج :

- كيف لابن الشيطان أن يحذر غواية أبيه ؟

- واذا هشمت عظمك ؟

- من يعلم .. ربما أستلذ ذلك أيضا ..

ونفض الرجل بفتة ، وتراجع قليلا متقهقرا ؛ كان يظن انه
 بلغ مناه ، وان المعلمة أصبحت طوع يمينه ، وقد تلبسته حال
 جنونية جعلته ينتفض انتفاضا ، وثبتت عيناه على عيني المرأة
 فى ذهول وبهيمية . ثم مد يديه بفتة الى طرف جلبابه وخلعه
 بسرعة فائقة ، وتجرد عاريا . وبهتت المعلمة لحظات ، ثم امتدت
 يدها الى كوز غير بعيد ، وقذفته بسرعة وقوة ، فأصاب بطنه ،
 وندت عنه آهة كالخوار ، وسقط يتلوى ..

كان السيد سليم علوان جالسا كعادته الى مكتبه بالوكالة حين جاءت أم حميدة لابتياح بعض اللوازم . وكان الرجل يستقبلها اذا جاءته بلطف ، ولكنه لم يقنع هذه المرة بذلك ، فدعاها الى الجلوس على كرسى قريب منه وكلف أحد العمال باستحضار ما تريد من ألوان العطارة . ونال هذا العطف من أم حميدة فلهجت بشكره والدعاء له . والحق أن هذا العطف لم يكن ارتجالا ، ولكن السيد كلن قد نوى أمرا لا رجوع فيه ، لأنه من العسير أن يعيش الانسان موزع النفس مضطرب الإرادة لا يقر له قرار . وقد ساء كثيرا أن يرى سماء حياته غائمة بالمشكلات المعلقة التي تستوجب الحلول ثم لا يجد الإرادة التي تحلها . فهو لأ الأبناء لا يخفى عليه قلقهم ، وهذه الأموال المقدسة لا يدري متى يتاح له استغلالها خصوصا وقد أرجف المرجفون باحتمال هبوط قيمتها النقدية بعد الحرب ، ورتبة البيكوية كلما ظن أنه حسم أمرها وانتهى منه عادت تلح عليه كأنها دمل كامن ، وعلاقته بزوجه وهمه الناشئ من ذبول شبابها ونضوب حيويتها ، وأخيرا - وليس آخرا - هذه العاطفة التي يعانيتها ويلقى من اضطرامها ما يلقي من أشواق وآلام . لبث بين هذه الهموم متحيرا ، ثم رأى أن يفض أحداها بعزم ورغبة ، ولكنه انساق في الاختيار مع هواه وهو لا يدري ، فارتأى أن يسكن هذه العاطفة الغشوم ، وتركز اهتمامه في ذلك ، حتى لكانه بالانتهاء منها إنما ينتهى من همومه جميعا . ولكنه لم يكن بالغافل عن العواقب ، ولم يكن ليغيب عنه أنه بصدد مشكلة يعقب فضها

المزعوم مشكلات جديدة لاتقل خطرا عن سابقتها . ولكنه الهوى . لقد غلبه الهوى على أمره ، وتسرب الى أعماق نفسه فتشبع به جذور تفكيره وارادته ، وهانت عليه الصعاب التي كانت تعترض أحلامه ، وقال لنفسه متبرما : « لقد انتهت زوجتى كامراة ، ولست من الرجال الذين ينزلون الى الفسق فى مثل هذه السن ، ولا داعى مطلقا للرضا بالعذاب والغم . لقد يسر الله لنا فلماذا نعرى على أنفسنا ؟! » وهكذا انتهى الى رأى لا عدول عنه ، وأجمع على تحقيق رغبته . ولذلك دعا أم حميدة الى الجلوس على كئب منه معتزما مفاتحتها بالأمر الخطير . ولبت السيد متخوفا من الكلام قليلا ، لا لأن ترددا ساوره ، ولكن لأنه لم يكن من اليسير أن ينزل عن مرتبته العالية دفعة واحدة ويخط نفسه بامراة كأم حميدة . وتصادف فى تلك اللحظة أن دخل عامل حاملا صينية الفريك المشهورة ، فرأتها أم حميدة وجرت على شفيتها شبه ابتسامة لم تفتحه ملاحظتها ، واهتبل هذه الفرصة ورأى أن يجعلها فاتحة حديثه ، وناسى تزمته ووقاره وقال لها بلهجة تنم عن السخط :

— لكم تكدرنى هذه الصينية !

وخافت أم حميدة أن يكون قد رأى ابتسامتها فقالت بعجلة:

— لماذا كفا الله الشر ؟

فقال السيد باللهجة نفسها :

— لكم تحدث لى من متاعب ..

فتساءلت المرأة وهى لا تدرى ما يعنيه :

— لماذا يا سيدنا البيك ؟

فقال السيد سليم بهدوء متشجعا بأنه يحدث خاطبة :

— لا يرضى عنها الطرف الآخر ..

فدهشت أم حميدة ، وذكرت كيف تحلب ريق أهل الرقاق

يوما على قطعة من هذه الصينية ، وها هى ذى امرأة زاهدة

— ١٤٤ —

لا ترضى عنها ! وقالت المرأة لنفسها : « يعطى الخلق لمن ليس له
اذنان » . ثم غمغمت مبتسمة ، وبلا حياء :
— هذا شيء عجيب !!

فهز السيد رأسه متأسفا . وكانت زوجه لا ترحب بالصينية
من بادىء الأمر وهى بعد شابة فى ريعان الشباب . كانت ذات
فطرة سليمة تنفر من الشذوذ عن الطبيعة ، ولكنها تحملت ماكانت
تعده ارهاقا اكراما لزوجها النهم ، واشفاقا من تكدير صفوه .
ومع ذلك لم تتردد عن نصحه بالعدول عن امر فى المداومة عليه
خطر وأى خطر على صحته . ولما ان تقدم بها العمر قل صبرها ،
وتضاعف احساسها بالامر ، وبدا تدمرها صريحا ، حتى كانت
تهجر بيت الزوجية الى بيوت ابنائها ، زيارة فى الظاهر وهربا فى
الحقيقة . وضاق بها السيد ذرعا ، ورمأها بالبرود والنضوب ،
وتكدر صفوها ، وتنقص عيشهما ، دون ان يعدل عن هواه ،
أو يعطف على ضعفها الملموس . وقد اتخذ نشوزها — هكذا
دعاه — حجة له فى هواه وفيما يرتاد من حياة زوجية جديدة !.

هز السيد رأسه متأسفا وقال بلفة لا يخفى مرمأها عن مثل
أم حميدة :

— لقد اندرستها بالزواج من اخرى . وانى لفاعل باذن الله . .

ونار اهتمام المرأة ، وتحركت غريزة العمل فى باطنها ،
وحدجته بنظرة التاجر الى زبون نادر الوجود ، ولكنها فالت
بشيء من الارتياح :

— لهذا الحد يا سى السيد ؟!

فقال الرجل باهتمام جدى :

— لقد انتظرتك طويلا ، وكنت على وشك ان ارسل فى
طلبك . فما رأيك ؟

فتنهلت المرأة وقد غلبها سرور لا يوصف . وقد قالت فيمها

بعد أنها ذهبت تبتاع حناء فعثرت على كنز . ثم نظرت اليه مبتسمة وقالت :

- يا سى السيد : انت رجل قد الدنيا ، ومثلك فى الرجال قليل ، ويأخذ من تكون نصيبك ، وأنا رهن اشارتك ، فعندى البكر والثيب ، والشابة والنصف ، الغنية والفقيرة ، اختر ما تشاء ..

وفتل السيد شاربيه الغليظين ، واعتراه شيء من الارتباك قليلا ، ثم مال نحوها ، وقال بصوت منخفض ، وعلى فمه ابتسامة :

- لا داعى للبحث والتعب ان من أريد فى بيتك انت !

وانسعت عينا المرأة دهشة وتمتمت بلا وعى :
- فى بيتى انا !!

فقال السيد وقد سرته دهشة المرأة :

- أجل فى بيتك انت دون سواك . ومن لحكم ودمك .
أعنى كريمتك حميدة .. !

ولم تصدق المرأة أذنيها ، وتولاها الدهول . أجل كانت تعلم - من طريق حميدة نفسها - ان السيد يتبعها أينما ذهبت عينيّن براقتين ، ولكن الإعجاب شيء والزواج شيء آخر . فمن عسى أن يصدق أن السيد سليم علوان صاحب الوكالة يطلب يد حميدة ؟ .. وقالت المرأة بصوت مضطرب :

- لسنّا قد المقام يا سى السيد !

فقال الرجل برقة :

- انك سيّدة طيبة ، وقد أعجبتنى كريمتك وكفى ، الا يكون الناس أهلا للخير الا اذا كانوا أغنياء ؟ وما حاجتى للمال وعندى منه ما فوق الكفاية !.

وأصغت اليه والدهشة لا تفارقها . ثم ذكرت فجأة أمرا

— ١٤٦ —

غاب عنها حتى هذه اللحظة . ذكرت أن حميدة مخطوبة ، وقد نددت عنها « آهة » كالمنزعجة ، حلت السيد على أن يسألها قائلاً :
— مالك ! .

فقالت المرأة باضطراب :

— رباه ، نسيت يا سى السيد أن أقول لك أن حميدة مخطوبة ! خطبها عباس الحلو قبل سفره الى التل الكبير . . !

فانكفا وجه الرجل ، واصفر وجهه غضباً ، وقال بحدة وكأنه ينطق باسم حشرة قدرة :

— عباس الحلو . . !

فقالت المرأة بمجلة ولهوجة :

— رباه لقد قرأنا الفاتحة .

فقطب السيد سليم قائلاً فى غضب وازدراء :

— ذاك الخلاق الشحاذ . .

فقالت أم حميدة كالمعتدرة :

— قال أنه سيشتغل فى الجيش ، ليجمع ثروة . وسافر بعد أن قرأنا الفاتحة . .

وازداد غضب السيد لانزلاقه بغتة — مع الحلو — الى مضمار واحد ، وقال بحدة :

— ابحسب هذا الاحمق أن الجيش نعيم يدوم ! ولكنى اعجب لما جعلك تذكرين هذه « الحكاية » !
فقالت المرأة معتدرة :

— لقد ذكرتها فجأة ، هذا كل ما فى الأمر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، ولذلك لم تكن لدى حيلة فى رفض يده ! لا تؤاخذنى يا سى السيد . ان مثلك اذا طلب امر . ما كنا نحلم بهذا الشرف الرفيع ، فلا تؤاخذنى . ساذهب الآن واعود اليك فى الحال . لا تغضب على ، لماذا غضبت هكذا ؟

— ١٤٧ —

ويسط السيد وجهه ، وذكر أنه غضب حقا أكثر مما ينبغي،
كأنما الحلو هو المعتدى لا المعتدى عليه ، ولكنه قال :

— الا يحق لى أن اغضب ؟

ثم توقف بغتة كأنه تذكر أمرا اربد له وجهه وسألها منزعجا:
— وهل وافقت الغتاة ؟ أعنى هل تريده ؟

فقال المرأة بسرعة :

— لا شأن لابنتى بهذا الامر ! وما حدث لا يعدو أن جاعنى
الحلو يوما مصحوبا بعم كامل ثم قرأنا الفاتحة .

فقال السيد :

— غريب والله امر هؤلاء الشبان ! لا يكاد يجد الواحد منهم
لقيمته ، ولكنه لا يجد بأسا من أن يتزوج ويخلف ويزحم الحارة
اولادا يلتقطون رزقهم من الزبالة . لننس هذه الحكاية .

— نعم الراى يا سى السيد . . سأذهب الآن ، وسأعود دون
إبطاء ، وربنا المستعان .

ونفضت المرأة واقفة ، وانحنى على يده مسلمة ، ثم تناولت
لفافة الحناء . وكان العامل قد وضعها على المكتب ، ومضت الى
حال سبيلها . .

ولبت السيد متغيرا ، متجهم الوجه ، تنطق نظرة عينيه الحادة
بالنرفزة والغضب . أولى الخطا عثار !. حلاق قلر لا يساوى
مليما . ومع ذلك فهو يزحمه فى حلبة واحدة . وبسقى على الأرض
بازدراء كأنما البسقة هى الحلو نفسه . وخال أنه يسمع طنين
المرجفين اذ يخوضون فى هذا الامر بما يحلو لهم من تهكم وسخرية،
ستقول زوجه انه خطف ابنة ماشطة من صالون حلاق بالمدق !.
أجل ستقول زوجه وتعيد ، وسيقول الناس ويتفننون فى القول ،
وسيتناهى ذلك كله الى ابنائه وبناته وأصدقائه وأعدائه . تفكر
فى ذلك جميعه ، بيد أن التراجع لم يخطر له ببال ، فقد انتهت

- ١٤٨ -

المعركة قبل اليوم ، ومد يده بالفعل ، وتوكل على الله . ومضى
يفتل شاربه باناة ، ويهز رأسه استهانة ، وقد ملكت الرغبة
الجامحة عليه نفسه ، وهونت عليه القيل والقال . وهل كف
الناس عنه السنتهم من قبل ؟. ألم يجعلوا من صينية الفريك
أسطورة يتناقلونها ؟. فليقولوا ما بدا لهم ، وليفعل ما بدا له ،
وسيفضل بلا ريب سيد الجميع الذى يشق سبيله بين هامات
متظامنة . اما أسرته فثروته كفيلة بارضاء أفرادها جميعا ،
ولن يسلبهم زواجه الجديد اكثر مما كانت تسلبهم اياه ربة
البكوية فيما لو سعى اليها ، وانفثا غضبه ، وانبسطت اساريه ،
وارتاح الى تفكيره ارتياحا عظيما . ينبغي ان يذكر دائما انه
انسان من لحم ودم . والا اغفل حق نفسه ، وقدمها لقمة سائغة
للهوم تزدريها . ما جدوى ثروته الطائلة اذا ذهبت نفسه
حسرات على رغبة تحقيقها بيده ؟! او ترك قلبه يحترق بالشوق
الى جسد بشرى رهن إشارة منه ؟!

- ١٨ -

ومضت أم حميدة مهرولة الى شقتها . وفي هذا الشوط
القصر - ما بين الوكالة والشقة - ثمل خيالها بأحلام عراض .
ووجدت حميدة واقفة وسط الحجرة تمسك شعرها ، فتفحصتها
بعينين ثاقبتين كأنها تراها لأول مرة ، او كأنها تعاين الانى التى
خبلت رجلا له وقار السيد سليم علوان وسنه ونروته . ووجدت
المرأة عاطفة تشبه الحسد . كانت تؤمن بلا شك بأن كل قرش
يجلبه هذا الزواج المرتقب للفتاة سيكون لها نصفه ، وان كل نعيم

— ١٤٩ —

ستدوقه ستحظى هى بنصيبها الموفور منه ، ومع ذلك لم تخل
من هذا الاحساس الغريب الذى خالط سرورها وأطماعها !
وقالت لنفسها : « أكان القدر حقاً يدخر هاهـ السعادة لهذه
الفتاة التى لا تعرف لنفسها أباً ولا أمّاً ! » وتساءلت فى عجب :
« ألم يسمع السيد صوتها الخفيف وهى تزمق فى وجوه الجيران ؟
ألم يشهد معركة من معاركها ؟ يا ويل الرجال من لحم النساء ! »
ثم قالت لها دون أن تحول عنها عينيها :
— مولودة فى ليلة القدر والحسين !

فأمسكت حميدة من تمشيط شعرها الأسود اللامع ،
وسألتها ضاحكة :

— له ؟. ماذا ورايك ؟. هل من جديد ؟

فخلعت المرأة ملابعتها وطرحتها على الكنبه ، ثم قالت بهدوء
وهى تتفرس وجهها لتمتحن اثر كلامها فيه :
— عروس جديد !

فلاح فى العينين السوداوين اهتمام ويقظة تخالطهما دهشة ،
وتساءلت الفتاة :

— اتقولين حقاً ؟

— عروس كبير المقام يتمتع عن الأحلام يا بنت الكلب ..

فخفق قلب حميدة بقوة ، وثألت عيناها حتى بدا حورهما
ساطعا وتساءلت :

— من عساه يكون ؟

— خمنى !

فتساءلت الفتاة بلهفة وإن ساورتها الظنون :

— من ؟

فقالت أم حميدة وهى تهز رأسها وترعش حاجبيها :

— السيد سليم علوان ، على « سن ورمح » !

- ١٥٠ -

فشدت قبضتها على المشط حتى كادت تنغل أسنانه في راحتها ، وهتفت :

- سليم علوان صاحب الوكالة ؟

- صاحب الوكالة . وصاحب الاموال التي لا يفنيها المحيط ؟

فأضاء وجه الفتاة نورا ، وغمضت وهي لا تدري من الدهشة والسرور :

- يا خير أسود !

- يا خير أبيض ، يا خير مثل اللبن والقشدة . لم أكن لأصدق لولا أنه حادنى بنفسه .

وغرزت الفتاة المشط في شعرها ، وهرعت الى أمها وارتعت الى جانبها ، وسألته وهي تشد على كتفها :

- ماذا قال لك ؟ خبريني بكل ما قال . كلمة كلمة .

وانصت الى المرأة بانتباه عميق وهي تروى قصتها . وخفق قلبها خفقانا متواصلا ، وتورد وجهها ، وتألقت عينها بشرا وسرورا . هذه هي الثروة التي تحلم بها ، هذا هو الجاه الذي تهيم به . وانها من حب الجاه لفى مرض ، وان الشغف بالقوة لغريزة جائعة في باطنها ، فهل يتاح لها شفاء او ارتواء الا بالثروة؟! لم تكن تدري دواء لهذا التشوف الاليم يضطرم في أعماقها الا الثراء الكبير ، فهو الجاه العريض ، وهو القوة الشاملة ، وهو بالتالى السعادة الكاملة . كانت في سرورها المبالغت كمحارب أعزل عثرت يده بسلاح مصادفة في أشد المواقف حرجا . كانت كطائر مقصوص الجناحين يسف في يأس وقنوط على رغم محاولاته الفاشلة ثم ينبت له ريش بمعجزة تدق على الأنفام فيبدله من محاولاته الفاشلة تحليقا يسمو به الى قنن الجبال ، وكانت أمها تنظر اليها بلحظ خفى فسألته :

- ماذا تريد ؟

- ١٥١ -

لم تدر أم حميدة ماذا تقول ، ولكنها كانت مشمرة للمعارضة
يا كان رأى الفتاة ، فإذا قالت السيد قالت والخلو ؟ ، وإذا قالت
الخلو قالت أو نفرط في السيد ؟ . أما حميدة فقالت بانكار شديد :
- ماذا أرى ؟ !

- أجل ماذا ترين ، فليس الأمر مما يسهل الفصل فيه ،
انسيت أنك مخطوبة ؟ ! . واني قرأت الفاتحة مع الخلو ؟

فلاححت في عيني الفتاة نظرة حادة غشت جمالها ، وقالت في
انزعاج وازدراء :
- الخلو ! !

وعجبت أمها لسرعتها الفائقة في البيت في مثل هذا الأمر
الخطير ، وكان الخلو لم يكن قط ، وعاودها شعورها القديم بأن
ابنتها فتاة شاذة مخيفة ، والحق أن المرأة لم يداخلها شك جدى
في النهاية المحتومة ، ولكنها كانت تريد أن تبلفها بعد لاي .
كانت ترغب أن تتردد الفتاة فتتطوع هى الى اقناعها بالقبول ،
لا أن تلفظ اسم الخلو بمثل هذا الازدراء الغريب . واستدركت
تقول بلهجة منم من الانتقاد :

- أجل الخلو ، انسيت انه خطيبك ؟ !

كلا لم تنس ، ولكن سيان التذكر والنسيان ، ترى هل
تعارض أمها حقا ؟ . وحدجتها بنظرة نافذة ، فأيقنت أنها
كاذبة في انتقادها ، وهزت منكبيها استهانة ، وقالت باستخفاف
واحتقار :

- ذبحة . .

- ماذا يقول الناس هنا ؟

- دعيهم يقولون ما بدا لهم . .

- سأستشير السيد رضوان الحسينى .

فجفلت الفتاة من هذا الاسم وامترضت قائلة :

— ما شأنه في أمر يخصنى وحدى ؟
— نحن أسرة لا رجل لها ، فهو رجلنا .

ولم تطق المرأة انتظارا فنهضت واقفة ، وثلغمت بملأها ، وغادرت الحجرة وهى تقول : « سأشاوره وأعود توا » . وشيعتها الفتاة بنظرة غيظ ، ثم تنبعت الى أنها لم تتم تمشيط شعرها ، فمضت تمشطه بحركات آلية وعيناها شاخصتان الى دنيا الأحلام الزاهرة . ثم نهضت دالقة من النافذة وجعلت تنظر خلال خصاصها الى الوكالة الكبرى ساعة ، وعادت الى جلستها .

لم يكن تحولها من عباس الحلو بغير تمهيد كما ظنت امها ، اجل لقد حسبت حيناً انها وصلت — راضية — أسبابها بأسبابه الى الأبد ، فمنحته شفقتها بما أوتى من شغف وحب ، وجاذبته حديث المستقبل كأنه مستقبلهما معا ، ووعدته أن تزور الحسين لتدعو له ، وزارته بالفعل ودعت له — ولم تكن تزوره الا لتستدعيه على صدوة عقب شجار — وانتظرت على أمل أن تظفر بهذه السعادة المرموقة ، وفضلا عن ذلك فقد رفعها الحلو من مجرد بنت الى فتاة مخطوبة ، فلم يعد في وسع أم حسين أن تمسك بسوالفها وتقول لها شامته : « احلق هذا لو خطبك انسان » . بيد انها كانت تنام على فوهة بركان . ولم تذل من بادىء الأمر الطمأنينة الكاملة . وجدت في النفس شيئا يضطرب يرتد متنفسا ، حقا لوح عباس الحلو لطموحها العنيف ببعض الزاد ، ولكن الحلو نفسه ليس بالرجل الذى تريد ، ولقد حيرها أمره منذ أول لقاء . ولم تكن تدرى كيف يكون رجلها على وجه التحقيق ، ولكن الحلو لم يقبض على ملاك قلبها على أية حال . ومع ذلك فلم تستسلم لمخاوفها بغير مقاومة ، فجعلت تقول لعل المعاشرة تهيب لها حياة لم تكن تحلم بها قط . ثم لم تكف عن التفكير ، والتفكير فضيلة ذات حدين ، فتساءلت : ترى ما هذه السعادة التى يمنيها بها ؟

الا تكون مغالية في احلامها ؟ يقول الفتى انه سيعود بثروة وانه سيفتح صالونا في الموسيقى ، ولكن هل يضمن لها هذا حياة أرغد من حياتها الراهنة ؟ وهل هذا حقا ما تطمح اليه نفسها المجنونة ؟؟ وضاعف هذا التفكير من حيرتها ، وقوى شعورها بأن الشاب ليس رجلها المرموق ، وبالث تدرك أن نفورها منه أشد من أن تطفه المعاشرة . ولكن ما عسى أن تفعل ؟ ألم ترتبط به الى الأبد .. رباه ، لماذا لم تتعلم حرفة كأولئك الفتيات من صويحباتها ؟ أما لو كانت صاحبة حرفة لأمكنها أن تنتظر حتى تتزوج كما تشاء ، أو لما تزوجت على الإطلاق ! وأحدث حماسها تفتر ، وشعورها يخمد ، وعادت الى ما كانت عليه قبل أن تهزها المقابلات وتفرها الآمال . هكذا كانت حين طلب السيد سليم يدها ، وهكذا نبذت خطيبها الأول بغير تردد ، ولكن بعد أن كانت نبذته في قلبها منذ أمد طويل ..

ولم يطل المطال بغياب الأم ، فعادت من بيت السيد رضوان بوجه تلوح فيه امارات الجذ ، وقالت وهى تخلع ملاءتها :
- لم يوافق السيد أبدا ..

ثم قصت عليها ما دار بينها وبين السيد رضوان ، وكيف قال لها وهو بصدد المقارنة بين الرجلين : ان الحلو شاب والسيد سليم شيخ ، وأن الحلو من طبقتها والسيد من طبقة أخرى ، وأن زواج رجل كالسيد من فتاة مثل ابنتها لا بد محدث متاعب ومشكلات لا يبعد أن يصيب الفتاة بعض رشاشه . وكيف ختم حديثه بقوله : « الحلو شاب طيب وقد هاجر في سبيل الرزق طامحا لهذا الزواج ، فهو رجلها المفضل ، وما عليك الا أن تنتظري فاذا هو عاد خائبا لا قدر الله كان من حقلك بلا جدال أن تزوجيها ممن تختارين » .

وأصغت الفتاة اليها والشرر يتطاير من عينيها ، ثم صاحت بصوت جاف فضح الغضب قبحه :

- السيد رضوان ولى من اولياء الله ، او هذا ما يجب ان يتظاهر به امام الناس ، فاذا قال رايًا لم يبال مصلحة الناس في سبيل اكتساب الاولياء امثاله ، فسعادتي انا لا تهمة في كثير او قليل ، ولعله تأثر بقراءة الفاتحة كما ينبغي لرجل يرسل لحيته مترين ، فلا تسأل السيد عن زواجي وسليه ان شئت عن تفسير آية او سورة .. اما والله لو كان طيبا كما ترعمون لما رزاه الله في ابنائه جميعا ..!

وارتاعت المرأة ، وقالت لها بانكار والم :
- اهذا كلام يقال عن اكرم الناس وافضلهم ؟

فصاحت الفتاة بحدة وقد اندلرت حالتها بشر مستطير :
- هو فاضل ان اردت ، وولى من اولياء الله ان شئت ، ونبي ايضا ان احببت ، ولكنه لن يقف حجر عثرة في سبيل سعادتى ..

وتألمت المرأة للاهانة التى لحقت السيد ، لا دفاعا عن رايه الذى كانت لا توافق عليه في باطنها ، ومع ذلك قالت مدفوعة برغبة في اغاظة الفتاة والانتقام من سوء خلقها :
- ولكنك مخطوبة ..

فضحكت حميدة ساخرة وقالت :
- ان الفتاة حرة حتى يعقد عليها ، وليس بيننا وبينه الا كلام وصينية بسبوسة ..!
- والفاتحة ؟

- المسامح كريم ..
- الفاتحة ذنبها كبير .
فصاحت باستهانة :

- بليها واشربى ماءها !
فضربت المرأة صدرها وقالت :

- ١٥٥ -

- آه يا بنت الثعبان !
ولاحظت حميدة بوادى الاذعان تلوح فى عينى أمها ، فقالت
ضاحكة :

- تزوجيه انت ..

فضربت المرأة كفا بكف وهى تغالب الضحك ، ثم قالت
بسخريه :

- من حقا أن تبعى صينية البسبوسة بصينية الفريك ..

فنظرت اليها بتحد وقالت بغیظ :

- بل رفضت شابا واخترت شيخا ..

فضحكت أم حميدة ضحكة مجلجلة وتمتمت : « الدهن
فى المتاقى » ، وتربعت على الكنبه فى سرور وقد تناست
معارضتها الكاذبة ، واستخرجت سيجارة من علبة سجائر
وأشعلتها ، وراحت تدخن بلدة لم تشعر بمثلها من زمن بعيد ،
فنظرت حميدة اليها بغیظ وقالت :

- بالله لقد فرحت بلعروس الجديد أضعاف سرورى ،
ولكنها المكابرة والمعاندة والرغبة فى اغاظتى سامحك الله ..

فحدجتها أمها بنظرة عميقة ، وقالت بلهجة ذات معنى :

- اذا تزوج رجل مثل السيد سليم من فتاة ، فهو فى الواقع
أنما يتزوج من أهلها جميعا ، كالتيل اذا فاض افرق البلاد ،
فهمت ؟ .. أم تحسبين أن ترفى الى قصرک الجديد وأبقى انا هنا
تحت رحمة الست سنية عفيفى وأمثالها من المحسنين ؟! ..

فقهقهت حميدة وقد بدأت تضفر شعرها ، وقالت بكبرياء
مصطنع :

- تحت رحمة الست سنية عفيفى ، والست حميدة هانم ..

- طبعاً .. طبعاً يا لقيطة الطوار ، يا ابنة المجهول ..

- ١٥٦ -

فاسترسلت الفتاة في ضحكاتها وقالت :

— مجهول مجهول .. كم من اب معروف لا يساوى شيئا ..!

وعند ضحى الغد ذهبت أم حميدة الى الوكالة سعيدة رحية البال ، لتقرأ الفاتحة مرة اخرى . ولكنها لم تجد السيد سليم بمجلسه المعهود ، واستعلمت عنه ، فقيل لها انه تخلف عن الحضور اليوم ، فرجعت الى البيت غير مرتاحة وقد تولاهما الجزع ، ولما ان انتصف النهار ذاع نبا في الرقاق بان السيد سليم علوان اصاب ليلة أمس بذبحة صدرية ، وانه راقد في فراشه بين الحياة والموت ! وقد عم الأسف الرقاق كله ، اما بيت أم حميدة فقد سقط عليه النبا كالصاعقة ..

١٩

واستيقظ الرقاق ذات صباح على صخب وضوضاء ، ورأى أهله رجالا يقيمون سرادقا على أرض خراب بالصناديق فيما يواجه زقاق المدق . وانزعج عم كامل وظنه سرادق ميت. فهتف بصوته الرفيع : « انا لله وأنا اليه راجعون ، يا فتاح يا عليم يا رب » ونادى غلاما من عرض الطريق وسأله عن شخص المتوفى ، ولكن الغلام قال له ضاحكا :

— ليس السرادق ميت ، ولكنها حفلة انتخابية !

فهز عم كامل رأسه وغمغم : « سعد وعدلى مرة اخرى ! » وكان الرجل لا يدرى شيئا على الإطلاق عن عالم السياسة ،

ان هو الا اسم أو اسمان يحفظهما دون أن يفقه لهما معنى .
 أجل انه يعلق في صدر محله صورة كبرى لمصطفى النحاس ،
 ولكن كان ذلك لأن عباس الحلو ابتاع يوما صورتين للزعيم ثبت
 احدهما في الصالون واهدى الأخرى لصاحبه ، ولم ير الرجل
 في تثبيتهما بدكانه من بأس ، خصوصا وأنه يعلم أن هذه الصورة
 وأمثالها من تقاليد الدكاكين ، ففي دكان الطعمية بالصنادقية
 صورتان لسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وفي قهوة كرشة
 صورة للخديو عباس ، وراح الرجل يرمق العمال العاكفين على
 عملهم بانكار وقد توقع يوما صاحبا مرهقا . ومضى السراق
 يتكون جزءا جزءا ، فنصبت الأعمدة ، ووصلت بالطنب ومدت
 عليها الستائر ، وفرشت الأرض بالرمل ، وصفت المقاعد على
 جانبي ممر ضيق يفضى الى المسرح اقيم في الداخل عاليا ، وركبت
 مكبرات الصوت على مفارق الطرق ما بين الحسين والغورية ،
 وأجمل من هذا كله أن ترك مدخل السراق بلا حاجز من ستار
 أو ظلة مما بشر أهل المدق بأنهم سيشاركون في الحفلة من
 منازلهم ، وفي أعلى المسرح علقت صورة كبرى لرئيس الحكومة ،
 والصقت بها من تحت صورة المرشح فرحات الذي تعرفه أكثرية
 أهل الحى ، لأنه كان تاجرا بالنحاسين . ودار فتیان باعلانات
 وجعلوا يلصقونها بالجدران وقد سطر عليها بالوان زاهية :

انتخبوا نائبكم الحر ابراهيم فرحات
 على مبادئ سعد الأصيلة
 زهق عهد الظلم والعمرى
 وجاء عهد العدل والكساء

وارادوا أن يلصقوا اعلانا بدكان عم كامل ، ولكن الرجل
 الذى ترك غياب عباس الحلو في نفسه أسوا الأثر تصدى لهم
 ساخطا وهو يقول :

- ليس هنا يا اولاد الحلال ، هذا شؤم يقطع الرزق ..

فقال له احدهم ضاحكا :

- بل يجلب الرزق . واذا رآه حضرة المرشح اليوم ابتاع بسبوستك بالجملة ، واعطاك الثمن مضاعفا وعليه قبلة .
وانتهى العمل عند منتصف النهار . وعاود المكان هدوءه المصمود ، واستمر هذا حتى العصر حين جاء السيد ابراهيم فرحات في حالة من حاشيته ليعاين الامور بنفسه ، وكان الرجل لا يقبض يده عن الانفاق ، الا أنه كان كذلك تاجرا لا يفوته الاطلاع على دقائق ميزانيته حتى لا يجوز عليه ما لا ينبغي ان يجوز .
وقد تقدم القوم بجسمه البدين القصير ، يرغل في جيبته وقفطانه ويقلب فيما حوله وجها اسمر كرويا ذا عينين ساذجتين . كانت مشيته تنم عن الزهو والثقة ، وعيناه تنطلقان بالضربة والسداجة، ومظهره عامة يشي بان بطنه أهم كثيرا من رأسه . وقد أحدث ظهوره اهتماما كبيرا في الزقاق وما يحيط به ، لأنهم اعتبروه عروس الليلة ، واملوا من وراء « زفته » خيرا كثيرا . خصوصا وأنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتزكية ! . ثم جاءت على اثره جماعات من الغلمان تسير وراء أفندي مرددة هتافات عالية ، كن يصيح بصوت كالرعد « من نائبنا ؟ » فيجيبونه بصوت واحد « ابراهيم فرحات » فيهتف ثانية « من ابن الدائرة ؟ » ، فيهتفون « ابراهيم فرحات » وهكذا ، وهكذا ، حتى امتلأ بهم الطريق ، وتسرب منهم كثيرون الى السرايق . وجعل المرشح يرد الهمسات برفع يديه الى رأسه ، ثم اتجه نحو الزقاق تتبعه بطانته وجلها من رافعي الأثقال بنادى الدراسة الرياضى . واقترب من الحلاق العجوز الذى حل محل الحلو ومد له يده وهو يقول : « السلام عليك يا أخا العرب » . فانحنى الرجل على يده فى استخياء

وترحيب ، وتحول عنه الى عم كامل قائلا : « لا تتجشم مشقة النهوض ، حلفتك بالحسين الا ما لزمتم مكانك . كيف حالك .. الله اكبر .. الله اكبر ، هذه بسبوسة فريدة ، وسيعرف الناس جميعا قدرها هذه الليلة » .. وتقدم مسلما على كل من لاقاه ، حتى انتهى الى قهوة كرشة ، فحيا المعلم ، وجلس ودعا رفاقه للجلوس ، واستبق الى القهوة كثيرون حتى جعدة الفران وزينة صانع العاهات ، وردد المرشح نظره بين الحاضرين في سرور ، ثم قال مخاطبا المعلم كرشة :

— قدم شاى للجميع ..

وابتسم تحية لكلمات الشكر التى تنارت عليه من كل حذب وصوب ثم التفت صوب المعلم قائلا :
— ارجو أن تقوم القهوة بتقديم ما يحتاج اليه السراشق من الطلبات .

فقال المعلم كرشة بشئ من الفتور :
— نحن فى الخدمة يا سى السيد ..

ولم يغب عن المرشح فتوره ، فقال برقة :
— نحن جميعا أبناء حى واحد ، وكلنا اخوان !..

والحق أن السيد فرحات جاء القهوة خصيصا لاسترضاء المعلم كرشة ، ذلك أنه كان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليستميله الى جانبه فيضمن صوته واصوات من يلوذ به من المعلمين وعمالهم ، وقدم له خمسة عشر جنيها مقدم آتاعاب ولكن المعلم كرشة أبى أن يمسه محتجا بأنه ليس دون الفوال — صاحب قهوة الدراسة الذى ذاع أنه أخذ عشرين جنيها — منزلة ، وما زال به حتى حمله على قبول المبلغ واعدأ آياه بالمزيد ، ثم افترقا والسيد مشفق من انقلاب المعلم عليه . والواقع أن المعلم كرشة لم يخل من غضبه

على « محدث لسياسة » هذا على حد قوله ، واضمر له شر النيات اذا هو لم يبادر الى اصلاح خطئه . وكان المعلم كرشة يتيقظ - على غلبة الدهول عليه - في المواسم السياسية . وقد اكتسب في شبابه شهرة في عالم السياسة تضارع ما اشتهر به بعد ذلك في الامور الاخرى ! فاشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، وقد نسب اليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، وكان من ابطال المعارك العنيفة التي دارت بين الثوار من ناحية وبين الارمن واليهود من ناحية اخرى . ولما ان خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديدا على ضيقه لنشاطه وحماسه ، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدا مشكورا ، وصمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ ولو انه قيل وقتذاك انه قبل رشوة مرشح الحكومة ولكنه اعطى صوته لمرشح الوفد ، واراد ان يلعب الدور نفسه في انتخابات صدقي ، ويأخذ النقود ويقاطع الانتخابات ، ولكن عيون الحكومة راقبت يوم المعركة ، وحملته مع غيره في لوري الى مركز الانتخابات فخرج على ارادة الوفد مرغما لأول مرة . وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة . فطلقها بعد ذلك وتزوج التجارة ، ورصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، وانقلب نصيرا لمن « يدفع اكثر » . وجعل يعتذر عن مرقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلا : انه اذا كان المال غاية المتنازعين في ميدان الحكم فلا خير ان يكون كذلك غاية الناهبين المساكين ! فضلا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه ، وغلبه الدهول ، وركبته الشهوات ، ولم يبق في روحه من الثورة القديمة الا ذكرى غامضة ربما كر اليها الخيال فاشاد بها متباهيا في بعض ساعات الصفاء حول المجرمة ،

ولكنه نبد في قلبه جميع قيم الحياة الشريفة ، ولم يعد يعبا بشيء من بعد ذلك الا « الكيف » و « الهوى » ، وما عدا ذلك « اردم » على حد قوله . لم يعد يكره احدا ، لا اليهود ولا الأرمن ولا الإنجليز أنفسهم ، ولم يعد يحب احدا كذلك ، ولذلك كان من العجيب حقا ان تلب فيه حماسة مفاجئة في هذه الحرب فيتعصب للألمان ، وأن يتساعل - في هذه الأيام خاصة - عن موقف هتلر ، حقيقة قد أصبح مهددا ، والا يجمل بالروس ان يسارعوا شاكرين لقبول ما يعرض عليهم من صلح منفرد ؟ . ولكن اعجابه بهتلر كان ينعقد حول ما يديع عن بأسه وبطشه ليس الا ، فكان يعده شيخ فتوات الدنيا ، ويتمنى له النصر كما تمناه طويلا لعنترة وأبى زيد . بيد انه ظل محافظا على خطره في ميدان الانتخابات ، لانه كان زعيم المعلمين الذين يتحلقون مجمرته كل ليلة ومن يتبعهم من فعلة وصبيان وبطانات ، ولذلك حرص السيد ابراهيم فرحات على استرضائه ، ونزل عن ساعة طويلة من وقته الثمين يقطعها في قهوته متوددا مستعطفًا .

وكان يسترق اليه النظر ، فمال على اذنه وسأله بصوت خافت :

— أراض انت يا معلم ؟

فتدلّت شفته عن ابتسامة ، وقال في شيء من التحفظ :

— الحمد لله ، انت الخير والبركة يا سى السيد ..

فهمس في أذنه :

— سأعوضك عما فاتك خيرا كثيرا ..

وانبسطت اساريه وهو يقلب عينيه في وجوه الحاضرين ،

ثم قال برقة ورجاء :

— ان شاء الله لن تخبوا لنا أملا ..

فتمالت الأصوات في وقت واحد تقول :

زقاق المدق

- ١٦٢ -

— معاذ الله يا سيد فرحات ، أنت ابن خطنا . .

فابتسم الرجل مطمئنا وانشأ يقول :

— انى كما تعلمون مستقل . ولكنى استظل بمبادئ سعد
الحقيقية . وماذا افدنا من الاحزاب ؟ ألا تسمعون مباحراتهم ؟ انهم
مثل لا كاد يقول ابناء الحواري ، ثم ذكر انه يخاطب بعضا من هؤلاء
الابناء فتدارك نفسه قائلا) : دعونا من ضرب الامثال . لقد اخترت
الاستقلال عن الاحزاب حتى لا يمنعنى مانع من قول الحق . ولئن
اكون عبدا لوزير او زعيم ، وسأذكر فى البرلمان اذا وفقنا الله
لالنجاح اننى اتكلم باسم ابناء المدق والغورية والعنادقية ،
ولقد ولى عهد الثروة والنفاق ، انتم تستقبلون عهدا لا يتفله
شيء عن امورك العاجلة كزيادة الاعمشة الشعبية ، والسكر ،
والكروسين ، والزيت . وعدم خلط الرغيف ، وخفض اسعار
البحوم . .

وساله سائل باهتمام شديد :

— هل حقا تتوافر هذه الضروريات غدا ؟

فقال الرجل بثقة ويقين :

— بغير جدال . وهذا سر الانقلاب الحاضر . كنت أمس ازور
رئيس الحكومة (ثم ذكر انه قال انه مستقل فاستدرج تائلا) وهو
يستقبل المرشحين على اختلاف الوانهم ، فاكد لنا ان عهده هو
عهد الكساء والغذاء .

وازدرد ريقه ، ثم استطرد :

— سترون العجب العجيب . ولا تنسوا الحزاز اذا فزت

فى الانتخابات .

فساله الدكتور بوشى :

— الحلوان بعد ظهور النتيجة ؟

فالتفت السيد نحوه وقال وقد داخله شيء من القلق :

— ١٦٣ —

— وقبل ظهور النتيجة ايضا .
فخرج الشيخ درويش من ذهوله وصمته وقال :
— كالصداق له مقدم ومؤخر ، الا انت يا ست المتات فلا
صداق لك ، لأن حبك روحى من السماء .

فتحول السيد الى الشيخ منزعجا ، ولكنه سرعان ما أدرك
حين وقع بصره على زيه — الجلباب ورباط الرقبة والنظارة
الذهبية — انه من اولياء الله الصالحين ، فارتسمت ابتسامة على
وجهه الكروى وقال برقة :
— أهلا وسهلا بسيدنا الشيخ .

ولكن الشيخ درويش لم يجبه بكلمة واستغرق فى ذهوله ، ثم
أنبرى احد تابعى المرشح قائلا :
— لكم ما تريدون . ولنا القسم بكتاب الله ، وبالإطلاق . .
فقال أكثر من صوت :

— وجب . . .

وأخذ السيد فرحات يسأل الحاضرين عن تذاكرهم الانتخابية:
ولما سأل كامل أجابه :

— ليس لى تذكرة ، ولم أشارك فى أى انتخابات على الإطلاق . .
فسأله المرشح :

— أين مسقط رأسك ؟

فقال بغير مبالاة :

— لا أدرى . . .

وضيح الجلوس بالضحك ، وشاركهم السيد فرحات ، ولكنه
غمغم دون يأس :

— مأسوى هذه المسألة البسيطة مع شيخ الحارة .

وجاء فتى بجلباب ، حاملا مجموعة من الإعلانات الصغيرة ،
فالتهم فرصة امتلاء القهوة بالجلوس وراح يفرق فيهم إعلاناته ،

- ١٦٤ -

وغلن كثيرون انها اعلانات انتخاية ، فاقبلوا عليها باحنفال مجاملة
للسيد المرشح ، وتناول السيد فرحات اعلانا وقرأه فاذا فيه :
« حياتك الزوجية ينقصها شيء .

عليك باستعمال عنبر السنطوري .

عنبر السنطوري

مركب بطريقة علمية خالية من المواد السامة ومحلل بمعرفة
وزارة الصحة رقم ١٢٨ وهو منعش ومفرفس ويعيدك من
الشيخوخة الى الصبا في خمسين دقيقة .

طريقة الاستعمال :

خذ منه قدر القمحة على كباية شاي حلو كثير . فتجد عندك
النشاط . ومقدار ربع حق دفعة واحدة اقوى من جميع
الكيفات . يسرى في العروق كالتيار الكهربائي . اطلب عبة عينة
من موزع الاعلان ، الثمن ٣٠ مليما يا بلاش .

سعادتك بـ ٣٠ مليما . والمحل مستعد الاستماع للملاحظات
الجمهور » .

وضج المكان بالضحك مرة اخرى ، وارتبك المرشح قليلا ؛
وتطوع احد بطانته بالتسرية عنه فصاح :
- هذا فال حسن .

ثم مال على اذنه وهمس قائلا :

- هلم بنا ، اماننا احياء واحياء .

فنهض الرجل وهو يقول :

- نستودعكم الله ، الى لقاء قريب ان شاء الله ، اللهم حقق

الامال . وحدج الشيخ درويش بنظرة رقيقة وقال له وهو يهم
بمغادرة القهوة :

- يا سيدنا الشيخ ادع لى .

فخرج الشيخ درويش عن صمته قائلا وقد بسط ذراعيه :

- الله يخرب بيتك .. !

وما آذنت الشمس بالمغيب حتى كان السراق قد ضاق عن القاصدين . وتناقل الحاضرون أن سياسيا كبيرا سيلقى خطابا هاما . وذاع ان شعراء وزجالين سيتبارون على المسرح . ولم يطل الانتظار فارتقى المسرح قارئ وتلا ما تيسر من الذكر الحكيم . واعقبته فرقة موسيقية من شيوخ مهتمين مهلهنى الثياب فعزفوا النشيد الوطنى . وكلز لاذاعة المكبرات لموسيقاهم اثر واضح فى دعوة الغلمان والصبية من الازقة والحوارى حتى سدوا الصناديق سدا . وتعالى الهتاف والضوضاء ، وانتهى النشيد دون أن يبرح رجال الفرقة اماكنهم ، حتى ظن ان الخطباء سيلقون خطبهم على انغام الموسيقى . ثم كانت المفاجأة السارة اذ دق بعضهم ارض المسرح حتى شمل الصمت الجمع المحتشد ، ثم بدأ مونولوجست معروف فى لباسه البلدى . فما كادت تراه الاعين المحدقة حتى جن جنونهم فرحا وسرورا ، وراحوا يهللون ويصفقون . وقال المونولوجست وتفنن ، ورقصت امرأة شبه عارية وهى تهتف المرة تلو المرة : « السيد ابراهيم فرحات .. ألف مرة .. ألف مرة » . وجعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح فى المدياع : (السيد ابراهيم فرحات احسن نائب .. ميكروفون بهلول احسن ميكروفون) ، واتصل الغناء بالرقص والهتاف ، وانقلب الحى جميعا الى مولد .

ولما عادت حميدة من مشوارها المعهود وجدت الحفلة فى ابان ازدهارها وسرورها ، وكانت تظن كاهل الزقاق كافة انها ستكون حفلة هتاف وخطب (بالنحوى) على حد تعبيرهم . وما ان رأت المنظر البهيح حتى شملها السرور وتلفتت يمنة ويسرة باخثة عن مكلوم تشاهد منه حفلة الطرب والرقص التى نادرا ما ترى مثلها فى حياتها . ومضت تشق طريقها بصعوبة بين الغلمان والبشاش

حتى بلغت مدخل المدق ، واقتربت من جدار الصالون ، وارتقت حجرا منفردا لصق الحائط ونظمت باهتمام وسرور الى السرداق .

كان الغلمان والبنات يكتنفنها من كل جانب ، ووقفت نموّة كثرات يقبضن على أيدي اطفالهن او يحمانهم على اكتافهن . واختلط الغناء بالهتاف ، والحديث بالصياح ، والضحك بالعويل . واستولى المنظر الخلاب على لبها فانجذبت روحها اليه ، والتمع السرور في عينيها الفاتنتين ، وفمها المفتن عن ابتسامة لؤلؤية . وكانت متلفعة بملاءتها فلا يبدو منها الا وجهها البرنزي ، واسفل ساقها ، وما انحسر عنه طرف الملاءة من مقدم شعرها الفاحم . ورقص قلبها سرورا ، وتنبهت حواسها جميعا ، وجرى دمها حارا دافقا . سرها المونولوجست سرورا لم تشعر بمثله من قبل ، حتى شعورها المر القارص نحو الرافضة لم يستطع ان يفسده عليها ، وظلت مستغرقة فيما ترى غير ملقية بالا الى هبوط الظلام حتى أحست شيئا ما يجذب عينيها نحو اليسار . كأنه نداء يدعو حواسها اليه ، أو ذاك الشعور الذي يقلقنا اذا حدثت فينا عينان ، ولبتة على رغبها فتحوّلت عن المونولوجست عاطفة . رأسها الى يسارها فالتقت عيناها بعينين تتفرسان فيها بقوة وقحة ! ولبتة مقدار ثانية ثم عادت الى هدفها ، ولكنها لم تستطع أن تنعم باستغراقها الاول ، وظل شعورها منتبها الى العينين العارمتين ، وجعلت حدقتها تميلان ناحية اليسار ، وساروها شك وقلق ، فالتفت مرة أخرى فالتقت بالعينين تتفرسان فيها بالقحة نفسها ، وقد نمتا - الى ذلك - عن ابتسامة غريبة ، ولم تتمالك نفسها فأعادت رأسها الى موضعه الاول في شيء من الحدة . وقد ملاحا الخنق . أحققتها هذه الابتسامة الغريبة لأنها أفسحت عن نقة وتحد لا حد لهما ، فهيجت موضع الالتهاب والانفجار من نفسها الشرسة المتفجرة ، وشعرت برغبة جامحة أن تنسب

اظافرها في شيء ما . في رقبته لو امكن مثلاً ! . وصممت على ان
تهمله مع نفورها من هذه الطريقة السلبية في العراك . وان ظل
شعورها قويا بعينية الوقتين ! ونقص عليها سرورها ، وركبتها
روح الشر التي تلبسها بسرعة جنونية . وكان صاحب العينين لم
يقنع بما فعل ، او كانه لا يبالي هذه النار التي شها ، فراح يشق
طريقه الى موضع في طريق بصرها الشاخص الى السراشق متعمداً
بلا شك ان يعترض سبيلها ، ووقف هنالك موليا اياها ظهره .
كان طويل القامة نحيفا . عريض المنكبين ، حاسر الرأس ، غزير
الشعر ، مرتديا بدلة ذات لون ضارب للاخضرار ، متأنقا في ملبسه .
ومظهره ، فلاح غريبا في هذا الوسط الذي يكتنفه ، وسرعان
ما انستها الدهشة ما تولاهما من حنق وتوحش . هذا افندي
وجيه ، واين من زقاقها الافندية ؟ ! ترى هل يعاود النظر وسط
هذا الزحام ؟ . ولكن لم يكن شيء ليردعه ، فما عثم ان التفت .
وراءه مرسلا نحوها نظرا عارما . وكان وجهه نحىلا مستطيلا ،
لوزي العينين ، كثيف الحاجبين ، تنطق نظرة عينيه بالحنق
والقحة . ولم يكتف بهذا التفرس على الما فصوص فيها نظره .
وصعد من شبيبها المنجرد الى شعرها ، حتى انساقت وهي
لا تدري الى النظر الى عينيه كأنما لتسبر ما تركه تفحصه من
اثر ، فالتقت ميناهما ، ولاحت في عينيه النظرة المشرقة الوقحة
الواشية بما يتيه به من ثقة وتحذ وظفر ، فتناست دهشتها ،
وعاودها الحنق والغيط والرغبة في العراك . فغلا دمها غليانا ،
وهمت ان تشتمه علانية . همت أكثر من مرة ، ولكنها لم تفعل ،
وتولاهما قلق وانفعال ، وضائق بوقفتهما . فنزلت عن الحجر ،
ومزقت الى الزقاق مندفعة على عجل ، فقطعت في ثوان . وعندما
اجتازت عتبة البيت شعرت برغبة في الالتفات الى الوراء ، ولكنه
تمثل لعينها في وقفته مرسلا عينيه في وقاحة وثقة وقد ازدادت .

ابتسامته افتضاحا ، فرغبت عن رغبتها ، وارتقت السلم متعجلة حائقة تلوم نفسها على تساهلها معه وتفریطها في تاديبه ، واتجهت نحو حجرة النوم وخلعت ملأئها ، ثم دلفت الى النافذة المغلقة ، ونظرت الى الطريق من خلال خصاصها . وبحثت عينها عن ضالتها حتى استقرتا عليه عند مدخل الرقاق ، وكان يرمق النوافذ المظلة على الرقاق باهتمام وقد فارقت عينيه ابتسامة الثقة والتحدى ، وحل محلها احتفال وتطلع . وسرها مظهره الجديد فانفتحا خنقها ، ولبت بموقفها تستلذ حيرته وتنتقم لفيظها وحنقها . افندى وجهه ما في ذلك من شك ، وغير السابقين بلا جدال ، وقد اعجبته والا ففيم هذا الاهتمام الشديد . واما نظرة عينيه فقاتلها الله من نظرة تستوجب اعنف عراك ! .. ففيم هذه الثقة التي لا حد لها ؟ يحسب نفسه بطل الأبطال او امير الأمراء ؟ وخالط ارتياحا حنق ، ووجدت رغبة غامضة في العنف والتحدى . ولكنه بدا يئأس من النوافذ ، واعياه البحث عنها ، وخافت ان ينصرف عن تطلعه ويغيب في الزحام . وترددت لحظة ، ثم ادارت الاكرة ، وفرجت ما بين مصراعي النافذة عن زيتق ووقفت وراءه كأنما لتشاهد الحفلة . كان موليا الرقاق ظهره ، ولكنها كانت مطمئنة الى انه سيعاود البحث والفحص والاستقصاء . وقد فعل ، فتلقت رأسه مرة أخرى وتردد بين النوافذ ، حتى علق بالزيتق فأضاءت صفحة وجهه ، ولبت لحظات كالمرتاب ، ثم ... ثم ارتسمت على شفتيه هذه الابتسامة الوقحة ، ورد اليه مظهر التيه والخيلاء بأفزع مما كان . وادركت انها انزلت الى خطأ لا يقتفر بظهورها ، وثارت ثائرتها وأستولى عليها الخنق والغيظ ، ووجدت في ابتسامته تحديا يدعوها للنزال ! ووجدت في هاتين العينين ما لم تجد عند أحد من قبل ، وقرأتها بوضوح على ضوء نفسها الغاضبة المتعطشة للعراك ، وبدا الرجل وكأنه شيئا لا يمكن

- ١٦٩ -

ان يقفه عند حد ، فتحرك مصعبا في الزقاق بقدمين ثابتتين حتى خيل اليها انه قادم الى البيت . ثم مال الى قهوة كرشة ، وأختار مجلسا ما بين المعلم كرشة وأريكة الشيخ درويش حيث كان يجلس عباس الخلو في الأيام الخوالى مستطلعا الى شبحها وراء الخصاص . وخطا بجلوسه هذه خطوة جريئة . ولكنها لم تتراجع . لبثت بموقفها مرسله عينيها الى المسرح وان كانت لا تكاد تدري بما يدور عليه . شاعرة ببصره يصوب نحوها من آونة لآخرى . في ومضات متقطعة كالكشف الكهربائي
ولم يفارق الرجل مكانه حتى انتهت الحفلة وأغلقت النافذة . وما انفكت حميدة تذكر هذه الليلة فيما أعقب ذلك من ليالى وعهود .

- ٢٠ -

ولم ينقطع بعد تلك الليلة عن زقاق المدق . فكان يجيء عند العصر ويتخذ مجلسه المختار . ويقطع وقته بتدخين النارجيلة واحتساء الشاي . وقد أحدث ظهوره الطارئ - بوجهاته واناقة - دهشة في القهوة ، ولكن سرعان ما سحبت العادة عليها ذيول الإهمال . فليس من الخوارق ان يقصد أفندى مثله قهوة مفتوحة لكل طارق . بيد انه اتعب المعلم كرشة بما كان يقدم عند الحساب من أوراق نقدية ضخمة لا تقل في كثير من الأحيان عن الجنيه ! كما انه أسر « سنقر » بما كان ينفحه من بقشيش لا عهد له به من قبل ، وراقبت حميدة مجيئه يوما بعد يوم بروح متفتحة ونفس متوثبة . ولكنها أحجمت باذى الأمر عن خروجها الى فسحتها اليومية لركة ثوبها وتفاهتها . حتى ضاقت بالبيت ضيقا

شديداً ، ثم أغضبها أحجامها وعدته نوعاً من الجبن لا يسيفه طبعها الجريء ، ومن عليها أن يقضى مخلوق عليها بالتزام شيء تستكرهه ، فنشبت معركة جديدة في صدرها الذي لا يستريح من المارك . وقد رأت الأوراق النقدية التي كان يعتمد تقديمها لسنقر تحت بصرها ، وفطنت بطبيعة الحال الى دلالتها . وربما كانت هذه لغة ساقطة في غير هذا المكان ، اما في زقاق المدق فهي لغة بليغة لا يخيب لها اثر ، ومع ان الرجل كان شديد الحرص على ألا يبدر منه ما ينبه أحداً الى الباعث الحقيقي لغشيانه القهوة . الا أنه كان لا يعدم فرصة فيها يسترق النظر الى خصائص النافذة ، او يضع مبسم النارجيلة على فيه زاماً شففيه كأنه يقبله ثم يرسل الدخان الى عل كأنما يرسل القبله في الهواء الى شبحها الجاثم وراء النافذة . وكانت ترى ذلك باهتمام ، وتساورها أحاسيس متباينة لا تخلو من لذة ولا تخلو من حنق . وقد حدثتها نفسها بأن تنطلق الى نزهتها ملقية بمخاوفها تحت نعلها ، وأن تلقاه اذا سولت له نفسه التعرض لها - الأمر الذي لا يداخلها فيه أدنى شك - بما تعهده في نفسها من قحة حقيقة بأن تهزم قحته شر هزيمة ، وأن تسلقه بلسانها سلقاً لا ينسأه مدى الحياة . وأنه لأعدل جزاء على زهوه الكاذب ، وإبتسامته الظافرة ، وتحديه الوقح . تبا له ، ما الذي يدعو لهذا التظاهر بالظلمة والقهر ؟ ! لا يرتاح لها بال حتى تمرغ آتفه في الرغام ، ولكن آه لو كانت تملك ملاءة حسنة او شبيشا جديداً ؟ ! ...

وقد اعترض سبيل حياتها وهي تعاني اليأس المرير ، اذ سقط السيد سليم علوان بين حي وميت بعد أن مناها يوماً وبعض يوم بالحياة العريضة التي تهيم بها ، وبعد أن نلت من أحلامها عباس الخلو ولغظته . وعلمت بعد ذلك أنه لم يعد نمة أمل في ذاك الزواج المأمول ، فردت على رغمها خطيبة للخلو . وقد ازدادت له

مقتنا ونفورا . وأبت أن تسلم بسوء حفظها ، وراحت تنهر أمها ، وتتهمها بانها حسدتها وطمعت في مال الرجل فخيبت الله آمالها ، على هذه الحال لاح الرجل الجديد في أفق حياتها . وقد بعث ظهوره في نفسها ثورة عارمة جارفة استثارت كوامن غرائزها جميعا . افضبها زهوه . وأحنقها تحديه ، وأغرته وجاهته ، وأبقتنها فحولته وجماله . جذبتها نحوه قوة خفية من غرائزها المطمورة ، ووجدت فيه ما لم يجتمع لسواه ممن عرفت من الرجال : القوة والمال والعراك ! . ولم تكن تدرك مساعرها بوضوح وجلاء . أو تدري حاجات نفسها الملتوية ، فتحررت بين انجذابها اليه ، وبين رغبتها المضطربة في الأخذ بتلابيبه . ثم وجدت في الانطلاق مهربا من سجنها وحيرتها معا . وفي فسحة الطريق مجالا تسبر فيه نفسها وغرائزها . في الطريق يجوز أن يتعرض لها ، فتتاح لها فرصة أن تتحداه كما تحداها ، وأن تنفس عن غضبها وحنقها ، وأن تلبى هذا النداء الخفى الذى يهيب بها الى النزول والعراك . . . والانجذاب !

وفي عصر يوم من تلك الأيام ، أخذت زينتها ، والنحف ، ملأتهما وغادرت الشقة لا تعيب شيئا في الوجنود . وانتهت الى الطريق في أقل من دقيقة ، ثم قطعت الزقاق لا تلوى على شيء . وخطر لها خاطر وهى تميل الى الصناديق . الا يحق له أن يظن بخرجتها هذه الظنون ؟ الا تزعم له نفسه المفرورة انها غادرت بيتها عمدا لتلقاه في الطريق ! . خصوصا وأنه لا يدري شيئا عن نزهتها اليومية المعتادة ، وقد جاء إياما متتابعة فلم يرها يوما تفادر البيت . فسيتبعضها على الأثر ، ويتعرض لها في الطريق ، وقد أبت أن تقيم وزنا لظنونه . ورحبت بما عسى أن يدفعه اليه .

الغزور ، وتوثبت للقاءه بنفس تتحرق على التحدى والعراك .
متوعدة اياه بان تمحو عن شفتيه هذه الابتسامة الظافرة
السخيفة . وبلغت في سيرها الوئيد السكة الجديدة . فتخيلته
وقد نهض من جلسته بالقهوة وغادرها متعجلا حتى لا يضلها ،
ولعله ينحدر الآن بخطواته الواسعة الى الغورية . واعله يفتش
عنها بعينه المتفرستين الجسوريتين . انها تكاد تراه بظهرها وهو
يهول بجسمه الطويل ، بينما لا تكاد ترى عينها ما يضطرب به
الطريق من اتاس وسيارات وعربات . ترى هل أدرك بصره
ما خرج في ابتغائه ؟ . وهل عاودته الابتسامة المتحدية الظافرة ؟ .
قاتله الله من حيوان يجهل ما ينتظره ! . فلتواصل السير دون ان
تلتفت الى الوراء . حذار من الالتفات ، فالتفاتة واحدة شر من
الهزيمة . انه وقع جرىء ، ولعله لا يفصلهما الآن سوى خطوات .
ترى ماذا هو فاضل ! ايقنع بتأثرها كالكلب ؟ ام يسبقها قليلا ليرى
نفسه ؟ ام يحاذيها ويأخذ في مخاطبتها ؟ . وواصلت السير متنبهة
قلقة ، مترقبة متوثبة . تتوقع في كل خطوة جديدا ، وتتفحص
عينها جميع الذين يلحقون بها ويتقدمونها من المارة ، وتنصت
بيقظة للأقدام التى تتحرك ورائها . أرقها الانتظار والتربص
والتوتب . وكادت تراود ارادتها فى التلفت . بيد انها استعادت
عنادها وفظاظتها وسارت لا تلوى على شيء ، فما تدري الا
وصويجباتها من بنات المشغل يقبلن نحوها غير بعيدات ! ،
فخرجت من غيبوبتها . وارسمت على شفتيها ابتسامة ، ثم
سلمت ، ودارت على عقبها تسير وسطهن ، وهن يسألنها عن سر
غيابها اياما على غير عادة ، واعتلت بالمرض وهى تعين الطريق لترى
موقعه منه . ومضت تنازعهن الحديث والمزاح وعيناها تترددان
من طوار لطوار . ترى فى أى مكان ينزوى ؟ لعله يراها من حيث
لا تراه . ومهما يكن من امر فقد أفلتت من يدها فرصة تأديبه

اليوم : وكانت ترجو أن يتعرض لها بخيلائه فتزفر عليه غضبها وترعد فرائصه ، ولكنه نجا من مخالبتها . ولكن أين يكون ؟ أيمن أن يكون متاخرا عنهم الى الورا ؟ ولم تستطع ان تقاوم رغبتها في التلفت هذه المرة . فالتفتت . وفحصت الطريق ببصر حاد ، ولكنه لم يكن هناك ، لا الى الورا ولا الى الامام ولا الى اليمين ولا الى اليسار ! لعله تأخر قليلا في الافلات من القهوة فاضلها ، ولعله يتخبط الآن في الطريق لا يدري مكانها ! وسرعان ما فترت حماسها وخمد نشاطها . وعندما انتهت الى الدراسة خطر لها انه ربما بدا لها هنا فجأة كما بدا يوما عباس الحلو وتجدد الأمل ، ونشطت الحماسة فودعت آخر صويحبائها ، وعادت متبيلة تقلب عينيها في جنبات الطريق . ولكنه كلن خاليا أو كان خاليا ممن تبتغي . وقطعت ما تبقى منه بقلب كسير !... تنوء بهزيمة تكراء . وصعدت مع أرض الزقاق ، واتجهت عيناها الى القهوة ، وأخذ المعلم كرشة يبدو لها شيئا فشيئا ابتداء من طرف عباءته فكشفه الأيسر حتى رأسه المتطامن . ثم .. رباه ما هذا ؟! انه لم يبرح مكانه ، قابضا على خرطوم نارجيلته !.. وخفق قلبها بعنف ، وتصاعد الدم الى وجهها ورأسها . وهرولت الى البيت لا تكاد ترى ما بين يديها ، وارتقت السلم ذاهلة من الخجل - وان كان الخجل ليس من سجايها - وما كادت الحجرة تحتوبها حتى انفجرت براكينها واستولى عليها غضب جنوني ، فطرحت الملاء على الأرض وارتمت على الكنب . لمن اذا يجيء القهوة كل مساء ؟ وكيف يسترق اليها النظر بعينه الفاجرتين ؟.. ولم يرسم تلك القبة الخفية في الهواء ؟!.. وتناوبت قلبها مشاعر الحيرة والخجل والغضب . ثم انثالت عليها الفكر والخواطر: أيمن الا يوجد ارتباط بين مجيئه كل مساء وبين أفكارها ، وأن ليست هذه الأفكار الا اوهاما وأحلاما كاذبة ؟ .. أم أنه تعمد أن

يهملها اليوم تاديبا لها وتعديا ، فهو يعبت بها عبت القوى
بالضعيف ؟! . . أنهض الى القلة وتفذه بها فتحطم رأسه
وتروى غلة الحنق والانتقام ؟! ، واستولى عليها شعور ماض
بالامتعاض لم تشعر بمثله من قبل ، حتى لقد تساءلت في حيرة
عما أصابها ، بيد أنها لم تكن تجهل ما كانت تريد . كانت تريد
بلا شك أن تشعها وإن يتعرض لها في الطريق .

ثم ماذا ؟. ثم تقدفه بحمم الغضب والحقد والوعيد . لماذا لا
تجديا لثقتة بنفسه وزهوہ وابتسامته الواضیة بالظفر . كانت
ابتسامة الظفر اصل البلاء كله . فادركت مغزاها بعقلها وغريزتها
وروحها وجسمها . هي ابتسامة الصراع والعراك ! وانها على
مساجلتها لقادرة ، لا بل انها لم تخلق الا لتلقى هذه الابتسامة
ومتبيلاتها فتجيب عليها . كانت تاسى على فوات معركة طالما
ترقبته بلهفة وشغف ، وكانت فى اعماقها تتحرق الى أن تقيس
قوتها بقوة هذا الرجل ذى الفحولۃ والجاه والخيلاء . هكذا
تيقظت فى عنف وشدة ، وانبثت فى نفسها الالهفة والتمرد والعراك
والشوق ..

لبثت على الكنية فريسة لهياجها الوحشي - ثم تلقت الى النافذة ترمقها شزرا ، وجعلت تتزحزح حتى سارت وراءها - ثم أرسلت بناظريها من خلال الخصاص ، ترى ولا ترى ، متلغفة بالمتعة التي غشيت الحجره . رائه في جلسته الهادئة ، يدخن النارجيلة في طمأنينة وسلام . تلوح في عينه الثقة بالنفس والخلق ، وكأنه يعيش في عالم وحده منقطع عما حوله . وقد خلا وجهه من آثار هذه الابتسامة المشرية . ها هو هادئ مطمئن . بينما هي تشتعل نارا . وتفurst فيه بقوة وحنق فما ترداد الا افعالا وحيرة . وظلت ملازمة مكانها حتى نادتها انها لتناول العشاء فغادرت الحجره وقطعت ليلة مملة مضنية ، ونهارا كثيبا .

وانتظرت عصر اليوم الثانى فى قلق متواصل . لم يكن يداخلها شك فى مجيئه فى الايام الماضية . اما اليوم فباتت تترقب شاردة النفس ، وراحت تراقب ضوء الشمس وهو ينحصر عن ارض الزقاق ويرقى وليدا جدار القهوة ومن عجب ان خامرها الخوف من عدم مجيئه . ولعلها ابتلعت ذلك بغريزة المحارب المشاكس وكيسه . وجاء مواعده دون ان يبدو له اثر ، وتصرفت دقائق ودقائق ، فمن المؤكد انه لا يحضر اليوم . بيد ان هذا التخلف حقق ظنها ، فادركت انه تغيب متعمدا ، وارتسمت ابتسامة على شفيتها وتنهدت من الاعماق ارياحا ، لم يكن هناك شيء واضح يدعو للارتياح حقا ، ولكن غريزتها اسرت اليها بانه اذا كان اليوم قد تخلف عن الحضور متعمدا فلا شك انه بالامس تعمد كذلك الا يطاردها ، فليس تمة اهمال او عدم مبالاة ، لا بل على العكس من ذلك هو يخوض غمار المعركة بمهارة وحذق ، وانه لصامد فى الميدان حتى فى هذه الساعة التى لا يرى له اثر فيها . وارتاحت الى اسرار غريزتها ، واطمأنت اليه ؛ وتوثبت للنضال بعزم جديد . ونبا بها المكث فى البيت فتلفعت بملاءتها وغادرت البيت دون ان تعنى بزيئها كما اعتنت بها امس . ولفح الهواء البارد فى الطريق وجهها فانعشها ؛ وذكرها انتعاشها بما قاست يومها من قلق وفكر ، فغمضت ساخطة : « يا لى من مجنونة ! . كيف جشمت نفسى هذا العذاب ؟ . الا فليزدرده الموت ! » واستحثت خطاها حتى التقت بصويحيباتها . ثم عادت معهن ، وقد اندرلنها بأنهن سيفقدن قريبا احدهن التى ستزوج من زنفل صبى دكان طعمية سيدهم ، وقالت احدى الفتيات :

— لقد خطبت قبلها ولكنها ستزوج قبلك . .

وانارها قولها فقالت بحدة وخيلاء :

— ان خطيبى مشغول باعداد مستقبل باهر . .

تباهت بالخلو على رغبها . ثم ذكرت متحسرة السيد سليم علوان - قتله الله ككل شيء غير ذى نفع - فتنزى قلبها الما ، وتولاها الوجوم بقية الطريق . شعرت بأن الحياة تعاندها وتكبد لها . والحياة هي العدو الوحيد الذى لا تدرى كيف تأخذ بتلايبيه ، وسارت فى رفقة العتبات حتى آخر الدراسة . ثم ودعت أخراهن ، ودارت على عقبيها لتعود من حيث أتت . وعلى بعد أذرع راته - رجلها دون غيره - واقفا على الطوار كالمنتظر ! وتبتت بصرها عليه لحظات تحت تأثير المفاجأة التى دهمتها . واعتراها شيء من الارتباك عضت عليه أصابع الندم بعد فوات الفرصة . ثم واصلت السير فى شبه ذهول . لم تكن مستعدة لهذا اللقاء ، ولم يعد يداخلها شك فى أنه كان يتأخرها طوال هذا الوقت . وهكذا يحكم هو التدبير فى هدوء . ويدهمها فى كل مرة الارتباك والدهول . وأخلت تنادى قواها المبعثرة وتستعدى وحشيتها ، وقد آلمها أشد الألم أنها لم تجد زينتها كما ينبغى . وأحدث لها ذلك غير قليل من القلق . كان الجو متخشعا تحت سمره المغيب ، والمكان كالمقفر ، وكان الرجل ينتظر دنوها فى هدوء ، بوجه وديع لا أثر فيه لنظرة التحدى . ولا لابتسامة الظفر ، فلما حاذته خاطبها بصوت منخفض قائلا :

- من يتحمل مرارة الصبر يبلغ ..

ولم تسمع تمة عبارته لأنه غمغمها ، فحدجته بنظرة حادة ، ولم تنبس بكلمة . وسارت لحال سبيلها ، فسبايرها وهو يقول بصوته الهادى العميق : أهلا وسهلا . كدت أجن بالامس لانى لم أستطع الجرى وراءك حذر العيون . وكنت أنتظر مثل تلك الخرجة صابرا يوما بعد يوم . فلما أن جاءت الفرصة دون أن أستطيع انتهازها كدت أجن ..

انه يطالعها بوجه وديع ، غير الوجه الذى اهاجها ، فلا تحدى

ولا ظفر . . وكلام أشبه بالشكوى والتوجع والاعتذار . . وهى انما
توثبت لغير هذا فما عسى أن تصنع الآن ؟ . أتهمل شأنه وتحث
خطاها فينتهى كل شيء ؟ .

تستطيع أن تفعل هذا لو أرادت ، ولكنها لم تجد مشجعا من
قلبها ؛ وكأنها كانت تنتظر هذا اللقاء منذ اليوم الاول ، فسارت
بشعور امرأة ليس الحياء من سجاياها .

وكان الرجل من ناحيته يمثل دوره بمهارة ، ويحيك اكذوبة
ماكرة . فلم يكن خوفه الذى أقعده أمس عن تعقبها ، ولكنه
استوحى غريزته اليقظة وخبرته الفائقة فأوحى اليه بأن القعود
فى حالته خير من العجلة ، كما أوحى اليه اليوم بأن يتلثم بهذا
القناع الزائف من الادب والوداعة . وعاد يقول لها بركة :
- تمهل قليلا . . عندي . .

فالتفتت اليه وقاطعته بحدة :

- كيف سولت لك ففسك ان تخاطبنى ! . . اتعرفنى يا هذا ؟ !
فقال بادبه الزائف :

- كيف لا ؟ . . نحن اصدقاء قدماء . . وقد رايتك فى الايام
الماضية أكثر مما رأك الجيران فى اعوام طوال . وفكرت فيك أكثر
مما فكر الصق الناس بك مدى عمره ، فكيف لا امرفك بعد هذا
كله ؟ !

تكلم بركة ولكن بلا تلثم ولا تهدج . . وازدادت هى تعلقا
بكلامه ورغبة فى مساجلته ، وتولاها شعور بالاستهانة ، وهو
السلاح الوحيد الذى تستطيع ان تشهره فى وجه عناد الحياة .
بيد انها لم ترد الخروج على « سنة التصنع والتمثيل » ، فقالت
بحدة وهى تحرص على الا يعلو صوتها فيفضح جرسه البخس :
- لماذا تتبعنى ؟

فابتسم الرجل وقال بدهشة :

— ١٧٨ —

— لماذا أتبعك ؟ .. لماذا أهمل أعمالي والزم القهوة تحت نافذتك ؟ .. لماذا أهجّر الدنيا جميعا مقيما برفاق المدق ؟ .. ولماذا انتظرت هذا الزمان الطويل ؟ ..

فقطعت وقالت بلذراء :

— لست أسالك حتى تجيبني بهذه السحافات . ولكنى أنكر عليك أن تتبعنى وتخاطبني .
فقال بلهجة تنم عن الثقة واللباقة :

— الأصل أن نتبع الحسنة أينما سارت . هذه هي القاعدة ، فإذا ما سارت ولم يتبعها أحد فهذا هو التسوّد الموجب للانكار حقا ، أو بمعنى آخر إذا سرت ولم يتبعك أحد فهذا إيذان بقرب القيامة ..

ومرت عند ذلك بعطفة العوارجة حيث يقيم بعض صويجاتها فتعنت أن يرىها وهذا الأفندى يغازلها . ولاح لها ميدان المسجد غير بعيد فانتهرته قائلة :

— ابتعد .. هذا حى يعرفنى !

وكان يتفحصها بنظر تاقب ، فايقن أنها تجادبه الحديث وهى لا تدري . أو وهى تدري ، فارتسمت على شفثيه ابتسامة لو رأتها لعادت الى رأسها ذكريات وحشية . وقال لها :

— لا هذا الحى حيك ، ولا هؤلاء الناس أهلك ! . أنت شىء آخر : أنك ها هنا غريبة .. !

فأمن قلبها على قوله ، وسرت به سرورا لم تشعر بمثله لقول قبله ، واستدرك الرجل قائلا كالساخط :

— كيف تسيرين بملاءتك بين هؤلاء الفتيات ! .. أين هن منك ! . أميرة فى ملاءة ، ورعية ترفل فى الشيايب الجديدة ..

فقالته بحدة :

— مالك أنت ولهذا ! .. ابتعد ..

- ١٧٩ -

فقال محتجا :
 - لن ابتعد أبدا ..
 فسأله بحدة :
 - ماذا تريد ؟
 فقال بجرأة عجيبة :
 - أريدك أنت - ولا شيء غيرك ..
 - ذبحة ..
 - سامحك الله . لماذا تفضسين ؟.. الست في الدنيا
 لتؤخدي ؟.. واني لأخذك ..
 ومرا في طريقهما ببعض الدكاكين ، فنهرته قائلة :
 - لا تخط خطوة واحدة ، والا ..
 فقال مبتسما :
 - الضرب ..
 وخفق قلبها . وتألقت عيناها ، فقالت :
 - صدقت .
 فقال وهو يتسهم ابتسامة خبيثة :
 - سنرى . سأتركك الآن على رغمي ، ولكنني سأنتظرك كل
 يوم ، لن أعود الى القهوة حتى لا أثير الشبهات في الرقاق . ولكن
 سأنتظرك كل يوم .. كل يوم ، مع سلامة الله يا أجمل من حملت
 الأرض ...
 واصلت السير وقد انبسطت أسارير وجهها ولاح فيه البشر
 والسرور والغرور . « أنت شيء آخر » .. أجل ، وماذا قال أيضا ؟
 « انك هنا غريبة » .. « الست في الدنيا لتؤخدي ؟.. واني
 لأخذك » .. وماذا قال أيضا ؟.. « الضرب .. » .. داخلها
 لدة جنونية ، وسرور وحشي ، فقطعت الطريق لا تكاد ترى شيئا ،
 ولما أوت الى غرفتها واستردت انفاسها ، ذكرت في عجب وزهو

- ١٨٠ -

أنها استطاعت ان تسير رجلا غريبا وتحادثه بلا حياء ولا ارتباك! .
وانها تستطيع ان تفعل ما تشاء بلا تردد ، وغمرتها موجة عارمة
من الاستهانة والاستهتار حتى أفلتت منها ضحكة عالية ، ثم
ذكرت ما كانت عقدت العزم عليه من الأخذ بتلابيبه! . فاستولى
عليها الوجوم لحظة قصيرة ، ثم جعلت تعتذر لنفسها بأنه لم يلحقها
بذلك الوجه الصفيق المتحدى ، لا بل راح يحدثها حديثا رقيقا
مؤدبا ، لا من وداعة طبيعية ، فقلبها يحدثها بأنه نمر يتحين فرصة
للوثوب ، فلتنتظر ... لتنتظر حتى ينكشف عن حقيقته ،
وهناك؟! .

وعاودتها لذتها الجنونية وسرورها الوحشى ..

- ٢١ -

كان الدكتور يوشى بهم بمغادرة شقته حين جاءته خادم الست
سنية عفيفى تلصوه لمقابله سيدتها ، وعبس وجه الدكتور
وتسائل فى انكار : « ماذا تريد المرأة؟! . زيادة ايجار؟! » ولكنه
سرعان ما نفى هذا الظن عن خاطره ؛ لأن الست سنية لا تستطيع
ان تتحدى القوانين العسكرية التى تحدد أجور المساكن فى اثناء
الحرب . وغادر شقته وارفقى السلم متجهم الوجه . كان الدكتور
يوشى - كمادة السكان - يستثقل الست سنية عفيفى ، ولا يفتأ
يشهر ببخلها فى كل زمان ومكان . وقد شنع عليها يوما فقال : انها
تفكر فى بناء حجرة خشبية على سطح بيتها لتقيم فيها وتؤجر
شقته . وضاعف حقه عليها أنه لم يقدر - ولو مرة واحدة -
على الافلات من اداء اجرة شقته اليها ، اذ كانت المرأة تستعين
بالسيد رضوان الحسينى اذا تخرج الأمر ، فلم يسر الرجل بهذه

الدعوة ؛ ودق الباب وهو يتعوذ قائلا : « لطفك يا دافع البلاء » .
وفتحت له الست بنفسها ، وكانت متلفعة بخمار ، ودعته الى
حجرة الاستقبال ، ودخل الرجل وجلس ، ولحقت به الخادم
بالقهوة فشرب ، ثم قالت له الست :
- دعوتك يا دكتور لتكشف على أسناني ..

ولاح الاهتمام في عيني الرجل . واستولى عليه السرور لهذه
المفاجأة التي لم يتوقعها قط ، وشعر نحو الست بمودة لأول مرة
في حياته وسالها :
- هل وجدت المالا سمح الله ؟ .

فقالت الست سنية :
- كلا والحمد لله ، ولكنى فقدت بعض الضروس والأسنان
ونفص البعض الآخر ...
وتضاعف سرور الدكتور ، وذكر ما تهامس به اهل الزقاق
من ان الست ستغدو عما قريب عروسا . فلعب الطمع بقلبه
وقال :

- الأوفق أن تركبي طقما جديدا ..
فقالت الست :

- هذا ما فكرت فيه ، ولكن هل يلزم وقت طويل لذلك ؟
فنهض الرجل واقفا واقترب منها وهو يقول :
- افتحي فمك ..

ففغرت المرأة فاهها ، وتفحصه الرجل بعينين ضيقتين ، ولم
يجد به الا اسنانا معدودات . فدهش وأحس ببعض الخيبة ،
ولكن حذر أن يهون من خطورة عمله ، فقال في تؤدة :
- يلزمنا بضعة أيام لاقتلاع هذه الأسنان ، ولكن ربما اضطررنا
الى الانتظار ستة أشهر قبل تركيب الطقم حتى تجف اللثة وتأخذ
راحتها .

ورفعت المرأة حاجبيها المزججين فى انزعاج ، وكانت تتوقع
ان تزف الى بعلها. فى بحر شهرين او ثلاثة على الاكثر . وفالت
بجزع :

— لا . . لا ، اريد عملا سريعا ، لا يتاخر عن شهر بحال . .
فقال الرجل بمكر وخبث :
— شهر يا ست سنية ؟ . . مستحيل . . !
فقالت المرأة باستياء :
— اذن مع السلامة . . !
فتريث الرجل قليلا ثم قال :
— هناك سبيل واحد ان شئت .

فادركت ان الرجل يحاورها بمكر التاجر الخبيث ، وامتلات
حنقا عليه . ولكنها دارت حنقها لحاجتها اليه ، وسألته :

— ما هو ؟
— ان اركب لك طقما ذهبيا ، فهذا يمكن تركيبه عقب الخلع
مباشرة . .

وانقبض قلبها خوفا ، وراحت تفكر فى تكاليف الطقم الذهبى .
وكادت تنهد اقتراح الرجل لولا ان تذكرت العروس المرتقب ، اذ
كيف يمكن ان تلقى عروسها بهذا الفم الخرب ؟ كيف تؤايبها
شجاعتهما على الابتسام اليه ؟ وكان من المعروف لدى اهل الزقاق
جميعا ان اسعار الدكتور بوشى هينة ، وأنه يستبضع طقومه من
هنا وهناك بمهارة ويبيعها بأبخس الاثمان ، فلا يسال من اين ياتى
بها ، وبحسبهم رخصا ، ولكن الطقم الذهبى — على رغم هذه
الحقائق جميعا — شئ له خطره ، فلذلك تخوفت المرأة التى افقت
الحرص ، وسألته بغير احتفال شأن المستهين باقتراحه :
— وكم يكلفنى الطقم ؟

فقال الدكتور الذى لم يخدع باستخفافها النظارى :

— عشرة جنيهاً !

وانزعجت المرأة التى تجهل الاثمان الحقيقية للطقوم الذهبية
وردت قوله فى انكر :

— عشرة جنيهاً !

وتميز الرجل غيظاً وقال :

— ان نمته لا يقل عن خمسين جنيهاً عند أولئك الأطباء الذين
يتاجرون بفنهم ، ولكننا وا أسفاه قوم سيئو الحظ .

وتجاذبا الثمن الذى اقترحه ، هو يحاول ان يستمسك به ،
وهى تروم خفضه حتى تم الاتفاق على ثمانية جنيهاً ، وغادر
الدكتور الشقة وهو يلحن فى سره المعجوز المتصاية .

وكانت الست سنية عفيفى ، تلك الأيام ، تلقى الحياة بوجه
جديد . كما كانت الحياة تطالعها بوجه جديد ، كذلك بات الامل
السعيد قلب قوسين أو أدنى ، وأصبحت الوحدة ضيفاً ضعيف
الظل يأخذ أهبتها للرحيل ، وأوشكت البرودة الجائمة فى روحها ان
تدوب وتجري ماء دافئاً . بيد ان السعادة لا تنهل بغير ثمن ، وبغير
ثمن فادح أيضاً . ولقد عرفت هذا الثمن الفادح فى ترددها على
محال الأثاث بشارع الأزهر ، ومعارض الثياب بالموسكى . ومضت
تنفق مما اكتنزت ذاك الدهر الطويل ، بل تنفق بغير حساب .
وكانت أم حميدة لا تكاد تفارقها فى حلها وترحالها ، واثبتت لها
بمهارتها الفائقة ، وبما تقدم لها من معونة فى كل خطوة تخطوها ،
أنها كنز نفيس لا يقدر بثمن ، وان كان باهظ التكاليف فى الوقت
نفسه ، ولم تقبض عنها يدها معللة نفسها بوشك انتهاء هذه
المحنة ، على ان الأثاث والثياب لم تكن كل شيء ؛ ولم يكن بيت
العروس الشيء الوحيد الذى يستوجب التحديد ؛ وانما كانت
العروس نفسها تستوجب الرعاية والعناية والترميم ؛ وقد قالت
يوم لام حميدة وهى تضحك فى غير قليل من الارتباك :

— ١٨٤ —

— يا ست أم حميدة . الا ترين ان الهموم قد اشعلت الشيب
في سوالي ؟ ! .

فغالت أم حميدة التي كانت تعلم ان الهموم بريئة مما ترميها
به :

— ندأوى الهموم بالصبغة ؛ وهل توجد نمة امرأة لا تصبغ
شعرها في زماننا هذا ؟

فضحكت المرأة بسرور وقالت :

— بورك فيك يا ست النساء كلهن . ترى ماذا كنت أفعل
بحياتى لولاك أنت ؟

وتريثت قليلا . ثم مسحت على صدرها وقالت :

— رباه . هل يرضى هذا الجسد الجاف عروسك الشاب ؟ .

لا اثناء ولا ارداف ولا شيء مما يجذب الرجال !

فغالت أم حميدة :

— لا تستقل نفسك ؛ الم تعلمى بان النحافة موضة واية

موضة ! ومع ذلك فان شئت صنعت لك اقراصا عجيبة تسمنك
في وقت قصير :

وهزت أم حميدة وخجها المجدور بفخار واستدركت قائلة :

— لا تخافى شيئا ما دامت أم حميدة معك . أم حميدة مفتاح

سحرى تفتح له جميع الأبواب المغلقة ، وغدا تلمسين قدرى في
الحمام اذا حوانا معا !

وهكذا كرت ايام الاستعداد في نشاط وتعب وسرور وامل ،

وصبغ شعر وتحضير عقاقير ، وخلع أسنان مشرمة وتركيب أسنان

ذهبية ، وبين يدي ذلك كله تقود تثنق . تغلبت على عادة الحرص ،

وطرحت معبودها الاصفر عند قدمى الغد الرموق ، وفي سبيل

هذا الغد المرتقب زارت الحسين ونذرت له ما تيسر من مال وثريد

للفقراء الذين يحدقون بمسجده : كما نذرت للشعرانى اربعين

شمعة .

— ١٨٥ —

وقد نال العجب من ام حميدة كل منال وهى تلحظ هذا
التغير الكبير الذى قلب الست سنية رأسا على عقب ، فجعلت
تضرب كفا بكف وتقول لنفسها :

— هل يستاهل الرجال كل هذا العناء ؟ ! . جلّت حكمتك
يا رب فانت الذى قضيت على النساء بأن يعبدن الرجال . . !

— ٢٢ —

استيقظ عم كامل من اغفائه الزمنة على رنين جرس ، ففتح
عينيه ، وانصت قليلا ، ثم اشراب بعنقه حتى برز رأسه من
الدكان ؛ فرأى حنطورا معروفا يقف . امام الزقاق فنهض فى عناء
وهو يقول بسرور ودهشة : « رباه ، هل عاد السيد سليم علوان
حقا ؟ » . وكان الخوذى قد زایل مقعده وهرع الى باب العربى
ليعين سيده على النزول ، واعتمد السيد على ذراعه ، وغادر
مجلسه فى تودة ، فلاح طربوشه أولا مندلق الزر ، ثم ظهر جسمه
مقوسا ، ووقف اخيرا على الارض يصلح هندامه . حجبه المرس
فى اواسط الشتاء ، واعاده الشفاء فى اوائل الربيع ؛ وقد غمرت
برودة الشتاء القارص موجة لطيفة من الدفء رقصت لها الدنيا
طربا . ولكن أى شفاء هذا ؟! لقد عاد السيد رجلا آخر . اختفى
الكروش الذى كان يشق الجبة والتفطان ، وتقرر الوجه الممتلئ
الدموى ، فبرزت وجنتاه وغار خداه ولوح الشحوب بشرته ،
وخبا نور العينين فقلقت فيهما نظرة شاردة ذابطة تحت جبين
عابس ، ولم يتبين عم كامل بادىء الامر ما طرا على السيد من
تغير لضعف بصره حتى اذا اقترب منه ولاحظ ذبوله تولاه

الآنزعاج ، وانحنى على يده كأنما ليخفى أنزعاجه ، وساح بصوته الرقيق :

— حمدا لله على السلامة يا سى السيد ذا يوم أبيض . والله
والحسين ما يساوى الزقاق من غيرك قشرة بصلة ..
فقال له السيد سليم وهو يسترد يده :
— بورك فيك يا عم كامل ...

وسار متمهلا متوكئا على عصاه ، يتأثر الخوذى عن كتب ،
ويتبعه عم كامل مترنحا كالقيل . والظاهر أن رنين الجرس قد
أعلن حضوره ، فسرعان ما ازدحم باب الوكالة بالعمال . راقب
من القهوة المعلم كرشة والدكتور بوشى ، وأحاط به الجميع مهللين
داعين ، ، ولكن الخوذى علا صوته وهو يقول :
— افسحوا للسيد من فضلكم ، دعوه يجلس أولا ثم سلموا ..

وانسحبت له اللمة ، فواصل مسيره عابسا ، وفؤاده يفلأ
حنقا وغيظا ، وقد ود لو لم تقع عيناه على وجه من هذه الوجوه .
وما كاد يطمئن به مجلسه وراء المكتب حتى أقبل عمال الوكالة
يستبقون ، فلم يجد بدا من أن يسلمهم يده يقبلونها واحد بعد
آخر ، متأذيا من لمس شفاههم ، مخاطبا نفسه : « يا لكم من كذايين
مراثين ! .. انتم والله أصل هذا البلاء ! » . وتفرق العمال فجاء
المعلم كرشة وشد على يده وهو يقول :

— مرحبا بسيد الحى جميعا .. الف حمدا لله على السلامة ..

فشكره السيد . أما الدكتور بوشى فقد قبل بده وقال له
بلهجة خطابية :

— اليوم يحق لنا الفرح ، واليوم تطمئن جنوبنا ، واليوم
يتحقق لنا الدماء ..

فشكره أيضا مداريا تأففه ، لأنه كان يستكره وجهه الصغير
المستدير ، ولما أن خلا المكان تنهد من صدر ضعيف وقال بصوت

لا يكاد يسمع : « كلاب .. كلهم كلاب .. عضوني بعيونهم الحاسدة ! » وراح يطارد أشباحهم في مخيلته لينتقى صدره مما استتاره من حنق وغيظ وتأثر ، ولم يترك لخلوته طويلا ، فجاءه كامل أفندى أبراهيم وكيله ومثل بين يديه ، وسرعان ما نسي بمجيئه كل شيء إلا الحساب والمراجعة ، وقال له باقتضاب :
- الدفاتر ..

وهم الرجل بالتحرك ولكنه استوقفه فجأة كأنما تذكر أمرا هاما ، وقال له بلهجة آمرة :

- نبه الجميع الى انى من الآن فصاعدا ، لا احب ان اشم رائحة تدخين ، (كان التدخين قد حرم عليه بأمر الطبيب) ، وخبر اسماعيل باننى اذا طلبت اليه ماء ان يهييء لى قدحا نصفه ماء عادى والنصف الآخر ماء دافىء . التدخين فى الوكالة ممنوع منعا بابا ، والدفاتر بسرعة ..

وذهب الوكيل لبلاغ الأوامر الجديدة ، متدبرا فى باطنه لانه كان من مدمنى التدخين ، ثم عاد بعد قليل حاملا الدفاتر ، ولم يغيب عنه ما ترك المرض فى طبع السيد من تغير وتبدل . فركبه الهم ، وأيقن انه مقبل على حساب عسير . وجلس كامل أفندى قبالة السيد ، وفتح الدفتر الأول ، وبسطه بين يديه ، فبدات المراجعة . كان السيد فى عمله محيطا ماهرا لا تفوته فائتة وان دقت ، فاكب على مراجعة الدفاتر دفترا دفترا بهمة لا تكل ولا تمل ؛ غير راحم نفسه المتهالكة ، وقد اتصل فى اثناء ذلك ببعض عملائه متحققا من مواعيد حضورهم ، مطابقا بين أقوالهم وبين المكدون فى الدفاتر ، وكامل أفندى صابر متجهم لا يخطر له الاحتجاج على بال . ولم تكن المراجعة بالشئ الوحيد الذى يتابعه بأفكاره ، فكان ينوء صامتا بأمر تحريم التدخين الذى استنصح به على خرة ، وهو أمر لم يحرم عليه التدخين فى الوكالة فعسب ،

ولكنه اضاع عليه في الوقت نفسه ما كان يتفضل السيد بتقديمه له من سجنائر كوتاريلي الفاخرة ، وقد رمق الرجل المكب على الدفاتر بنظرات غريبة . وقال لنفسه متكدرا ساخلا : « رباه . لشد ما تغير الرجل . هذا شخص غريب لا نعرفه ! » وعجب لشاربه الذي احتفظ رغم هذا التغير بضخامته وفخامته في وجه طمست سماته ومعالمه ، وعفى عليها المرض الخطير ، فكانه نخلة سامقة في صحراء جرداء . . واخرجه الحنق والاستياء عن طوره فقال مخاطبا نفسه : « من يدري ؟ . لعله يستاهل ما نزل به ، ان الله لا يظلم احدا » . وانتهى السيد من المراجعة في زهاء ثلاث ساعات ، فرد الدفاتر الى الوكيل ، وهو يعدجه بنظرة غريبة ، نظرة مراجع لم يعثر على ما يرييه ، ومع ذلك لا تخلو نفسه من الريب . وجعل يخاطب نفسه قائلا : « ساعاود المراجعة مرة اخرى ، لا بل مرات حتى اكشف عما تبطن هذه الدفاتر . كلهم كلاب . . بيد انهم اخذوا عن الكلاب نجاستها . وزهدوا في امانتها ! » ثم خاطب الوكيل قائلا :

— لا تنس ما نهتكت اليه يا كامل افندى : رائحة التدخين والماء الدافئ .

وجاء بعد ذلك بعض العملاء من الحاجات فهناوه بالسلامة ، ثم خاضوا فيما لديهم من الاعمال ؛ وقد اراد بعضهم ان يؤجل عمله تخفيفا عنه ، ولكنه قل لهم باستياء :

— لو كنت عاجزا عن العمل ما جئت الوكالة . .

وما كاد يخلو الى نفسه حتى استبدت به افكاره الناقمة الموثورة ؛ فراح يصب غضبه — كديده في هذه الايام الاخيرة — على الناس اجمعين . ولطالما قال عنهم : انهم حسدوه . وانهم نفسوا عليه الصحة والوكالة والحنطور وصينية الفريك ، فلعنهم

من اعماق الفؤاد . وكثيرا ما كان يردد هذه الظنون في أثناء مرضه ، ولم تنج زوجه نفسها من شر ظنونه ، فحدها يوما بنظرة شذراء . وهي تجلس الى جانب فراشه ، وقال لها بصوت يتهدج ضعفا وسخطا :

— و أنت يا ست لك نصيبك من هذا ، فطالما دوختني بقولك ان ايام الصبينة انتهت ، وكأنك تنفسين على صحتي ، فلان كل شيء انتهى فقرى عينا ..

وقد تأثرت المرأة بقوله واستعبرت طويلا ، ولكنه لم يرق لها : ولم يكن من حديثه واستدرك يقول مغيظا محقنا :
— حسدوني .. حسدوني ، حتى زوجتي وام ابنائى قد حسدتنى .. !

ولكن اذا كان زمام الحكمة قد أفلت من يديه ، فقد كان الموت قبل ذلك تخايل لعينيه غير بعيد . وان ينس لا ينسى تلك الساعة المروعة الزلزلة ساعة الازمة . كان يتهيأ للهجوع حين أحس بنغصة تصدع لها صدره ؛ وشعر بحاجة ماسة الى تنفس عميق . ولكن عجز عن الشهيق والزفير ، وكان كلما عاود المحاولة حزه الألم وقطعه الوجع . حتى استسلم فى قنوط وعذاب مريرين ، وجاء الطبيب وتجرع العقاقير ، ولكنه لبث اياما يراوح بين يقظة الحياة وغيبوبة الموت . وكان اذا رفع جفنيه المتعبين الثقيلين رأى بصر زائغ زوجته وبناته وابناءه محدقين به ، محمرة اعينهم من البكاء؛ وهوى الى تلك الحالة الغريبة التى يفقد الانسان فيها كل ارادة على جسده وعقله فيلوح له العالم سحابة دكناء من ذكريات غامضة متقطعة لا تبين ولا تكاد تربط بينها رابطة .

وفى اللحظات القليلة التى استرد فيها شيئا من وعيه كان يتسائل فى رجفة باردة : « هل اموت ؟ ! » ايمرت وحوله الاهل جميعا ؟ ! . ولكن الانسان لا يفارق الدنيا عادة الا منتزعا من ايدى

أحبائه ، فماذا أفاد الأموات تعلق الأحياء بهم ؟ ! ورغب ساعتئذ أن يدعو الله وأن يتشهد ، فخانه ضعفه ، وتصاعد الدعاء والشهادة حركة باطنية ابتل بها ريقه الجاف . ولم ينس إيمانه - على رسوخه - أهوال تلك الساعة ، فاستسلم جسمه على رغبته ، أما روحه ، فتعلقت بأهداب الحياة في نزع وجزع ، حتى سحت عيناه دمعاً مدراراً ونطقت نظرتهما بالاستصراخ والاستغاثة . ولكن كان في الأجل بقية - فجاز طور الخطر ، وبلغ بر النقاة . ورجع إلى أحضان الحياة رويداً رويداً ، ومنى نفسه باسترداد صحته وعافيته وسابق سيرته ، ولكن تحذيرات الطبيب ووصاياه اهتصرت أميته ، وقضت على أمله ، ولم تبق له من الحياة إلا على شيء يسير . أجل ، أجل ، نجا من الموت ، ولكنه انقلب شخصاً جديداً ذا جسم رقيق وروح مريض . وبكرور الأيام استفحل مرض روحه فصار ضجراً وتمرداً وكراهية وعبوساً . وقد عجب لهذه العثرة التي اعترضت سبيل حظه ، وتسائل : بأي ذنب آخذ الله سبحانه ؟ وكان ذا ضمير من هذه الضائر الراضية التي تقيم الإعدار لأصحابها وتحسن مسالكهم ، وتغضى عن أخطائهم ؛ وكان يحب الحياة حباً جماً ، فتمتع بماله وتمتع به آله ، والتزم - فيما يظن - حدود الله ، فاطمان بذلك إلى الحياة اطمئناناً عميقاً ، حتى انتبه منه على هذه الهزة العنيفة التي ذهبت بصحته ، وأوشكت أن تذهب بعقله . ما ذنبه ؟ ... لا ذنب له ، ولكنهم أناس غرماؤه ، وهم الذين أوردوه بحسددهم هذا العطب اللابدى ! . وهكذا أمر من نفسه ما كان حلواً ، وارتسم على جبينه عبوس لا يريم . والحق أن ما فقد الرجل من صحته لم يكن سوى شيء يسير بالقياس إلى ما فقد من أعصابه .

نوفد تسائل وهو جالس إلى مكتبته في الوكالة : أحقا لم يبق له من الحياة إلا أن يقبع في هذا المكان ويراجع الذنتر ؟! وتراعى له

وجه الحياة اشدّ تجمها من وجهه ، وجمد كالتمثال ، ومضى وقت لا يندريه وهو غارق في افكاره ، حتى سمع حسا عند مدخل الوكالة ، فالتفت نحوه فرأى أم حميدة مقبلة بوجهها المجذور ، ولاحث في عينيه نظرة غريبة ، فسلم ، وانصت بربع انتباه الى دعاء المزاة وترجيها ، وقد شغلته الذكريات القديمة عما عداها .

اليس من العجيب ان ينسى حميدة كانها شيء لم يكن ؟ ! لقد طافت به ذكراها في نومه مرات ، ومرت به دون ان تترك اثرا . لم يأسف عليها بمثل ما طمع اليها ، ثم أنسيها بعد ذلك كانها شيء لم يكن ، أو كانها كانت نقطة في دم الصحة الذي كان يجري في مروه . فلما ان غاب ونضب تطايرت في الهواء . وغابت عن عينيه النظرة الغريبة التي رسمتها الذكريات ، وعاد يسره الى جموده ، فشكر للمرأة حضورها لتهنئته ودعائها للجلوس ، ووجد مضايقة في حضورها كادت تنقلب كراهية . وتساءل عما دعائها للمجيء حقا ، اهو التهنئة الخالصة لوجه الله ام الاطمئنان على ما سبق منه من رغبة ؟ ! ولكن المرأة لم تكن عند سوء ظنه ؛ لانها كانت آيست منه منذ امد بعيد . ومع ذلك قال لها وكأنه يعتذر :

— اردنا . . . واراد الله . . .

فادركت المرأة مقصده وقالت بعجلة :

— لا عليك من هذا يا سي السيد . وما نسأل الله الا الصحة والعافية .

وسلمت المرأة مرة أخرى وغادرت الوكالة وقد تركته اسوأ حالا واشد انقباضا . . . وقد حدث عند ذلك ان انزلق شوال حناء من بين يدي عامل ، فاشتد به الغضب ، وانتهره بقسوة صائحا :

— ستغلق عما قريب الوكالة ابوابها ، فابحثوا عن مرتزق جديد . . . !

ولبت برهة ينتفض من شدة الغضب والتأثر ، وكان هذا

الغضب ذكره بما اقترحه عليه ابنائه أخيرا من تصفية أعماله والخلود للراحة ، فتضاعف غضبه وهياجه ، وجعل يقول لنفسه انها ليست راحتته التي يبتغون ولكنه المال . ألم يقترحوا عليه الاقتراح نفسه سابقا وهو في عنفوان قوته ؟ .. فالمال طلبتهم ، لا صحته ولا راحتته ، ونسى في غضبه أنه - هو نفسه - كبير عليه ان تنحصر آماله في العمل في الوكالة ، والا يجد من لذة الحياة الا ارهاق النفس في جمع مال لا يستطيع ان يتمتع به ، ولكنه العناد الذي أولع به أخيرا ، وسوء ظنه بالناس جميعا الذي لم ينج أولاده أنفسهم وزوجه من بعض آثاره ... وقبل أن يغيق من حمى الغضب والهياج سمع صوتا جهوريا يقول في عمق وحنان معا :
- حمدا لله على السلامة ... السلام عليكم يا أخى ..

فالتفت نحو مصدر الصوت فرأى السيد رضوان الحسينى مقبلا ، بجسمه الطويل العريض : ووجهه المشرق المتألق . فانبسطت أساريره لأول مرة وهم بالوقوف ، ولكن السيد بادره بوضع راحته على منكبه وهو يقول :
- حلفتك بالحسين الا ما جلست ..

وتصافحا بحرارة . وكان السيد رضوان قد زار قصر الرجل مرات في اثناء مرضه : ولما لم يمكنه مقابلته بعث له بتحياته ودعواته . وجلس السيد على مقعد قريب وراحا يتحدثان في رقة ومودة . قال السيد سليم علوان بتأثر شديد :
- نجوت بأعجوبة ..

فقال السيد رضوان بصوت عميق هادئ :
- الحمد لله رب العالمين ، نجوت بأعجوبة ، وتعيش بأعجوبة .
كلنا - لو تعلم - نعيش بأعجوبة . ان استمرار حياة المرء ثانية واحدة من الزمان يحتاج لمعجزة ضخمة من القدرة الالهية ، فعمر أى انسان فان سلسلة من المعجزات الالهية ، وما بالك بأعمار

الناس جميعا ، وحيوانات الكائنات جميعا ! ! . فلنشكر الله بكرة
وأصيلا ، أثناء الليل وأطراف النهار ، وما أتفه شكرنا حيال هذه
النعم الربانية .

واصفى إليه في جمود ، ثم تمتم قائلا بضجر :
— المرض شر قبيح .

فابتسم السيد رضوان وقال :

— ربما كان كذلك في ذاته ، ولكنه من ناحية أخرى امتحان
إلهي ، وهو من هذه الناحية خير .

ولم يرتج الرجل لهذه الفلسفة ، وحنق بغتة على قائلها ،
فضاع الأثر الطيب الذي أحدثه مجيئه ، ولكنه لم يستسلم
لأنفعاله على غير عادته أخيرا وقال بلغة وشت بتدمره :

— ماذا فعلت حتى ينزل بي هذا العقاب ؟ ... ألا ترى أنني
فقدت صحتي إلى الأبد ..

فعبث السيد بلحيته الجميلة ، وقال بشيء من المعاتبة :

— أين يقع علمنا الضحل من هذه الحكمة الباهرة ؟ . حقا
إنك رجل طيب ، بار ، كريم ، قوام على الفرائض ، ولكن الله
امتحان عبده أيوب وهو نبي ، فلا تأس ولا تحزن ، وأبشر بالإيمان
خيرا ..

ولكن الرجل زاد أنفعاله ، وقال بحدة :

— أرايت إلى المعلم كرشة كيف يحتفظ بصحة البغال ؟

— أنك بمرضك خير منه بصحته وعاقبته ...

وغلبه الغضب فرمق محدثه بنظرة ملتهبة وقال :

— أنك تحدث في سكينه وطمانينة ، وتعط في ورع وتقوى ،
ولكنك لم تلدق بعض ما ذقت ، ولم تخسر شيئا مما خسرت .
وطامن رأس السيد حتى ختم الرجل خطابه ، ثم رفع رأسه
وعلى شفثيه ابتسامته الحلوة ، وحلجه بنظرة عميقة من عينيه
الصافيتين ، وسرعان ما استكان غضبه وفتر أنفعاله ، وكأنه يذكر
زقاق الخلق

— ١٦٤ —

لاول مرة ، انه يخاطب اكبر مصاب من عباد الله . وطرفت عيناه ،
وتورد وجهه الشاحب قليلا ، ثم قال بصوت ضعيف :

— اعدرنى يا أخى ، انى تعب مرهق ..

فقال السيد ولم تغلق الابتسامة شففيه :

— لا عليك من هذا ، قواك الله وسلمك . اذكر الله كثيرا
فبذكر الله تطمئن القلوب ، ولا تدع الاسى يغلب عليك ايمانك أبدا ،
فالسعادة الحققة تتردد عنا على قدر ما نرتد عن ايماننا .

فقبض الرجل على ذقنه بشدة وقال بحقنق :

— حسدونى ، نفسوا على المال والجاه ، حسدونى يا سيد
رضوان !

— الحسد شر من المرض . وانه لمن المخزن حقا ، ان الذين
ينفسون على اخوانهم حظهم من المتاع الفانى كثيرون . لا تأس ،
ولا تحزن ، وسلم الى الله ربك الرحيم الغفور ..

وتعادنا طويلا ، ثم ودعه السيد رضوان وانصرف ، ولبت
الرجل هنيهة كالهساذى ، ثم اخذ يعود رويدا الى عبوسه
وتجهمه ، ونبا به القمود طويلا ، فنهض قائما ، ومشى متمهلا
الى باب الوكالة ، ووقف عند مدخلها شابكا يديه وراء ظهره .
كانت الشمس تعلو كبد السماء ، والجو دافئا مشرقا . وقد بدا
الزقاق كالقفر فى تلك الساعة من الظهيرة ؛ اللهم الا الشيخ
درويش الذى جلس امام القهوة يتشمس . فلبث السيد مليا ،
ثم تلفت — بحكم عادة قديمة — نحو النافذة ، فوجدها مفتوحة
خالية ، وكأنه ضاق بموقفه فرجع الى مجلسه عابسا ...

٢٣

« .. لن امرد الى القهوة . حتى لا اثير الشبهات .. » ، هذا ما قاله لها عند افتراقهما . وقد ذكرته حميدة في صباح اليوم التالي لمقابلة الدراسة ، ذكرته بخيال حى يقظ سعيد ، وتساءلت: اذهب للقاءه اليوم ؟ فاجاب قلبها : « نعم » دون خفاء . ولكنها قالت بعناد : « كلا .. يجب ان يعود الى القهوة أولا » ، وامتنعت عن الخروج في موعدها المألوف ، وقبعت وراء النافذة تنتظر ما يكون ، وانصرفت ساعة المغيب ، واطبق الليل ناشرا جناحيه ، وعند ذاك اقبل الرجل من أسفل الزقاق مصوبا عينيه نحو الزيق الذى انفرج عنه خصاص النافذة تلوح في وجهه ابتسامة تنم عن التسليم ، وجلس على كرسيه المختار . وشعرت وهى تراقبه بهجة الانتصار ، ولذة الانتقام لعذابها يوم اعيائها العثور عليه فى الموسيقى . والتقت عيناها طويلا - دون أن تغضى أو ترتد عن موقفها - فازداد ظل ابتسامته امتدادا ، ووشى وجهها بابتسامة وهى لا تدري . ماذا يبغى يا ترى ؟ وبدا لها هذا السؤال غريبا ، إذ انها لا تدري لمثل الحاجة فى طلبها الا معنى واحدا ، سعى اليه من قبل عباس الخلو ، وطمح اليه السيد سليم علوان قبل أن يحطمه الدهر ، فلماذا لا يكون غاية هذا الافندى الوجيه ؟ ! أو لم يقل لها : « الست فى الدنيا لتؤخذى ؟ .. وانى لأخلدك .. » ؟ ! فما عسى أن يعنى هذا ان لم يعن الزواج ؟ ! ولم يعق أحلامها عائق ، لشدة شعورها بقوتها وثقتها بنفسها بل لغرورها الجامح . وجعلت تنظر اليه من وراء خصاصها المنفرج . وتتلقى نظراته المسترقة باطمئنان وثبات وبلا تردد . وحادثتها عيناه حديثا عميقا

يعبى اللسان والحواس جميعا . فتردد صدها في أعماق نفسها
مجركا غرائزها . ولعلها وجدت هذا الشعور العميق الصادق
- وهى لا تدري - يوم التقت عيناهما أول مرة ، يوم حدجها
بنظرة العارمة المتحدية ، وابتسم اليها تلك الابتسامة الظافرة ،
فانجذبت اليها كما تنجذب الى المعترك المستمر . والحق انها
عرفت قدرا من نفسها على ضوء عينيها ، فلم تعد الضالة في متاهة
الحياة ، ولم تعد الحائرة الى نظرة عباس الخلو الوديمة ، وثروة
السيد علوان الطائلة ، ولكنها شعرت بان هذا الرجل طلبتها ، وان
ما يستثيره في صدرها من الانفعال والاعجاب والاستغراز هو لديها
التي تجذب اليها بفطرتها ، كما تجذب ابرة البوصلة الى القطب ،
وانه رجل من غير الخثالة التي يستعبد الفقر والحاجة كما يشهد
بذلك مظهره وأوراقه المالية . وراحت ترنو اليه بعينين متالقتين
تذكيان ضياء من وجد وتوثب ، ولم تبرح مكانها حتى غادر
القهوة وهو يودعها بابتسامة خفيفة . فاتبعت ناظريها وهى تقول
وكانها تتوعده : « غدا » .

وفى عصر الفد غادرت البيت بقاب مأزء الشوق والتحدى
واليهام بالحياة . وما كادت تخرج من الصنادفة حتى راته عن
بعد واقفا عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة ، فلاحته في عينيها
لمعة خاطفة ، وانبعث في صدرها شعور غامض غريب ، وهو مزيج
من السرور والرغبة الوحشية في القتال . وقدرت انه سيتبعها
في الذهاب والاياب حتى يخلو لهما الجو في الدراسة ، فسارت على
مهل دون أن يخالجها شعور بالاضطراب أو الحياء ، واقتربت منه
كانها لا تراه ، ولكن حدث - وهى تمر به - ما لم يقع لها في
حسبان ، فقد سار معها ومد يده بجراة لا توصف فقبض على
راحتها ، وقال لها بهدوء متجاهلا المارة والواقفين :

- مساء الخير يا عزيزتى ..

أخذت على غرة ، فحاولت أن تسترد يدها ولكنها لم تفلح ،
وخافت أن أعادت الكرة أن تستلفت الأنظار ، فاستولى عليها
الارتباك والغيبظ ، ووجدت نفسها بين اثنين فاما غضب وفضيحة
وجرسة ثم قطيعة ، واما استسلام تستكرهه لأنه فرض عليها
فرضا وقهرا ، فامتلات حنقا ، وهمست بصوت منخفض متهدج
من الغضب :

— كيف تجرؤ على هذا ؟ .. دع يدى بسرعة ..

فأجابها بهدوء وهو يمشى الى جانبها كأنهما صديقان ينطلقان
معا :

— حلمك .. حلمك ، لا كلفة بين الاصدقاء ..

فقالت وهى تتميز غيظا :

— الناس .. الطريق ..

فاستعطفها بابتسامة قائلا :

— لا تبالى أناس هذا الطريق ، فهم مجانين المال ، ولا يرون

الا ما فى رموسهم من حسابات ، هلا ملت الى دكان صائغ فانتق

لك منه حلية تليق بحسبك .. ؟

فاشتد غيظها لعدم مبالاته وقالت بوعيد :

— انتظاها بأنك لا تعبأ شيئا ؟

فقال بهدوء والابتسامة لا تغارق شفتيه :

— لست أقصد اثارك ، ولكنى انتظرتك لئمشى معا ، ففيم

غضبك ؟

فقالت بحدة :

— انى امقت هذا التهجم فاحذر ان تخرجنى عن وعيى ..

وطالع نذر الشرفى وجهها فسألها فى رجاء :

— أتعديننى بأن نسير معا ؟

فهمتت به :

— ١٩٨ —

— لا أعد شيئا .. دع يدى ..
فأطلق يدها دون أن يبتعد عنها ، وقال لها متملقا :
— يا لك من جسارة عنيدة ، هاك يدك ، ولكننا لن نفرق ،
أليس كذلك ؟

وتنهدت فى غيظ ، ونظرت اليه شزرا وهى تقول :
— يالك من سمج مغرور !
فتقبل الستيمة بابتسام وصمت ، وسارا جنبا لجنب دون
أن يبتعد عنه ، وذكرت كيف تربصت له بالامس القريب لتمثل
به فى هذا الطريق ، ولكنها الآن لا تفكر فى هذا وحسبها انها أجبرته
على اطلاق يدها ، بل لعله لو حاول استردادها مرة أخرى لما
مانعت ، وهل كانت غادرت بيتها وفى عقلها شيء غير لقائه لا ! .
وفضلا عن هذا كله فقد ساءها ان يبدو أشد طعائنة وجساره
منها ، فسارت الى جانبه غير عابئة بالسابلة ، متخيلة ما سيحدثه
منظره فى نفوس فتيات المشغل من الدهشة المقرونة بالחסد .
وسرعان ما عاود قلبها الشوق والاستهانة والرغبة الجاخحة فى
الحياة والمغامرة .. وراح الرجل يقول :

— انى أعتذر عما بدر منى من خشونة ، ولكن ما حيلتى فى
عنادك ؟ ! تعمدت تعديبى ، وما استحق الا عطفك جزاء ما اكن
لك من عاطفة صادقة ، وما أبدل فى سبيلك من عناء متصل .
ما عسى ان تقول له ؟ انها ترغب أن تخاطبه ، وان تبادلها
الحديث ، ولكنها لا تدرى كيف ، خصوصا وأن آخر ما نطقت به
كان نهرا وشتيمة ، وقطع عليها تفكيرها أن رات صويحباتها
مقبلات غير بعيدات ، فقالت بارتياح كاذب :

— صاحبائى ... !

ونظر الرجل فيما أمامه فراى الفتيات وقد ركزن عليه
نظرات متفحصة ، عادت تقول بلهجة تنم عن التأنيب ، وهى
تدارى سرورها :

— ١٩٩ —

— فضحتنى .. !

فقال بازدرء ، وان سره ان تلازم جانبه ، وان تخاطبه خطاب
الرفيق للرفيق ...
— لا عليك منهن .. فلا تباليهن ..

واقترب الفتيات ، فبادلتهم نظرات ذات معان ، وهى تذكر
بعض ما قصصن عليها من مغامرات ، ثم مررن بهما متضاحكات
متهامسات . وعاد الرجل يقول فى خبث ودهاء :
— اهؤلاء صاحباتك ؟ ... كلا ، لا أنت منهن ولا هن منك .
ولكنى أعجب كيف يتمتن بحريتهن بينما تقبعين أنت فى البيت .
وكيف يرفلن فى الثياب الزاهية بينما تلتحفين أنت فى هذه الملاءة
السوداء ! وكيف حدث هذا يا مليحة ؟ .. اهو الحظ ؟ ولكن
يا لك من صابرة متجلدة ؟ !

وتورد وجهها ، وخيل اليها انها تصفى الى قلبها يتحدث .
وقبست عينها جدوة من قلبها المستعر حماسا وعاطفة ،
واستدرك هو بثقة ويقين :
— هذا حسن خليك بالنجوم ...

واهتبلت هذه الفرصة لتبادله الحديث ، فغطت نحوه رأسها
مبتسمة بجرأتها الفطرية . وتساءلت وهى لا تدري ما يعنيه :
— النجوم ؟ !

فابتسم البها ابتسامة حلوة وقال :
— نعم . الا تذهبن الى السينما ؟ .. يدعون الحسناوات من
المثلات بالنجوم .

وكانت تذهب الى سينما أوليمبيا مع أمها فى فترات متباعدة
لمشاهدة بعض الأفلام المصرية ، فأدركت ما يعنيه ، وغمر شعورها
سرور راقص لاحت آثاره الوردية فى خديها ، وسناد الصمت
خطوات ثم سألها برقة :

— ٢٠٠ —

— ترى ما اسمك ؟

فقالت بلا تردد :

— حميدة . .

فقال مبنسما :

— اما الذى سحرت ليه ففرج ابراهيم . فى مثل حالتنا يكون الاسم آخر ما يعرف ، وهو يعرف عادة بعد ان يكون الشخصان قد ايقنا انهما واحدا ، اليس كذلك يا ست الملاح ؟

ليتها تتقن الكلام كما تتقن السب والعراك مثلا ! انه يحسن الحديث ولكنها عاجزة عن مجاراته . وقد ضايقها ذلك . ولم تقنع بالدور السلمى الذى يلذ بنات جنسها ، وتشوقت بفطرتها الى شىء آخر ، غير الانتظار والسكوت والحياء . ولما كان الافصح عن هذا الشعور غير ميسور ، فقد ساورها قلق وانفعال ، وحديثه بنظرة ثاقبة ، وزاد من اسباب انفعالها ان انتهى الطريق ، فشارفا ميدان الملكة فريدة على غير شعور بالوقت ، ولم تر بدا من ان تقول وهى تدفن حشرتها فى اعماقها :

— الان نعود .

فقال بانكار :

— نعود !

— هذه نهاية الطريق .

فقال محتجا :

— ولكن الدنيا لا تنتهى بانتهاء الموسيقى ، لماذا لا نجول فى

الميدان ؟

فقالت على رغمها :

— لا اريد ان اتاخر عن موعد عودتى ان تغلق امى . .

فقال باغراء :

— اذا شئت ركبنا تاكس فيقطع بنا مسافة طويلة فى دقائق

معدودات .

— ٢٠١ —

تاكس ! لقد رنت الكلمة فى أذنيها رنيناً عجيباً . ولم تكن ركبت فى حياتها الا العربى الكارو ، ومضت ثوان قبل ان تفيق من سحر الكلمة العجيبة ، بيد أن الامر لا يخلو من اعتبار آخر هو ركوب التاكس مع رجل غريب ، الا انها وجدت فى هذا الاعتبار داعياً للهجوم لا للنكوس ، وتولاها نزوع طاغ الى المغامرة ، كأنما لقيت فيه ترويحاً عن ذاك الشعور القلق المكتوم الذى اعياها الافصاح عنه قبل ذاك بقليل ، ولم تكن تدري أن بها مثل هذه الطافه على الاسننتار والمغامرة حتى ليتعذر القول ايها كان اشد استحواذاً على مساعرها فى تلك اللحظة : الرجل الذى حرك اعماقها ام المغامرة ذاتها ، ولعلهما كانا الاثنى معا . ولاحت منها نظرة اليه فرأته ينظر اليها باقراء وعلى شففيه ظل من الابتسامة التى طالما اهاجتها ، فتغير شعورها وقالت :

— لا اريد أن أتأخر ...

فشعر بخيبة وقال متأسفاً :

— اتخافين ؟ ...

فازداد شعورها حدة وقالت بتحد :

— لست أخاف شيئاً .

فأضاء وجهه ، وكأنه عرف أشياء وأشياء ، وقال بسرور :

— سأذهب تاكس .

وكفت عن المعارضة ، ونبتت عيناها على التاكس وهو يقترب من موقفهما حتى وقف قبالتها ، وفتح الباب لها ، فانحنى قليلاً خافقة الفؤاد وهى تقبض على مساك ملاءتها ، وصعدت اليه ، وتبعها الرجل وهو يقول لنفسه بارتياح : « وفرنا تعب يومين أو ثلاثة أيام » . ثم سمعته يقول للسائق : « شارع شريف باشا .. » . شريف باشا ، لا المدق ولا الصناديق ولا الغورية ولا حتى الموسيقى ، شريف باشا ! .. ولكن لماذا عين هذا الشارع بالذات ؟! . وسألته :

— أين تقصد ؟

فقال ، وكان كتفه يمس كتفها :

— نجول قليلا ثم نعود ...

وتحرك التاكسي فتناست كل شيء الى حين ، حتى ذلك الرجل الذى يكاد يلتصق بها ، وقلقت عينها بين الانوار التى تتخطفهما ، فلاح لها الدنيا الجديدة خلال زجاج النافذة باهرة ضاحكة ، وانتقلت حركة التاكسي الى جسمها وروحها ، فانبعثت فى نفسها نشوة مطربة ، وتهيأ لها أنها تطير طيرانا ، وتحلق فى سماء الدنيا ، وكان وجدانها من البهجة يسجع شاديا متجاوبا مع انسياب الحركة وتجدد المناظر والانوار ، حتى تالقت عينها بوميض مشرق ، وافترثرها عن اشراق وذهول . وجرى التاكسي فى خفة ، يخوض خضما من العربات والسيارات والترام والناس ، وجرى معه خيالها . فاستمر حماسها ، وسكرت مشاعرها ، ورقص قلبها ودمها وخواطرها . ثم افافت افافة مباغتة على صوته يهمس فى اذنها قائلا : « انظري الى الحسان كيف يرقلن فى ثيابهن النورانية ! » أجل .. انهن يتمايلن مبعثرات كالكوكب المنيرة .. ما أجملهن ، ما أبلههن ! . وذكرت عند ذلك فحسب ملأتهما وشبشبها فانقبض قلبها واستيقظت من نشوتها كما يستيقظ الحالم من حلمه السعيد على لدغة عقرب . وعضت على شفتيها فى امتعاض ، ثم تملكته مرة أخرى روح التمرد والثورة والعراك ! . وتنبهت الى أنه التصق بها وهى لا تدرى ، فأخذت تستشعر مسه الذى انتشر فى حواسها ، وحمى به قلبها ، فهفت اليه بقوة فوق ارادتها . ورنا اليها بلحظ كأنها يستطلع ميولها ، ثم تناول راحتها بلطف وجعلها بين راحتيه ، وتشجع باستسلامها فهوى بفمه اليها ، وكأنها أرادت ان تنقيه فالتفت برأسها الى الوراء قليلا . ولكنه لم يجد فى ذلك رادعا

كافيا فطبع شفثيه على شفثيها وسرت في أعماقها رعدة ، وشعرت ،
برغبة جنونية تدعوها الى أن تعض شفثيه حتى تدميها ؟ . رغبة
جنونية حقا ، ركبتها كما يركبها عفريت العراك ، ولكنه إرتد
عنها قبل أن تنفذها ! ولبثت شعلة الجنون متأججة في صدرها
تهيب بها أن ترمى على صدره وتنشب اظافرها في رقبتة ،
حتى أنقذه منها صوته وهو يقول برقة :
- هذا شارع شريف باشا . . . وهذا بيتي على بعد خطوات
الا تحبين أن تريه ؟ .

والتفتت متوترة الأعصاب الى حيث توميء سباته فرأت
عمارات تناطح السحاب لم تدر أيتها يعنى . وأمر الرجل السائق
بالوقوف امام واحدة منها ، وقال لها :
- في هذه العمارة .

ورأت عمارة ضخمة سامقة ذات مدخل أوسع من زقاق
المدق ، ثم ارتد عنها طرفها في حيرة ، ثم سألت بصوت منخفض :
- في أى طابق ؟ .
فقال مبتسما :

- الأول . . لن تتجشمي مشقة اذا تفضلت بزيارتها .
فرمته بنظرة حادة منتقدة فاستدرك قائلا :
- ما أسرع غضبك ! . ومع ذلك دعيني أسألك ما وجه
العيب في ذلك ؟ ألم أزرك دواما منذ وقعت عليك عيناي . فلماذا
لا تردين الزيارة ولو مرة واحدة ؟ .

ماذا يريد الرجل ؟ . أتحده نفسه بأنه وقع على صيد سهل .
أطعمته القبله التي استسلمت لها فيما هو أجل وأخطر ؟ . هل
أعماه ضروره وشعوره بالظفر ؟ . . وهل هذا مآل الحب الذي
أفقداه وعيها ؟ . واشتعل الغضب بقلبها ، وتوثبت جميع قواها
للنضال والتحدى ، وتمنت لو تطاوعها نفسها على السير معه الى

حيث يريد ، لنريه من نفسها ما يجهل ، ولترد اليه صوابه ،
أجل ، دعاما شعورها المتمرد الجامح الى خوض غمار هذه المعركة .
وهل كان في وسعها ان تدعى الى النزال ثم تعرض عن الداعى ؟!
لم يكن الذى يستفزها غضب للفضيلة او الخلق او الحياء ، فهذه
جميعها اعتبارات لم تالف الغضب لها او الفرة عليها ، ولكنه
غضب لكبرياتها وشعورها الطاغى بقوتها ورغبتها الجنونية في
الملاحاة والعراك ، ولم تخل ايضا من جنون المغامرة الذى قدف
بها الى التاكس ! وجعل الرجل ينعم اليها النظر وهو يقول لنفسه
في تفكير وسخرية معا : « محبوبتى من النوع الخطر الذى يفرق
باللمس فيستوجب العناية الشديد والترويض الماهر » ، ثم قال
لها برجاء ورقة :

— ارجو ان اقدم لك قدحا من الليمون .

ورمقته بنظرة قاسية متحدية ، ثم غمغمت :

— لك ما تناء ...

وفتح الباب مسرورا ، وانزلق الى الطريق ؛ وتبعته على
الائر في استهانة وجراة ، ووقفت تتفحص المكان والرجل يدفع
الأجرة للسائق . وجرت خواطرها الى الزقاق الذى خرجت
منه اليوم : وعجبت للمغامرات التى اقتحمتها غير هيابة حتى
انتهت الى هذه العمارة الهائلة ! من يصدق هذا ؟! . وما عسى
أن يقول السيد رضوان الحسينى مثلا لو رآها تمرق الى هذه
العمارة ؟ . وارتسمت ابتسامة على شفتيها ، ودخلها شعور
غريب بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتها على الإطلاق .

وهرع الرجل اليها ، وأخذ يدها ، فدخل الى العمارة معا ،
وارتقيا سلما عريضا الى اول طابق ، ثم سارا في ردهة طويلة
الى باب شقة على يمين القادم واستخرج من جيبه مفتاحا عالج
به الباب وهو يقول لنفسه بارتياح : « اكتسبت يوما او يومين

آخرين ! » ثم دفع الباب واوسع لها ، فدخلت ودخل وراءها ، ثم أغلقه . وجدت نفسها في دهليز طويل يعترض الداخل تحديق به الحجرات من الجانبين ، ويضيئه مصباح كهربائي قوى الاشعاع . ولم تكن الشقة خالية ، ففضلا عن المصباح الذى كان مضاء قبل مجيئهما ترامت الى اذنيها اصوات من وراء الأبواب المغلقة ، كلام وزعق وغناء ! . واتجه فرج ابراهيم الى الباب قبالة المدخل ودفعه ، ودعاها للدخول ، فانتقلت الى حجرة متوسطة ، مؤثثة بمقاعد جلدية ما بين كراسي وكنبات ، تتوسطها سجادة مزركشة ، وفى الصدر منها مرآة مصقولة تناطح السقف ، وتنهض على منضدة مستطيلة مذهبة الارجل ، وقد طالع الرجل نظرة الدهشة الحائرة فى عينيها بسرور وقال لها بلطف :

— اخلعى ملاءتك وتفضلى بالجلوس .

فاقتعدت كرسيًا دون أن تخلع ملاءتها وقد ارتاح جسمها الى مسنده ومقعده الطريين ، وتمتت بلهجة تنم عن التحدير :

— ينبغي الا اتأخر .

فمضى الى مائدة انيقة وسط الحجرة قام عليها « ترموث » وفص سدادته وأفرغ منه فى قدحين « شراب الليمون المثلوج » وقدم لها قدحا وهو يقول :

— سيعود لك التاكس فى دقائق .

وشربا معا حتى روبا ، ثم أعادا القدحين الى المائدة ، وفى اثناء ذلك استقرت اليه نظرات فاحصة ، سبرت بها جسمه الفارع الرشيق ، وثبتت عيناها غير قليل على يده فراعها جمالها وجاذبيتها ؛ كانت جميلة التكوين ، رشيقته ، سبطة الانامل ، توحى بالقوة والجمال معا ، فنالها منها تأثير عجيب لم تجده لغير نظرتيه من قبل ، وجعل يطيل النظر اليها مبتسما ابتسامة رقيقة كأنها يطمئنها ويشجعها ، ولكنها لم يداخلها ظل من الخوف وأن

- ٢٠٦ -

توترت اعصابها قليلا من الحذر والتوجس والتؤبب ، وذكّرت
الاصوات التى سمعتها حال دخولها الشقة ، فعجبت كيف
انسيتها ، وسألته :

- ما هذه الضوضاء فى الشقة ؟

فأجابها قائلا وكان لا يزال واقفا قبالتها :

- بعض الأهل وسوف تعرفينهم فى الوقت المناسب .. لماذا
لم تخلعى ملاءك ؟

وكانت ظننته يقيم بمفرده حين دعاها الى بيته ، فعجبت
كيف يقودها الى بيت مأهول ، وتجاهلت سؤاله الأخير ، ولبثت
ترنو اليه بسكينة وتحد . ولم يعاود سؤاله ، ولكنه اقترب منها
حتى مس حداؤه شبيبها ، ومال نحوها قليلا ثم مد يده الى
يدها فشد عليها ، وجذبها برقة وهو يقول :

- هلمى نجلس على الكنبه .

ولم تمنع فنهضت قائمة الى حيث جلسا جنبا لجنب على
كنبة كبيرة . وكانت تتقاسمها فى تلك اللحظة مشاعر الميل الى
الرجل الذى تحبه واحاسيس التحدى للرجل الذى قد تمنيه
نفسه بأنه قادر على الضحك على ذقنها . واقترب الرجل منها
رويدا حتى لاصقها ، ثم احاط خاصرته بذراعه ، وهى مستسلمة
ساكنة لا تدرى متى يحق لها المقاومة ، ومد يده الى ذقنها
فرفع ثغرها اليه وهوى بغمه متمهلا كأنه ظمان يكرع من جدول ،
حتى التقت الشفاه ، وطال التقاؤها كأنما أخذتهما سنة من
الفرام . واما هو فكان يستجمع حرارته وقوته فى شفثيه لينفذ
بهما الى ما يريد ، اما هى فكانت تسكر وتثمل ، الا ان توثبها
أفسد عليها رقية السحر التى تحرق شفثيها فظلت متنبهة
متربصة ، وأحست يده تسترخى عن خاصرته ، وترفع الى
منكبها ، ثم تهفو الملاءة عنه ، فخفق فؤاها بعنف ، وتصلب

عنقها مبتعدا عنه ، وأعادت الملائة بحركة عصبية الى موضعها
وهى تقول بجفاء :
.. كلا ..

ونظر اليها بدهشة فوجدها تطالعه بنظرة جامدة تنطق
بالاباء والعناد والتحدى ، فابتسم متبالها وهو يقول لنفسه :
« هى كما ظننت متعبة ، بل متعبة جدا » .. ثم خاطبها قائلا
بصوت منخفض .

— لا تؤاخذبنى يا عزيزتى فقد نسيت نفسى ...
وأدارت وجهها عنه لتخفى ابتسامة ارتسمت على شفيتها
سرورا بالظفر ، ولكن ذلك لم يطل أمده ، فقد وقع بصرها اتفاقا
على يدها فأدركت لأول وهلة الفارق الكبير بين يده الجميلة
ويدها الخشنة ، وتولاها الحياء ثم قالت له باستياء :
— لماذا جئت بى الى هنا ؟ .. هذا شيء سخيف !
فقال معترضا بحماس :

— هذا أجمل شيء فعلته فى حياتى .. لماذا تستوحشين
من بيتى ! .. اليس هو بالتالى بيتك أيضا ؟!
ولاحت منه نظرة الى شعرها وقد انحسرت عنه الملائة ،
فأدنى رأسه ولثمه قائلا :

— لله ما أجمل شعرك ! .. انه أجمل شعر رأيته فى حياتى .
قال ذلك صادقا على رغم رائحة الغاز التى ذابت فى أنفه ،
فلذاها أطراؤه . بيد انها سألته :
— الام نبقى هنا ؟

— حيث يتم التعارف بيننا ، فلدينا بلا ريب أشياء وأشياء
ينبغى أن نقولها : اخائفة أنت ! .. محال .. أراك لا تخافين شيئا ؟
فغلبها السرور حتى اشتهدت أن تقبله ، ورنق الصفاء فى
صدرها ، وكان يتفرس فى وجهها ، فقال لنفسه : « الآن فهمتك
يا ابنة اللبوة ! » ثم قال لها بصوت تنتفض نبراته حرارة :

— ٢٠٨ —

— لقد اختارك قلبي ، وقلبي لا يكذبني . ومن يجمعهما
الحب لا يفرقهما شيء ، فأنت لي وأنا لك .

'وإدنى وجهه منها كالمتأذن ، فمالت بعنقها نحوه فالتقيا
في قبلة عنيفة ، واستشعر ضغط شفيتها الساحر على شفتيه
يكاد يعصرهما ، فهمس في أذنها :

— محبوبتي .. محبوبتي .

وزفرت من الأعماق ، ثم اعتدلت في جلستها لتسترد أنفاسها
وراح يقول برقة بالغة في صوت كالهمس :

— هنا مكانك ، وهذا بيتك ، بل هذا (وأوماً الى صدره)
مأواك .. فضحكت ضحكة قصيرة وقالت :

— أراك تذكروني بأنه ينبغي أن أعود الآن الى البيت .

وكان في الواقع يستلهم خطة مرسومة من قبل ، فقال بانكار:

— أى بيت تعنين .. بيت الزقاق !.. آه ، ليتك تمسكين

عن ذكر ذلك الحى جميعا . ماذا يعجبك في هذا الزقاق ؟ لماذا
تعودين اليه ؟!

فضحكت الفتاة قائلة :

— كيف تسألني عن هذا ؟! اليس هو بيتي وأهلي ؟!

فقال بازدياء :

— لا البيت بيتك ، ولا الأهل أهلك . انك من طينة أخرى

يا محبوبتي ومن الكفر أن يعيش جسم حى نضير في مقبرة مليئة
بالعظام النخرة . ألم ترى الى الحسان يرفلن في الثياب الفاخرة ؟
وانك لتفوقينهن جمالا وفتنة ، فكيف لا تخطرین مثلهن في المطارف
والخلي ؟ .. ان الله أرسلني اليك لأرد الى جوهرك النفيس حقه
المسلوب ، وعلى ذلك أقول ان هذا بيتك وكفى .

لعبت كلماته بقلبها كما تلعب أنامل العازف بأوتار الكمان :
فخدر شعورها ، وتقارب جفناها ، ولاحت في عينيها نظرة حاملة ،

— ٢٠٩ —

ولكنها تساءلت : ماذا يعنى يا ترى ؟. هذا حقا ما يهفو اليه
فؤادها ، فما السبيل الى تحقيق الاحلام وتقريب المنى ؟. لماذا
لا يفصح عما يريد ويصرح بما ينوى ؟. انه يعبر اروع تعبير عن
آمالها واحلامها ورغباتها ، انه ينطق بلسانها الخفى ويشى باعماقها
جميعا ، انه يجلو الغامض الخفى ويجسم المعروف حتى لكأنها
تراه رؤية العين ، الا شيئا واحدا لم يمسه صراحة ، ولم يقتحم
السبيل اليه ، فما حكمة التردد يا ترى ؟. ونظرت اليه بعينيها
الجميلتين الجسورتين وسألته :
— ماذا تعنى ؟.

فشعر الرجل بانه ينتقل الى مرحلة خطيرة من مراحل خطته
المرسومة ، ورماها بنظرة منوم بارع ثم قال بصوت خافت :
— أعنى ان تبقى فى البيت اللائق بك ؛ وان تتمتعى بأسمع
ما تجود به الحياة .
وضحكت ضحكة قصيرة فى ارتباك وحيرة وتمتمت :
— لا افهم شيئا ...

فمسح على مفرق شعرها بحنان ، متعوذا بالصمت ريثما
يرتب أفكاره ثم قال :
— لعلك تتساءلين : كيف يريدنى على أن ابقى فى بيته ؟ ..
فاذنى لى أن أسالك بدورى : لماذا تعودين الى المدق ؟. التنتظرين
هناك شأن الفتيات البائسات حتى يتعطف رجل من مخلوقات
الزقاق فيتزوجك ويلتهم حسنك النضير وشبابك الغض ثم
يتركك لقى فى الزبالة ؟. لست احادث فتاة بلهاء تذهب بها
كلمة فارغة وتجيء بها أخرى ، ولكنى أعلم علم اليقين أنك شابة
قليلة الاشباه ، جمالك فتان ، ومع ذلك فهو مزية واحدة من
مزايا عديدة تكاد تغطى عليه ، انت الجسارة نفسها ، ومثلك اذا
أراد شيئا بقول له كن فيكون ...

وانكفا لونها ، وجمدت قسماتها ، فقالت بحدة :
— هذه دعابة لا تجوز على ! .. بدأت مازحا ؛ وانتهيت
وكأنك جاد ! ..

— دعابة ! لا والله . لا وحق قدرك عندي . أنا لا اداعب
حين الجد خاصة شخصا مثلك ملأني تقديرا واحتراما وحباً ،
وإذا صدق حدسي فانت قلب كبير يستهين بكل شيء في سبيل
سعادته ، ولا يمكن أن تقف في سبيله عقبة . انى أريد شريكا في
حياتي ، وأنت لشريكى دون الناس جميعا ...

فهمت به في انفعال شديد :
— أى شريك ؟ .. اذا كنت تجد حقا فماذا تريد ؟ ...
الطريق بين . فاذا أردت ...

وكادت تقول : « أن تتزوجنى » ولكنها أمسكت ، وسددت
نحوه نظرات حادة مربية ، فلم يفته مرادها ، واستشعر سخريته
باطنة ، ولكنه واصل سيره حيث لم تعد ثمة فائدة ترجى من
التراجع ، فقال بحماس تمثيلى :

— أريد شريكا محبوبا نقتحم الحياة معا ، حياة النور والثروة
والجاه والسعادة ، لا حياة البيت التعسة والجبل والولادة
والقدارة ، حياة النجوم اللاتى حدثتك عنهن .

وفتحت فاها منزعة ، ثم انبعث من عينيها نور مخيف ،
واصفر غضبا وحنقا ، وغلبها الهياج فصاحت به وقد استقام
ظهرها :

— تدعونى للفساد ! .. يا لك من مفسد اثيم ...
هكذا هدرت في غضبها وإن كان غضبها للمفاجأة التى دهمتها
والخيبة التى أدركتها منه لا للفساد الذى لم تعتد أن تثور له .
وتبسم الرجل كالهذى وقال :
— انى رجل ...

ولكنها قاطعته صارخة مدقوعة بطبعها الحامى :
- لست رجلا : بل أنت قواد .

فضحك ضحكة عالية وقال وما يزال يضحك :
- اليس القواد رجلا ايضا ؟! بلى .. وهو رجل ..
وحق جمالك الفتان - ولا كل الرجال . وهل تجددين عند الرجل
العادى غير وجع الدماغ ؟! اما القواد فهو سمسار السعادة فى
هذه الدنيا ! . ولكن لا تنسى انى محبك كذلك . لا تدعى الغضب
يحطم حبنا . انى ادعوك للسعادة والحب والجاه . ولو كنت فتاة
بلهاء لحادعتك . ولكنى قدرتك فأترت معك الصراحة والحق .
ان كلينا من معدن واحد ، خلقنا الله للحب والتعاون ، فاذا
اجتمعنا اجتمع لنا الحب والمال والجاه ، واذا افترقنا للشقاء
والفقر والدل ، او افترق احدا - على الأقل - لذلك ...

ولم تتحول عنه عيناها ، وراحت تتسائل فى ذهول : كيف
تمخض عن هذا ؟! ولبت صدرها يجيش بالهياج والانفعال ، ومن
عجب انها ثارت به ووجدت عليه وتفيظت منه ، ولكنها لم
تحتقره ، ولم تنفك من حبه لحظة واحدة ! . لا بل لم تنس
- حتى فى عنفوان هياجها - انها تصارع الرجل الذى لقنها الحب
وثبته فى أعماقها ، وأرهقها الانفعال فنهضت قائمة فى حركة
عنيقة وقالت فى سخط وغيظ :

- لست كما تظن ...

فتنهده بصوت مسموع متكلفا الحزن ، وان لم تخنه ثقته
شان رجال الأعمال ، وقال بصوت أسيف :

- لا اكاد اصدق انى انخدمت بك . رباه اتصبحين يوما من
عرائس المدق ؟! حبل وولادة ، وحبل وولادة ، ارضاع اطفال
على الارصفة ، ذباب وبصارة وفول ، ذبول وترهل ؟! .. كلا ،
كلا .. لا اريد ان اصدق هذا ...

— ٢١٢ —

فصاحت به غير متمالكة نفسها :

— كفى ...

وانطلقت نحو الباب فنهض مسرعا ، ولحق بها وهو يقول
برقة « رويدك » ، ولكنه لم يعترضها ففتح لها الباب وخرجا
معا . جاءت سعيدة غير هيابة ، وهبت مهيضة ذاهلة . ووقفا
أمام الباب الخارجى حتى جاءهما غلام بتاكسى ودخله كل من
باب ، ومضى بهما مسرعا ، ابتلعتها أفكارها فغابت عن الدنيا ،
وجعل يسترق إليها النظر صامتا دون ان يجد حكمة فى خرق
الصمت المخيم ، وانطوى الطريق على هذا الحال حتى بلغ التاكسى
منتصف الموسيقى ، فامر السائق بالوقوف ، وتنبهت على صوته
فألقت ببصرها الى الخارج ثم ترحزحت قليلا استعدادا للنزول ،
فوضع يده على اكرة الباب ليفتحه لها ، ولكنه تريت قليلا ،
ثم مال نحوها فلثم منكبها وهو يقول :

— سانتظرك غدا ...

فابتعدت عن الباب وهى تقول باقتضاب وحدة :

— كلا ...

فقال ويده تدير الاكرة :

— سانتظرك يا محبوبتى ... وستعودين الى ...

ثم قال لها وهى تغادر التاكسى :

— لا تنسى الغد ، سنبدأ حياة جديدة رائعة .. احبك ..

احبك اكثر من الحياة نفسها ...

وراح يرقبها وهى تبتعد متمجلة ، وقد ارتسمت على
شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لنفسه : « مليحة بلا ادنى شك ،
وهيهات ان يكذبني ظنى ، فهى موهوبة بالفطرة .. هى عاهرة
بالسليقة .. وسوف تكون درة نادرة المثال .. » .

٢٤

سألتها أمها :

— لماذا تأخرت . . ؟

فأجابتها بلا مبالاة :

— دعتنى زينب الى بيتها فذهبت معها .

فبشرتها المرأة بأنهما سيشهدان عرس الست سنية عفيفى عما قريب ، وأخبرتها أن الست ستهدى اليها فستانا لحضور الزفاف ، فتظاهرت حميدة بالسرور ، وجلست تصفى الى ثرثرة أمها ساعة طويلة ، ثم تناولتا عشاءهما وأوتا الى حجرة النوم ، وكانت حميدة تنام على كنبه قديمة ، أما أمها فتفرش حشبة على ارض الغرفة وتستلقى عليها ، ولم تكد تضى دقائق حتى راحت الأم فى نوم عميق ، وملأت الحجرة شخيرا ، ولبثت حميدة محمقة فى النافذة المغلقة وقد نضح خصاصها بنور القهوة المتصاعد . استحضرت ذاكرتها حوادث يومها العجيب فلم تفتها منه حركة أو سكتة أو كلمة ، وعاش فى خيالها مرة أخرى ، وذكرت ما وقع فيه من مغامرات جريئة لا يكاد يصدقها العقل ، فشعرت على رغم قلقها الراهن بسرور غير خاف ، سرور الزهو والفخار والجنون الكامن فى غرائزها ، ولم تنس مع ذلك أنها قالت عن ذلك الرجل وهى راجعة الى زقاقها : « يا ليتنى لم أره ! » ، ولكنه كان قول لسان لم يجد له صدق فى قلبها . والحق أنها عرفت من نفسها ذلك اليوم ما لم تستطع معرفته مدى عمرها . وكان هذا الرجل قد اعترض سبيلها ليجلو ما خفى من ذاتها وبسطه لناظرها كمرآة مصقولة . بيد أنها قالت له : « كلا » وهى تفارقه ، وربما

لم يكن لها عن هذا القول مذهب ؛ ولكن ما معناه على وجه التحقيق ؟ ! ليس معناه أن تقيع في بيتها مترقبة عودة عباس الحلو ؟ ! . رياه ، لم يعد للحلو مكان في نفسها ، أمحى أثره ، وتبدد رجوع صده . وليس الحلو في الواقع إلا هذا الزواج التمس ، وما يعقبه من حبل وولادة ، وارضاع على الأرصفة وذباب . إلى آخر هذه الصورة البشعة المعقولة ، أجل ، لم يكن لعاطفة الأمومة نبع يتفجر في نفسها شأن الفتيات من إترابها ، ولم تكن نسوة الرقاق بمتجنيات عليها فيما رمينها من قسوة وشذوذ ، فعاذا . تبتغى إذن ! . . وخفق قلبها خفقانا متتابعا فعضت على شفيتها . حتى كادت تدميهما ، انها لتعلم ما تبتغى ، وبما تهفو إليه نفسها ، كان يجري قبل اليوم في شعورها متقلقا بين النور والظلمة ؛ ولكنه شق اليوم غشاوة الغموض وأسفر جلجا لا لبس فيه ولا إبهام ، ومن عجب انها لم تعان - في سهادها - ترددا خليرا فيما ينبغى أن تختار من سبيل ، ولم تسعر كثيرا بوطاه التجاذب بين ماضيها وحاضرها ، أو بين ما في حيانها من خير وما يتعدى لها . من شر ، بل الحق انها اختارت سبيلها بالفعل وهي لا تدري ، . ووقع اختيارها عليه وهي بين يدي ذلك الرجل ، في بيته ! . كان لسانها يهدر غضبا وأعماقها ترقص طربا ؛ كان وجهها يربد ويعبس . وأحلامها تتنفس وتمرح ! . . وفوق هذا كله فانها لم تعمقه لحظة واحدة ، لا بل لم تحتقره قط وكان - كما لم يزل - حيانها ومجدها وقونها وسعادتها ! . لم يثر حنقها إلا ادلاله بثقته وهو يقول لها : « ستعودين إلى » ! .

أجل . ستعود ، ولكنه ينبغى أن يؤدي ثمن الثقة الوقحة غالبا . فليس حبها عبادة وخضوعا ، ولكنه معركة يحتدم أوارها ، ويتطاير شررها ، طالما اختنقت في هذا البيت ، وهذا الرقاق ، وهيهات أن يعتاقها عائق بعد اليوم عن الانطلاق إلى النور والجاه

والسلطان ، وهل من سبيل إلى الأفلات من ربة الماضي إلا عن يد هذا الرجل الذى أوقد فى خيالها نارا ؛ ولكنها لن تهرع إليه فى خشوع واذعان هاتفة : « انى عبد يدك فافعل بى ما تشاء » لأنها لا تعرف هذا الحب . كذلك لن تنطلق إليه كالرصاصة صارخة : « انى سيدتك فتخشع بين يدي » فما أزهدها فى الحب الناعم أو الحبيب الخرج ، ولكنها ستذهب إليه وقلبها مشحون بالأمال والرغبات ، ولسان حالها يقول : « انى قادمة بقوتى فلاقنى بقوتك ، ولنتناطح إلى الأبد فى سعادة تجل عن الوصف ، ثم متعنى بما منيتنى به من جاه وسعادة . لقد وضع السبيل بفضلها هو ، وهيهات أن تفرط فيه ولو اشترته بحياتها .

ومع ذلك فلم تخل ليلتها من أفكار نفصت عليها عزمتها بعض التنغيص . تساءلت : « ترى ماذا يقولون عنى غدا ؟ » وجاءها الجواب فى كلمة واحدة : عاهرة ! . وتقبض قلبها حتى جف ريقها وذكرت كيف تلاحمت مرة مع واحدة من صويحباتها بنات المشغل فسببتها صارخة : « يا ربيبة الشوارع . يا عاهرة ! » . معيرة أياها بالعمل كالرجل والتسكع فى الشوارع . فما عسى أن يقال عنها هي ؟ ! . . ودخلها الحزن والأسى ، فتعلمت فى رقادها جرجا وضيقا ، ولكن شيئا فى الوجود لم يكن ليثنيها عما اعتزمت ، أو يلوى بها عما اختارت ، فقد اعتزمت بقوة أعماقها ، واختارت بمجامع قلبها ، فكانت تنحدر إلى مصيرها المحتوم لا يعوقها من وازع إلا ما يعوق المنحدر إلى الهاوية من دقاق الحصى .

ثم انتقل تيار افكارها فجأة إلى أمها ، فالتفتت نحوها وقد مלא أذنيها شخيرها الذى كان غاب عنها ساعة طويلة . فتصورتها فى غدها وقد طال انتظارها لها حتى أشفت على اليأس ، وذكرت كيف أحببتها المرأة حبا صادقا لم يترك فى قلبها احساسا - وان قل - بالحرمان من الأمومة ، وكيف أحببتها هي أيضا على كثرة

ما شجر بينهما من نزاع وشقاق ، وكأنما خافت احاسيس العطف
التي اخذت تدب في نفسها فزفرت بقوة وضجر وقالت لنفسها :
« لا اب لى ولا ام ، وليس لى فى الدنيا سواه » ، وولت الماضى
كشحها ، ولم تعد تفكر الا فى الغد وما عسى ان يتكشف عنه ، ثم
امضها السهاد ، وشعرت بحرارته تصهرجفونها ودمافها ، فتمنت
ان ينقلدها النوم من عدايه وأن تغمض عينيها فلا تفتحهما الا على
نور الصباح . واهابت بارادتها ان تنش عن راسها ما ينال عليه
من خواطر ، فنجحت فى طردها الى حين ، ولكنها تنبهت الى
الاصوات المتصاعدة من قهوة كرشة ، ووقعت من نفسها موقعا
مثيرا ، فراحت تلعنها وتهمها بتطير النوم من عينيها . وجعلت
تنصت اليها على رغمها ، وتسب محدثيها فى حق وغضب :
« يا سنقر غير ماء النرجيلة » . . هذا صوت الفاجر الحشاش
كرشة . « يا سيدى ربك يعدلها » ، وهذا عم كامل الحيوان
الاعجم . « ولو . . كل شئ له اصل » . . هذا الاعمش القدر
الدكتور يوشى . وتمثل لها حبيبها - على غرة - بمجلسه المختار
ما بين المعلم كرشة والشيخ درويش ، وتخليله وهو يشير اليها
بقبلاته فخفق فؤادها ، ثم استحضرت ذاكرتها صورة العمارة
الهائلة ، والحجرة الرائعة ، وسرعان ما طن صوته فى اذنيها وهو
يهمس قائلا : « ستعودين الى . . رباه ! متى يرحمها النوم ؟ .
« السلام عليكم يا اخوان » . . هذا صوت السيد رضوان الحسينى
الذى اشار على امها برفض يد السيد علوان قبل ان يهتصره
المرض ، ترى ماذا يقول عنها غدا اذا تناهى اليه الخبر ؟ . ليقول
ما يشاء ، ولعنة الله على اهل الحى جميعا ! وانقلب الارق صراعا
وسقما ، ومضت تتقلب على جنبها وبطنها وظهرها ، ومضى
الليل بطيئا ثقيلا مرهقا مضنيا ، تزيده هولا خطورة الغد
المرتقب ، وقبيل الفجر بقليل غشيها نوم ثقيل استيقظت منه

عند الضحى . وبأدبرها الصحو بأفكارها جملة كأنما سبقتها الى
 اليقظة بوقت طويل ، ولكن لم يساورها التردد وتساءلت في جزع :
 متى يأتي الغيب ؟ . وقالت لنفسها انها الآن زائرة عابرة في المدق ،
 لا هي منه ولا هو منها كما قال الحبيب ، ونهضت كعادتها ففتحت
 النافذة ، وطوت حشية أمها وكومتها في ركن الحجرة . ثم كنست
 الشقة ، ومسحت الردهة الخارجية ، وتناولت فطورها على انفراد
 لان أمها كانت قد غادرت البيت الى شئونها التي لا تنتهى ، ثم
 مضت الى المطبخ فوجدت عدسا في طبق تركته أمها لتطبخه غداء
 ليومها ، فعكفت على تنقيته وغسله ، وأوقدت الكانون وخاطبت
 نفسها بصوت مرتفع قائلة : « هذه آخر طبخة في هذا البيت ،
 وربما كانت آخر طبخة في حياتي .. ترى متى أأكل العدس مرة
 أخرى ؟ ! » . ولم تكن تستكره العدس ولكنها كانت تعلم انه غداء
 الفقراء وشعار مائدتهم ، كذلك لم تكن تعلم شيئا من طعام الأغنياء
 الا انه لحم ولحم ولحم . وأنشأ خيالها ينعم بتصور غداء المستقبل
 وكسائه وزينته حتى انبسطت أساريرها وقطر وجهها بشاشة
 حائلة ، وغادرت المطبخ عند الظهر فدخلت الحمام تستحم ، ثم
 مشطت شعرها بأناة وعناية وجدلته صغيرة غليظة طويلة أرسلتها
 وراء ظهرها حتى مست أهدابها أسفل فخذها ، وارتدت خمر
 ما لديها من ثياب ، ولكنها استاءت من مظهر ملابسها الداخلية
 البالي ، فتورد وجهها البرنزي وعجبت كيف توف اليه في مثل
 هذه الثياب ، وأريد وجهها وهاج صدرها ، فصممت على الا
 تسلم اليه حتى تستبدل بهذه الثياب الرقيقة اخرى جديدة
 زاهية . وطاب لها هذا الرأي ؛ وصادف من نفسها - التي تأبى
 الهوى الا في حومة العراك والعناد - هوى ولذة ، ثم وقفت في
 النافذة تلقى على حياء نظرات الوداع ، وجعل بصرها يتردد بين
 معاله بغير توقف : الفرن ، قهوة كرشة ، دكان عم كامل ، دكان

الحلاق ، الوكالة ، بيت السيد الحسيني ؛ والذكريات تبعها
النظرات كأنها الشعلات يبعثها حك أمواد الثقاب .

ومن عجب أنها وقفت حيال ذلك كله جامدة باردة لا يندى.
صدرها بعطف أو مودة لا للزقاق ولا لأهله ، وكانت أسباب الجوار
والصدقة مقطوعة ما بينها وبين غالبية نسوة الحى كأم حسين
- أمها بالرضاعة - والفرانة ، حتى امرأة السيد رضوان الحسيني.
لم تسلم من لسانها ، فقد بلغها يوما أنها وصفتها ببداءة اللسان ،
فتربصت بها حتى رأتها يوما على سطح بيتها تنشر الغسيل.
فصعدت الى السطح وثبا - وكان السطحان متلاصقين -
واقتربت من السور وجعلت تعرض بالمرأة قائلة بتهكم وازدراء :
« أسفى عليك يا حيدة من فتاة بدئية اللسان ، غير جديرة بمعاشرة
الهوانم من ستات المدق بنات الباشوات ! » ولكن المرأة آثرت
السلامة ، وتعوذت بالصمت . وقد ثبتت عينها غير قليل على
الوكالة فذكرت كيف طلب السيد سليم علوان يدها ، وكيف ثملت.
باحلام الثراء يوما وبعض يوم ! - لكم احترقت حسرة على ضياع
هذا الرجل من يديها ! ولكن شتان بين رجل ورجل ! فإذا كان
سليم علوان قد حرك - بثروته - جانباً من قلبها ، فهذا الذى
حرك قلبها كله حتى كاد يقتلعه . وعادت عينها الى دكان الحلاق.
فذكرت عباس الحلو ، وتساءلت : توى ماذا يفعل اذا رجع يوما
من مهجره فلم يعثر لها على اثر ؟ ! وذكرت وداعه الأخير على
السلم بقلب متحجر ، وعجبت كيف منحته شفقتها يقبلها ؟ !
ثم ولت النافذة ظهرها . ومضت الى الكنبه أشد ما تكون عزماً
وتصميماً ، ورجعت أمها الى البيت ظهراً ، فتناولتا غداهما
معا ، وقالت لها المرأة فى اثناء الطعام : « لنى زيجة مهمة ، اذا
وفقت فيها ، فتح الله علينا » . فاستفسرت عن هذه الزيجة
المرجوة بفتور ، ولم تكذ تلقى . لما قالت يالا . وكثيراً ما كانت تقول .

مثل ذلك ثم يتمخض الرجاء عن بضعة جنيتها واكله لحم ! . او
اكله لحم فحسب بالنسبة لها . ولما أن اضطجعت أمها لتنام قليلا ،
تربعت هى على الكنية وراحت تطيل اليها النظر . هذا يوم
الوداع ؛ وربما لن تقع عليها عينها بعد الآن . ولأول مرة مراها
الضعف فدرت حناياها عطفا للمرأة التى آوتها وتبنتها واحبتها
ولم تعرف سواها اما ، وتمنت لو تستطيع ان تقبلها قبله الوداع .

وجاءت ساعة الاصيل فتلفعت بعلاؤها وانتعلت شبشبها ،
وكانت يداها يرتعشان انفعالا واضطرابا ، وقلبها يخفق بشدة .
ولم يكن بد من ان تفارق أمها بغير وداع ، فامتعضت ، ثم راتها
آمنة لا تدرى شيئا عما يخبئه لها الغد فازداد امتعاضها ، وحم
الرحيل فالقت عليها نظره طويلة ثم قالت وهى تهم بالمسير :

— فتك بعافية ...

فقال لها المرأة وهى تشعل سيجارة :

— مع السلامة .. لا تتأخرى ..

وغادرت البيت تلوح فى وجهها امارات الجذ والاهتمام ،
وقطعت المدق لآخر مرة لا تلوى على شيء ، وسارت من الصناديق
الى الفورية ، ثم انعطفت صوب السكة الجديدة وتقدمت فى خطوات
متمهلة ، وارسلت بصرها بعد تردد واشفاق ... فرأته بموقف
الامس ينتظر ! ... التهب خذاها واجتاحتها موجة صاخبة من
التمرد والغضب ، وودت من أعماقها أن تثار من ظفره هذا ثارا
يرد عليها بعض سكينتها .. وغضت بصرها ، ثم تساءلت : أترأه
يبتسم الآن تلك الابتسامة الوقحة ؟ ! ورفعت عينيها بنرفزة ،
ولكنها وجدته هادئا جادا رزينا يلوح فى عينيه اللوزيتين الرجاء
والاهتمام فانفتحا هياجها قليلا . ومرت به وهى تتوقع أن يخاطبها ،
أو أن يأخذ يدها كما فعل بالأمس ، ولكنه تجاهلها ، وتريث قليلا
حتى غيبها المنعطف ، ثم تبعها متمهلا ، فأدركت أنه بات أشد

— ٢٢٠ —

حذرا ، واعظم شعورا بخطورة الامر ، وسارت حتى اوشكت
السكة الجديدة ان تنتهى ، ثم توقفت بفتة كأنها ذكرت شيئا
جديدا ، وانفتلت راجعة ، فتبعها قلعا وهمس لها متسائلا :
— ماذا ارجعك ؟

فترددت قليلا ثم قالت وقد سامها النطق عناء :
— بنات المشغل ..

فقال بارتياح :

— الى الأزهر ، فلا يرانا احد ..

وشقا طريقهما متباعدين ، وسارا فى شارع الأزهر فى صمت
ثقيل ، وقد ادركت انها اعلنت — بالكلمة التى نطقت بها — تسليمها
النهائى . وبلغا ميدان الملكة فريدة دون ان يخرججا من صمتهما
الثقيل ، ولم تعد تدرى اين تتجه فوقفت ، وسمعت فى اللحظة
التالية ينادى التاكس ، وجاءت السيارة ففتح لها الباب ، ورفعت
قدمها لتصعد اليها ، ففصلت هذه الحركة بين حياتين ! . وما كادت
السيارة تنطلق بهما حتى قال بصوت متهدج وبمهارة فائقة :

— الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة !... لم انم من لياتى
ساعة واحدة . انت لا تدريين يا عزيزتى ما الحب . ولكنى اليوم
سعيد ، بل اكاد اجن من الفرح ، رباه كيف اصدق عينى ! .
شكرا يا محبوبتى شكرا ، والله لاجعلن من السعادة انهرنا تجرى
تحت قدميك ... ما اجمل الماس حول هذا الجيد (ومس جيدها
برقة) ... ما اروع الذهب فى هذا الساعد (وقبل ساعدها) ..
ما افتن الروج فى هاتين الشفتين (وهوى براسه ليقبل ثغرها
ولكنها تحامته فلثم خدها) .. يا لك من فاتنة نافرة !...

واستراح قليلا ثم استدرك قائلا وعلى شفثيه ابتسامة :
— ودعى الآن عهد التعب ، فلن تطالعك الحياة بكدر بعد
اليوم !... حنى ثدياك سيحملهما عنك رافع من الحرير !..

— ٢٢١ —

ورضيت بالاستماع لهذا الكلام دون تنمر أو احتداد ، وأن
توردت وجنتها . واستسلم جسمها للسيارة المندفعة التي
تهرب من الماضي كله !

وانتهى التاكس الى العمارة التي صارت مأواها ، فغادراه ،
ومضيا مسرعين الى الشقة ، وكانت كما وجدتها ضاجة بالأصوات
المنبعثة من الأبواب ، ثم دخلا الحجرة الرائعة ، وقال ضاحكا :
— اخلعى الملاءة لنحرقها معا .

فغمضت تقول وقد تورد وجهها :

— لم أحضر ملابسى ...

فصاح بسرور :

— حسنا فعلت ... لا نريد شيئا من الماضي .

واجلسها على مقعد وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، ثم
انجه نحو باب انيق الى يمين المرأة العالية ، ودفعه عن مخدع وثير
وهو يقول :

— حجرتنا ...

ولكنها قالت بسرعة وحدة :

— كلا .. كلا .. سأنام هنا ..

فحدجها بنظرة ثاقبة ، ثم قال بلهجة تنم عن التسليم :

— بل تنامين فى الداخل وأنام أنا هنا ..

وكانت تصمم فى نفسها على الا تؤخذ كالماشية ، والا تسلم
حتى تشبع رغبتها فى العناد والاباء ، والظاهر أن رغبتها هذه لم
تغب عن مكره ، لانه دارى ابتسامة ساخرة ، وتظاهر بالاذعان
والتسليم ، ثم قال لها بسرور وفخار :

— بالامس يا عزيزتى دعوتنى بالقواد ، فاسمحنى لى بأن اقدم
لك نفسى على حقيقتها : محبك ناظر مدرسة ، وستعلمين كل
شئ فى حينه ...

٢٥

قال حسين كرشة لنفسه وهو يقترب من زقاق المدق :

« هذا وقت اجتماعهم في القهوة ، وسيروني جميعا بلا ادنى شك ، وسيخبرون أبى بمقدمى اذا عمى هو عنه » . كان الليل قد ارخى سدوله ، فاغلقت دكاكين المدق وخيم عليها السكون ، وضجت قهوة كرشة وحدها بالسمار . كان الفتى يسير بخطوات ثقيلة ، منقبض الصدر ، متجههم الوجه ، يتبعه على الاثر فتى في مثل سنه وفتاة في مقتبل العمر . وكان حسين يرتدى قميصا وبنطلونا ، ويحمل في يمينه حقيبة كبيرة ، وكذلك كان الفتى الذى يتبعه . اما الفتاة فرملت في فستان انيق - بلا معطف ولا ملءة - وقد بدت في مشيتها ذات وسامة ورشاقة وان لم تخل من ابتذال يشى بطبقتهما ، واتجه حسين صوب بيت السيد رضوان الحسينى دون أن يلتفت ناحية القهوة ، ودخل البيت يتبعه رفيقه ، ثم ازداد ازداد وجهه لجهما ، فسمع وقع اقدام تقترب ، ثم فتح الباب وبدأت امه وراءه تقول بصوتها الخشن : « من ؟ » ، ولم تعرف الشبح المائل امامها لشدة الظلمة . فقال حسين بصوت منخفض :

— حسين !

وهتفت المرأة وهى لا تكاد تصدق اذنيها :

— حسين .. ابنى ! !

وهرعت اليه ، وامسكت بلراعيه ، وقبلته ، وهى تقول بحرارة :

— عدت يا بنى ! .. الحمد لله .. الحمد لله الذى اثابك الى

رشدك ، وحمالك من وسوسة الشيطان ، أدخل بيتك (وضحكت في انفعال) . أدخل يا غادر .. لكم اقضضت مضجعى ، وقطعت قلبى ..

ودخل الشاب مستسلما ليديها ، دون ان يخف تجهمه ، وكان استقبالها الحار لم يكده يجدى شيئا في تفريج كربيه ، ولما ان همت برد الباب حال بينها وبينه قائلا وهو يوسع للفتاة وللفتى :
- معى أناس . ادخلى يا سيدة ، أدخل يا عبده ، هذه زوجى يا امى ، وهذا شقيقها ...

وبهتت المرأة ، ولاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج ؛ وراحت تنظر الى القادمين بذهول ، ثم تنبعت الى اليد المبسوطة للسلام فتعالكت عواطفها وسلمت وهى تخاطب ابنها بلا وعى تقريباً :

- تزوجت يا حسين !... أهلا بك يا عروس .. تزوجت يا حسين دون ان تخبرنا لا .. كيف رضيت أن تزف فى غياب والدك وهما على قيد الحياة ؟ ! .

فقال حسين بامتعاض :

- الشيطان شاطر ! .. كنت غاضبا نائرا ساخطا .. وكل شيء قسمة ونصيب ! .

وانتزعت المرأة المصباح من الحائط ، وتقدمتهم الى حجرة الاستقبال ، ووضعت على حافة النافذة المفلقة ، ووقفت تنفوس فى وجه زوج ابنها ، وقد قالت الفتاة بصوت اسيف :
- احزننا والله غيابكم ، ولكن ما باليد حيلة .

وأبدى شقيقها كذلك اسفه ، فابتسمت المرأة ، ولم تكن افاقت بعد من دهشتها ، وتمتمت :
- أهلا بكم جميعا .

ثم التفت صوب ابنها وقد هالها تجهمه وجموده ، وذكرت

لاول مرة ان فمه لم ينفرج عن كلمة طيبة واحدة منذ حضوره ،
فقال له بعتاب :

— هكذا تذكرتنا اخيرا ..

فهز حسين رأسه بكآبة وقال باقتضاب :

— استغفوا عني ...

فقال المرأة بالكوار وقد داخلتها خيبة جديدة :

— استغفوا منك ! ؟ اعنى انك عاطل الآن ؟ !

وقبل أن يفتح فمه قرع آذانهم دق عنيف على الباب ،
فتبادلت المرأة وابنها نظرة ذات معنى ، ثم غادرت الحجرة فلحق
بها الشاب بعد أن أغلق الباب وراءه ، وقال لها فى الردهة الخارجية :

— هذا أبى بلاريب ...

فقال له بقلق :

— أظن هذا ، هل رآك ... اعنى رآكم وانتم قادمون ؟ .
ولكن الفتى لم يجبها ، وتقدم من الباب وفتحها ، فدخل المعلم
كرشة مندفعاً ، وما أن رأى ابنه حتى قال وعيناه تحماران ،
وضباب الغضب يغشى وجهه :

— أهذا انت ؟ .. قالوا لى ذلك فلم اصدق .. لماذا عدت ؟ !

فقال حسين بصوت منخفض :

— يوجد فى البيت غرباء ، هلم الى حجرتك نتكلم ..

ومضى الشاب مسرعاً الى حجرة أبيه ، فتبعه المعلم مزجراً ،
ولحقت بهما المرأة ، ثم أشعلت المصباح وهى تقول لزوجها فى رجاء
وتحذير :

— فى الحجرة الأخرى زوج ابنك وشقيقها ...

وارتفع جفنا الرجل الثقيلان فى ذهول وهتف :

— ماذا تقولين يا مرة ؟ .. اتزوجت حقاً ؟

واستاء حسين من أمه لأنها ألقت عليه الخبر دون تمهيد ،

ولم ير بدا من أن يقول :

- ٢٢٥ -

- نعم يا ابنتى تزوجت ..

وسكت المعلم دقيقة وهو يقرض اسنانه بحنق وغيظ ، ولكنه لم يفكر لحظة فى معاتبة ابنه على الزواج بدون علمه ، لان المعاتبة فى نظره حال من المودة ، وصمم فى اللحظة التالية على اهمال هذا الخبر كانه لم يسمعه ، وقال بغيظ وحقد :

- هذا شيء لا يعنينى البتة ، ولكن دعنى اسالك ، لماذا عدت الى بيتى ؟ .. لماذا اريتنى وجهك بعد ان اراحنى الله منه ؟

فلاذ حسين بالصمت ، وتكس ذقنه عابسا ، وانبرت الام تقول باستعطاف :

- استغفروا منه يا معلم .

ونقم الشاب على امه تسرعها للمرة الثانية . اما المعلم فقد ارداد حنقا وصاح بصوته الغليظ - مما جعل المرأة تغلق الباب - قائلا :

- استغفروا منك ؟ ! .. ما شاء الله .. وهل بينى تكية ؟ ! .. الم تنبذنا يا همام ؟ .. الم تعضنى بنابك يا ابن الكلب ؟ .. فلماذا تعود الان ؟ .. اغرب عن وجهى . عد الى الحياة النظيفة والماء والكهرباء .. هيا ..

فقال أم حسين بركة :

- هدىء روعك يا معلم وصل على النبى ..

فلوح لها الرجل بقبضته منلدرا وصاح بها :

- تدافعين عنه يا بنت الابالسة ؟ ! .. كلكم جنس شياطين يستاهل جلد السياط وعذاب النار . ماذا تريدن يا أم الشر كله ؟ .. اتريدينى على ان آويه واهله ؟ .. هل قالوا لك انى قواد يأتينى ذقنى من يعين وشمال بغير تعب ولا جهد ؟ ! .. الا فاعلموا بان الشرطة تحوم حولنا ، وبالامس قبضوا على أربعة من رفاقى ، وغدكم أسود باذن الله ..

زقاق المدق

— ٢٢٦ —

- فاستوصت المرأة بالصبر وقالت برقة لا عهد لها بها :
- صل على النبي يا معلم ووحده الله .
- فصاح بفضافة :
- سليه عما جاء به ؟
- فقالت برجاء واستعطاف :
- ابننا أرعن مجنون ، بغواه الشيطان فاضله ، وليس له الآن من ملجأ سواك ...
- فقال المعلم كرشة بحق وسخرية :
- صدقت يا أم السوء ، ليس له ملجأ سواي ، سواي أنا الذي يسب حين السراء ، ويلجأ اليه حين الضراء !
- ثم تفحص حسين بنظرة قاسية وسأله باحتقار وسخرية :
- لماذا استغفوا عنك ؟
- وتنهدت الأم من الأعماق لأنها أدركت بغريزتها أن هذا السؤال — على لهجته المريرة — أيدان بالتفاهم المنشود — أما حسين فقد قال بصوت منخفض وهو يعاني مرارة القهر :
- استغفوا عن كثيرين غيري .. يقولون أن الحزب وشيكة الانتهاء .
- انتهت الحرب في الميدان وستبدأ في بيتي أنا ! .. ولماذا لم تذهب إلى أهل زوجك ؟
- فقال الشاب بفضاضة :
- ليس لما إلا شقيقها .
- ولماذا لم تلجأ إليه ؟
- استغفوا عنه أيضا ...
- فضحك هازئاً وقال :
- أهلا .. أهلا .. وطبيعي أنك لم تجد ملجأ لهذه الأسرة الكريمة التي 'ناخ عليها الدهر إلا بيتي ذا الحجرتين ! .. مرحى .. مرحى .. ألم توفر مالا ؟

- ٢٢٧ -

فقال الشاب باقتضاب وهو يتنهد :

.. كلا ..

— أحسنه . عشت عيشة الملوك ، كهرباء وماء وملاه ، ثم
عدت أخيرا كما بدأت شحاذا .

فقال حسين بانفعال :

— قالوا ان الحرب لن تنتهى . وان هتلر سيقاوم عشرات
السنين ثم يهجم بعد ذلك ...

— ولئن لم يهجم ، واختفى (حتى فى تلك اللحظة لم يعلم
انه مات) تاركا شيخ المغفلين صفر اليدين . والبك شقيق
الست ؟

— الحال من بعضه .

— عال .. عال .. البركة فى ابيك . هينى لهم البيت يا ست
أم حسين ولو انه حقير لا يليق بالمقام ، ولكنى ساندرك ذلك
بادخال الماء والكهرباء وربما ابتعت حنطور السيد علوان ليكون
تحت تصرفكم .

فنفع حسين قائلا :

— حسبك يا ابي .. حسبك .

فنظر اليه كالمعتدر وقال بسخرية :

— لا تؤاخذنى ، أثقلت عليك ؟ .. مزاج رقيق ، عز وجاه ،
ارحموا عزيز قوم ذل . احتشم يا معلم كرشة ولا تحدث السادة
الا بحديث السادة . تفضل بخلع ملابسك ، اما أنت يا ست
أم حسين فافتحي الكنز فى المرحاض وعبى للبيك حتى يترشش
وينبسط .

ولم ينبس حسين بكلمة وهو كظيم ، فمرت العاصفة بسلام ،
وراحت المرأة تناجى نفسها : « يا ساتر استر » . وكان المعلم
— على حنقه وسخريته — أبعد ما يكون عن طرده ، بل لعله حتى

— ٢٢٨ —

فى تلك الساعة الحامية لم يخل من ارتياح لعودته ، وسرور بزواجه ، لذلك كف عما كان آخذا فيه ، وغمغم قائلا :

— الامر لله .. ربنا يتوب على منكم .

ثم سأل الشاب مستدركا :

— ماذا اعددت للمستقبل ؟

فقال الشاب وقد شعر بأنه اجتاز محنته :

— سأجد عملا ان شاء الله ، ولا تزال لدى حلى زوجى .

فانتبهت امه الى كلمة « حلى » باهتمام وسألته بغير وعى :

— هل كنت ابتعتها لها ؟

فقال حسين :

— اهديت اليها البعض واشترى لها شقيقها البعض الآخر .

والتفت نحو أبيه مستطردا :

— سوف أجد عملا ، وسيبحث عبده نسيبى عن عمل

أيضا ، وعلى أية حال فهو لن يقيم بيننا الا اياما .

فانتهزت المرأة فرصة الهدوء الذى أعقب الزوبعة فقالت

لزوجها :

— تعال يا معلم سلم على اهل ابنك .

ولحظت ابنا بطرف خفى وغمزت بعينها ، فقال الشاب

بفضاضة من يستكره التودد بطبعه :

— هلا أكرمتنى حيال اهلى ؟

وتردد الرجل لحظة ثم قال بامتناع :

— كيف تريدنى على الاعتراف بهذا الزواج الذى لم اباركه ؟!

ولما لم يسمع من مجيب ، نهض متاففا ، ففتحت المرأة الباب

وتقدمته ، وانتقلوا الى الحجرة الاخرى جميعا ، وسلموا ، ورحب

المعلم بزواج ابنه وشقيقها ، انطوت الصدور على ما بها ، أما

الوجوه فقد أشرقت بالترحاب والمجاملة . وكان المعلم كرشة قد

سلم بالامر الواقع ، ولكنه لبث قلقا لا يدري أخطأ بتسليمه أم

— ٢٢٩ —

أصاب ، ولم تصف نفسه من موجدة واستياء ، ثم أنتبهت عينها
النالمثنان في أثناء الحديث الى شقيق الفتاة فتفحصه بمنابة ، وما
عتم أن تولاه اهتمام مفاجيء أنساه قلقه وموجدته واستياءه ؟ .
كان شابا ياغما وسيم الطلعة خفيف الظل ، فجعل يحاوره ويرنو
اليه بطرف يقظ ، وطابت نفسه وصفت ، وسرت في أعماقه هزة
سرور وحماس ، فتفتح قلبه للأسرة الجديدة ، ورحب بها مرة
أخرى ، ولكن بشعور جديد ، وسأل ابنه بلطف :

— أليس لك اثلاث يا حسين ؟

فقال حسين :

— غرفة نوم مكومة عند الجيران .

فقال المعلم بلهجة آمرة :

— اذهب واحضر عفشك ! .



خلا حسين الى أمه ، وجلسا يتحدثان ويدبران أمورهما ،
وفي ختام الحديث صاحبت به فجأة :

— ألم تعلم بما حدث ؟ ! . . اختفت حميدة .

فلاحت الدهشة في وجه الشاب وسألها :

— كيف ؟ .

فقالت المرأة دون أن تحاول إخفاء لهجتها الواشية بالشبهة :

— خرجت أول أمس كمادتها كل عصر ، ولكنها لم تعد .

ودارت أمها على بيوت الجيران والمعارف تفتش عنها دون جدوى ،

وذهبت الى قسم الجمالية وقصر العيني ولا حياة لمن تنادى .

— ماذا حدث للبنت يا ترى ؟ .

فهزت أم حسين رأسها في ارتياب وقالت بيقين :

— هربت وحياتك ! ! . غواها رجل فاكل مخها وطار بها .

كانت جميلة ولكنها لم تكن طيبة قط .

٢٦

فتحت عينين محمرتين من اثر النوم ، فرأتا سقفا ابيض ،
تناصع البياض ، يتدلى من وسطه مصباح كهربائى بارع الونق
فى كرة كبيرة حمراء من البلور الشفاف ، امتلا بصرها دهشة ،
ولكن لم يدم ذلك سوى ثانية واحدة ، ثم تدافعت الى راسها
ذكريات الليلة الماضية . وذكريات الحياة الجديدة . واتجه ناظرها
نحو الباب فאלفته مقلعا ، ثم رأت على خوان قريب من السرير
مفتاح الباب بحيث تركته بالأمس . نفلت ارادتها فنامت وحدها ،
وقضى ليلته وحده فى الحجرة الخارجية ، وافتر نغرها عن
ابتسامة ، وأزاحت عن صدرها الغطاء الوثير ، فبدأ فستانها
مستخديا خجلا فيما يغمره من مخمل وحرير . ما أعمق الهوة
التى تفصل ما بينها وبين الماضى ! . وكانت النوافذ مغلقة تنضح
بوهج الشمس ، فينير جو الحجرة بضوء شاحب خفيف ،
فاستدلت على الضحى بسمائه ، ولكنها لم تدهش لاستيقاظها
المتأخر ، فقد أرقها السهاد حتى قبيل الفجر . وسمعت نقرا
خفيفا على الباب ، فتلقت صوبه فى انزعاج ، وجمد بصرها عليه
دون أن تأتى حركة أو تنطق بحرف ، ثم غادرت الفراش ، ودلفت
الى التواليت ، ووقفت بين مراياه متحيرة مبهوته . وعاد النقر
فى قوة ملموسة فهتفت : « من ؟ » . وجاءها صوته العميق وهو
يقول : « صباح الخير . . . هلا فتحت الباب ؟ » ونظرت الى
المرأة فرأت شعرها متشعثا ، وعينيها محمرتين ، وجفניה
ثقيلين . . . رباه . . . أليس ثمة ماء تفسل به وجهها ؟ ! الا ينتظر
حتى تنهيا لاستقباله ؟ ! . وعاد ينقر الباب جزعا ، ولكنها لم

تلق اليه بالا ، وذكرت قلقها يوم اعترض سبيلها في الدراسة اول مرة فلقيته وقد نسيت أن تأخذ زينتها ، وهى اليوم اشد قلقا بلا ريب ! . ورات زجاجات الروج العطرية ، منضودة على التواليت ، ولكنها كانت تراها لأول مرة في حياتها ، فلم تهتد الى وجه الانتفاع بها في مازقها ، ثم تناولت مشطا عاجيا وسوت شعرها في عجلة ولهوجة ، ومسحت بطرف فستانها وجهها ، والقت على المرأة نظرة اخرى ، وتنهدت في قلق وغيظ . ثم اخذت المفتاح وسارت نحو الباب ، وكأنما ضاقت باشفاقها ، فرفعت منكبيها استهانة وفتحت الباب . التقيا وجها لوجه وقد ابتسم اليها ابتسامة لطيفة وقال برقة بالغة :

— صباح النور يا تيتى ! . لماذا أهملتني كل هذا الوقت ! .
اتريدن مواصلة النهار بالليل بعيدا عنى ؟ !

فابتعدت عنه دون أن تنبس بكلمة ؛ ولكنه تأثرها والابتسامة لا تفارق شفثيه ، ثم سألها :

— لماذا لا تتكلمين يا تيتى ؟ !

تيتى !! اسم تدليل هذا يا ترى ؟ . ولكن أمها كانت تدعوها « حمدمد » اذا ارادت أن تدللها ، فما تيتى هذا ؟ . . ورمقته بنظرة انكار وغمغمت :

— تيتى ! .

فقال وهو يتناول راحتها بين يديه ويشبعهما تقبيلًا :

— هذا اسمك الجديد ، فاحفظيه عن ظهر قلب ، وانسى حميدة فلم يعد لها وجود ! . . ليس الاسم يا محبوبتى بالشئء .
الثافه لا يقام له وزن ، وهو بالحرى كل شئء ، وما الدنيا — لو تعلمين — الا أسماء . . .

وعلمت انه يعد اسمها — كتيابها البالية — شيئًا ينبغى

انتزاعه وايداعه مقابر النسيان ، ولم تر في ذلك من بأس ، فلا يجوز ان تنادى في شريف باشا بما كانت تنادى به في المدق ، وفضلا عن هذا فهي تشعر شعورا عميقا لا يخلو من وسواس وقلق ، بأن أسباب الماضي قد انقطعت الى الأبد ، فلماذا تبقى على اسمها ؟... بل ليتها تستطيع أن تستبدل بيديها يدين جديديتين جميلتين كيديه هو ، وأن تستفيض عن صوتها - الذي تستغلظ نبراته العالية حتى الفظاظة والقبح - صوتا رقيقا رخيفا - لكن ما باله اختار هذا الاسم الغريب ؟! ولم تملك ان قالت باستنكار :

- هذا اسم غريب ، لا معنى له .

فقال ضاحكا :

- اسم جميل ، ومن جماله إلا معنى له . فالاسم الذي لا معنى له يحوى المعانى كلها ، بل هو من الأسماء الأثرية التي تسحر الباب الانجليز والأمريكان ، ويسهل النطق به على ألسنتهم المعوجة .

فجالت في عينيها نظرة حيرى ، تشى بالارتياح وتحفر للعناد والانتقاض ، فابتسم برقة واستدرك يقول :

- تبتى العزيزة .. رويلك ، ستعلمين كل شيء في حينه .

الم تعلمى بأنك ستصيرين غدا سيدة باهرة الجمال بعيدة الصيت ؟. هذه معجزة هذا البيت . أم حسبت أن السماء تمطر ذهبا وماسا ؟. كلا يا عزيزتى ، ان السماء في ايماننا لا تمطر الا شظايا . والان خذى أهبتك لاستقبال الحياطة . ولكن معلرة : لقد ذكرت امرا هاما . ذكرت انه ينبغي ان اسحبك لزيارة مدرستى - انا ناظر يا محبوبتى ولست قوادا كما دعوتنى بالأمس - فالتحفى بهذا الروب وانتعلى هذا الشبشب .

وذهب الى التواليت فأتى بزجاجة زرقاء كروية يتصل بغم معدنى فيها أنبوبة من المطاط الأحمر ، وسدد فوهتها نحو وجهها

وجمل يضغط على الأنوبة ليمج في صفحة وجهها سائلا زكى الشدا ، وقد ارتعشت بادىء الامر شاهقة ، ثم استسلمت الى طيبها في دهشة وارتياح ، والبسها الروب بنفسه ، وجاءها بشبشه فانتعلته ؛ ثم تابط ذراعها ومضى بها الى الحجرة الأخرى ؛ ثم الى الردهة الخارجية ، وسارا معا متجهين صوب اول باب الى اليمين وهو يقول لها محلرا :

- اياك وان تبلى خجلة او خائفة .. انى اعلم انك جسورة لا تهابين شيئا ...

والنابها تحذيره الى رشادها ، فحذجته بنظرة حادة ، ورفعت رأسها فى استهانة ، فابتسم قائلا :

- هذا اول فصل فى المدرسة .. فصل الرقص العربى .

وفتح الباب ودخلا . رات حجرة متوسطة ، جميلة البناء ، ذات ارضية خشبية لامعة ، تكاد تخلو من الاثاث اللهم الا عددا من المقاعد فضدت فى جناحها اليسر ، ومشجبا كبيرا فى ركنها الأقصى ، وقد جلست فتاتان على مقعدين متجاورين ، ووقف فى الوسط فتى فى جلباب ابيض حريرى مهلهف محتزما بزناد ، اتجهت الرؤوس نحو القادمين ، وجرت على الثفور بسمات التحية ، فقال فرج ابراهيم بلهجة قوية تنم عن السيلادة حقا :

- صباح الخير .. هذه صديقتى تيتى ...

وحنت الفتاتان راسيهما تحية ، ثم قال الفتى بصوت متكسر مخنث :

- اهلا يا ابلة .

وردت تيتى بالتحية فى شيء من الارتباك وهى تعطيل النظر الى الفتى الغريب . كان - على غير ما يبدو - فى نهاية العقد الثالث - وضيع الملامح ، أحول العينين ، يزين وجهه بزواق نسائى من كحل وحمرة وبودرة ، ويلمع شعره الجعد بالفتالين . فابتسم فرج ابراهيم وقال يعرفه لها :

— ٢٣٤ —

— سوسو معلم الرقص ...

وكانما أراد سوسو أن يقدم لها نفسه بطريقته الخاصة ، فأشار إلى الفتاتين المتجاورتين غامزا بعينه ، فراحتا تصفقان على « الواحدة » ، وانساب الأستاذ راقصا كالانفوان ، في خفة وليونة تثيران الدهشة ؛ حتى خالته جسما بلا عظام ولا مفاصل ، أو أنه قطعة من مطاط مكهرب . كان كل ما فيه يرتعش بلا توقف . ردفاه .. وسطه .. صدره .. رقبته .. حاجباه . وكان يلقي بنظرة متكررة متضعضة . مبتسما ابتسامة فاجرة عن أسنان ذهبية ، ثم اهتز هزة عنيفة ختم بها ارتعاشه الفنى ، واستقام ظهره ، فكفت الفتاتان عن التوقيع ، لم يكن في نية سوسو أن يرقص ولكنه رغب أن يحيى القادمة المستجدة تحية راقصة على سبيل المثال . والتفت نحو فرج إبراهيم متسائلا :

— تلميذة جديدة ؟

فالتفت هذا بدوره إلى تيتى وقال :

— اظن هذا .

— ألم ترقص فيما سلف ؟

— كلا ..

فابتسم سوسو مسرورا وقال :

— هذا أفضل يا سى فرج . إذا كانت تجهل الرقص فهى

عجيبة طرية اصورها كيفما أشاء ، أما أولئك اللاتي يتعلمن الرقص على غير اصوله فما أشق تعليمهن .

ونظر إلى تيتى ، وثنى رقبته يمنة ويسرة وقال بصوت

قاصح :

— أم تحسبين الرقص لعبا يا ابنتى ؟! العفو يا حبيبتى .

هذا فن الفنون ، وأستاذه له الجنة ونعيمها بغير حساب جزاء ما يتجشم من عناء أو مشقة .. انظرى .

— ٢٣٥ —

وارعنس خصره بغتة في سرعة عجيبة ، ثم امسك وهو يرمقها
 بمعجب وتيه ، وسألها باستعطاف :
 — هلا انتزعت هذا الروب لأطلع على جسمك ؟
 ولكن فرج عاجله فأثلا :
 — ليس الآن .. ليس الآن .
 ممط سوسو بوزة متأسفا وسألها :
 — انخجلين منى يا تيتى .. أنا اختك سوسو ! .. الم
 يعجبك رقصى ؟
 وكانت تدافع جاهدة شعورا بالضيق والارتباك ، وتحاول
 في اصرار وعناد أن تبدو باردة هادئة مستهينة بل راضية ،
 فابتسمت وقالت :
 — رقصك بديع جدا يا سوسو .
 فصفق سوسو بيديه جيورا وقال :
 — دمت من فتاة كريمة . الحياة فانية يا تيتى ، واجمل
 ما فيها كلمة حلوة . وهل دام شيء لانسان ؟ .. الواحد منا
 يشتري حق الغالزين ولا يدرى أ يكون لشعره أو لشعر ورثته !

وغادرا الحجرة — أو الفصل — الى الردهة — فمضى بها الى
 الحجرة التى تليها ، وشعر بعينيها تلحظانه ولكنه تجاهلها عن
 حكمة حتى بلغا الباب فغمغم قائلا :
 — فصل الرقص الغربى .

فتبعته سامطة . كانت تعلم أن النكوص قد بات مستحيلا ،
 وإن الماضى قد عفاه الحاضر ، فلم تر بدا من الاستسلام للمقادير ،
 وتساءلت : هل تبلغ حقا السعادة المنشودة ؟ . وجدت هذه
 الحجرة فى بنائها وصورتها كسابقتها الا أنها حجرة حية متحركة

~ ٢٢٦ ~

صاخبة ، كان الحاكى يبحث لحنا غريبا تلقته اذنها فى دهشة وانكار ، وكان قوم يرقصون انواجاً ، قوام كل لوج فتاتان ، وقد انتحى شاب انيق البزة جانباً وهو يراقبهن بعناية ، ويولين بملاحظاته ، وتبادل الرجلان التحية ، وواصل الراقصات رقصهن وهن يتفحصن حميدة بنظرات ثاقبة ناقدة ، ودارت عيناهما بالرقص والراقصات فعجبت لثيابهن البديعة ولزينتهن البارعة ، وسرعان ما تنامت هواجسها ، واستولى عليها انفعال عارم ، فعانت شعوراً مؤلماً بالضمة ، ثم استفزها احساس حاد بالحماس والتوذب ، ولاحت منها التفاتة الى رجلها فوجدته محافظاً على هدوئه ووزائته ، تلوح فى صينية نظرة متعالية تنطق بالسيادة والقوة . والتفت نحوها فجأة كأنما جذبته عيناهما ، فانبسست اساريره ، ومال نحوها قليلاً متسائلاً :

— أيعجبك ما ترين ؟

فجالت ببساطة وهى تقاوم انفعالها :

— جدا . .

— أى الرقصين تفضلين ؟

فابتسمت ولم تجب ، ولبتنا قليلاً صامتتين ، ثم غادرا الحجرة ، واتجهتا نحو باب ثالث وقد تجلى الاهتمام فى وجهها ، وما كاد يدفع الباب حتى حملقت فى دهشة وذهول ، رأت فى وسط الحجرة امرأة عارية منتصبة القامة ، وظلت توانى لا تحول بصرها عنها فلم تر شيئاً سواها . ومن العجب أن المرأة العارية بقيت بموقفها كأنها لم تشعر بمقدمهما ، وجعلت تنظر إليهما فى هدوء واستهتار وقد افتر ثفرها عن ابتسامة رقيقة كأنها تحييها أو تحييه هو بالاحرى ، وعند ذاك قرعت أذنيها أصوات ، فتلفتت يمنة ويسرة وادركت أن الحجرة معمورة بالآدميين ، رأت الى يسار الداخل صفًا من المقاعد مشغولاً نصفها بفتيات حسان

انصاف عرابا او على وشك التمردى !.. ورات على كتب من المرأة العازية رجلا في بدلة انيقة قابضا بيمناه على مؤشر قد ركز سنانه على مقدم حذائه ، ولاحظ فرج ابراهيم دهشتها ، فرغب ان يسرى عنها ، فقال لها :

- هذا الفصل لتعليم مبادئ اللغة الانجليزية !.

فحجته بنظرة انكار كأنها تقول له : « لا انهم شيئا » ، فاشار لها بالتمهل ثم وجه خطابه للرجل القابض على المؤشر وقال :

- استمر في دروسك يا استاذ ...

فقال الرجل بصوت يدل على الطاعة :

- هذه حصه تسميع .

ورفع المؤشر بخفة ولمس بسنانه شعر العارية ، فنطقت المرأة بلفظ غريب «هير» ، فأنزله الى جبينها فهتفت «فرن» ، وانتقل الى الحاجب فالعين ثم الفم ، وشرق وغرب ، وصعد وصوب ، وهي تجيب على أسئلته الصامتة بكلمات غريبة ، لم تسمعها حميدة من قبل ، وازدادت الفتاة دهشة وانزعاجا ، وتساءلت : كيف تبدو هذه المرأة عارية حيال هذا الجمع ، وكيف ينظر فرج الى هذا الجسم المتجرد بهذه البساطة !.. وغلى دمها والتهب خذاها ، والقت عليه نظرة سريعة فرائه يهر رأسه راضيا عن التلميذة الذكية ، ويتمتم : « برافو ... برافو ... » ثم خاطب الرجل قائلا :

- أرئى شيئا من الغزل ...

فنجى الرجل المؤشر جانبا ، واقبل على المرأة مخاطبا في لهجة انجليزية وعاطته المرأة قولا بقول ، فتراطنا دقائق بلا تلعمم أو تردد ، حتى صاح فرج ابراهيم :

- عظيم .. عظيم .. والأخريات ؟.

— ٢٣٨ —

وأشار الى الفتيات الجالسات ، فقال الاستاذ :
 — فى طريق التحسن !.. وانى اقول لهن دائما ان الكلام
 لا يحصل بالحفظ ، ولكنه يكتسب بالتجربة . فالحانات
 والبنيونات هى دور العلم الحقيقية ، وما هذا الدرس الا
 تثبيت للمعلومات الموهشة...
 فقال فرج ينظر الى فتاته :
 — صدقت .. صدقت ..

وحياه بايماء من راسه ، وتابط ذراع حميدة وانفصلا عن
 المكان معا ، وقطعا الردهة الطويلة مرة اخرى صوب حجرتهما .
 كان وجهها جامدا ، وفمها مطبقا ، وعيناها تنمان عن الشرود
 والحيرة ، وكانت تلمس سببا للانفجار ، لا لهدف ترمى اليه ،
 ولكن للترويح من صدرها الهائج المضطرب . ولازم الرجل
 الصمت حتى حواهما المخدع ؛ ثم قال بلطف :
 — يسرنى انى اطلعتك على مدرستى ، وانك فتشت فصولها
 بنفسك . ربما تراءت لك ذات برنامج عسير شاق ؛ ولكنك رأيت
 بعينيك تلميذاتها البارعات ، وجميعهن بغير استثناء دونك ذكاء
 وجمالا ..

فرمقته بنظرة عناد وتحد وسألته ببرود :
 — أتريدنى على ان افعل مثلهن .. ؟

فابتسم فى رقة ، وقال بمكر ودهاء :
 — لا سلطان لأحد عليك ، ولا راد لقضائك ، وانت وحدك
 صاحبة الامر والتهى ، ولكن واجبى ان اوضح لك العالم ، والحيرة
 لك . والحق انه لمن حسن الحظ انى وجدت رفيقا لبيبا تكفيه
 الاشارة ، قد حباه الله جمالا وهمة وبهاء ، فاذا سعت الى
 استشارة حماسك اليوم فعسى أن تسعى أنت غدا الى استشارتى .
 انى أعرفك حق المعرفة ، واقرا قلبك كصفحة مبسوبة ، وها انا

أقول لك عن عقيدة و يقين : انك ستقبلين على تعلم الرقص والانجليزية ، واتقان كل شئ في أقصر فترة من الزمن . ولقد اتبعت نمك سبيل الصراحة من بادئ الأمر وتجنبتي الكذب والخداع ، لأنى أحببتك حبا صادقا ، ولأنى أيقنت من أول لحظة بأنك لا تغلبين ولا تخدمين ؛ فافعلى ما تشائين يا محبوبتى . جربى الرقص أو انبذيه ، استهترى أو عفى ، ابقى أو عودى ، فلا قبل لى بك على جميع الأحوال ..

ولم يذهب خطابه سدى ، فقد سرى عنها ؛ وخف توتر اعصابها ، واقترب منها ، واخذ راحتها بين يديه ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :

— أنت أسعد حظ جادت به الحياة على ما أفتنك ...
ما أجملك ...

وحدق فى عينيها بامعان وافتتان . ورفع يديها — وهما مضمومتان — الى فمه وراح يقبل اطراف أناملها زوجا زوجا ، وهى مستسلمة ليديه ، تجد لكل لثمة من شفثيه تكهرا فى امصابها ، حتى تندت عيناها برقة وهيام . وند عنها نفس حار شبه تنهدة ؛ فأحاطها بذراعيه وضمها الى صدره رويدا حتى شعر بمس ثديها لقلبه ، ثدى بكر ناهد يكاد لصلابته ينغرس فى صدره ؛ وراح يمسح على ظهرها براحتيه صعودا وهبوطا ، ووجهها مدفون فى صدره ، ثم همس : « فمك » فرفعت رأسها ببطء وقد انفرجت شفثاها قليلا ، فطبع شفثيه على شفثيها فى قبلة طويلة جدا ، فاطبقت جفنيها كأنما أخذتها سنة من نعاس . وحملها بيسر فصارت بين ذراعيه كطفل رضيع ، وسار بها متمهلا نحو الفراش ، وقد هز ساقها المطلقتين هزة أطاحت بالشبشب ، ثم أنامها ، ولبت ماثلا عليها معتمدا على راحتيه ، منعمنا النظر فى وجهها المورد . وفتحت عينيها فالتقتا بعينيها ،

فابتسم اليها ابتسامة رقيقة ولكنها ظلت ترنو اليه بنظرة
ساجية . وكان في الحق متعالكا لأعصابه برغم تظاهره بعكس
ذلك ، وكان فكره انشط من قلبه ، وكان قد اجمع رايه على خطة
لا يحيد عنها ، فاستوى واقفا وهو يغالب ابتسامة مأكرة ، وقال
بلهجة من يرع نفسه عن هواها :

— مهلا ، مهلا . . ان الضابط الامريكى يدفع خمسين جنيها
عن طيب خاطر لنمنا للعداء ! .

التفت اليه داهشة ، وسرمان ما غابت من عينيها النظرة
الفاترة ، وحلت محلها نظرة صارمة قاسية قاذرة ، ونهضت
جالسة في الفراش ، ثم انزلت الى الأرض بسرمة فائقة فانتصبت
حياله كلحية الهائجة ، وثارت بها غريزتها العنيفة لرفعت يدها
وهوت بها على خده بقوة وقسوة تجاوزت اركان الحجر رنينها ،
ولبت ثوانى جامدا ثم تمدد جانب فيه الأيسر في ابتسامة هائلة ،
وبسرمة تفوق الفكر رفع كفه ولطمها على خدها الايمن بقوة
متناهية ، ثم رفع يسراه — قبل ان تفيق من اللطمة الاولى —
وصك بها خدها الأيسر بشدة بالغة ! . اصفر وجهها ، وسرت
ارتعاشة في شفتيها ، وانتفض جسمها انتفاضة حيوانية ، فارتمت
على صدره ، وانشبت أناملها المتقبضة في عنقه ، وتلقى الرجل
هذه الهجمة بسكينة ، ولم يحاول مذاقعتها ، بل أحاطها بلرايمه
وشد عليها حتى كاد يهرسها . ومضت أصابعها، تليق ، ثم ارتدت
عن عنقه ، وتحسست منكبيه وعلقت بهما ، ورفعت اليه وجهها
قائبا وثقرا مرتعشا مشوقا . . .

- ٢٤١ -

- ٢٧ -

نشر الظلام رواقه على الزقاق واطبق على جنبانه سكون عميق ، حتى قهوة كرشة اغلقت أبوابها وتفرق سمارها . وفي هذا الهزيع من الليل مرق من باب الفرن شبح زينة ، صانع العاهات ، ينطلق الى تجواله الليلي . قطع الرجل ارض الزقاق الى الصنادقية ، وهرع الى اليسار متجها صوب الحسين ، فكلد يصطدم بشبح قادم في منتصف الطريق ، وما لبث أن تنور وجهه على ضوء النجوم الشاحب فهتف به :

- الدكتور البوشي ؟ من أين أنت قادم ؟

فأجابه الدكتور بعجلة ولهفة :

- كنت ماضيا اليك ...

- أعندك طلاب عاهات ؟

فقال الدكتور بصوت كالهمس :

- عتدي ما هو أهم ، لقد توفي عم عبد الحميد الطالبى ؟

فاضاعت عينا زينة في العتمة وسأله باهتمام :

- متى توفي ؟ .. هل دفن ؟

- دفن مساء اليوم .

- أعرفت مقبرته ؟

- فيما بين باب النصر وطريق الجبل .

وتأبط زينة ذراعه وسار به في الطريق الذى كان آخذا فيه

وهو يسأل مستوثقا :

- ألا يمكن أن تضل الطريق في الظلام ؟

- كلا ... كنت في أثناء سير الجنازة منتبها يقظا فحفظت

علامات الطريق ؛ وفضلا عن هذا فهو طريق معروف لكلينا ،

وطالما قطعناه معا في الظلام الدامس ..

— ٢٤٢ —

- وأدواتك ؟
- في مكان حريز أمام الجامع ...
- وهل المقبرة مكشوفة أم مسقوفة ؟
- عند المدخل حجرة مسقوفة ولكن القبر في فناء مكشوف .
- فسأله بلهجة لم تخل من تهكم :
- أكنت تعرف المرحوم ؟
- معرفة بسيطة . كان بائع دقيق في المبيضة .
- أطقم كامل أم بضع أسنان فقط ؟ ..
- طقم كامل ..
- ألا تخشى أن يكون أهله قد انتزعوا الطقم من فمه قبل
- دفنه ؟
- كلا . إن أهل البلد أهل تقوى ، هيهات أن يفعلوا ذلك ..
- فقال زيطة وهو يهز رأسه أسفا : ..
- مضى زمن والناس يودعون القبر حلى موتاهم .
- فتنهذ الدكتور قائلا :
- أين منا ذلك الزمن !
- وبلغا الجمالية في ظلمة حالكة وصمت مخيم ، ومرا في طريقهما
- بشرطيين ثم اخذا يقتربان من باب النصر ، واستخرج زيطة من
- جيبه نصف سيجارة وأشعلها وراح يدخن بشغف ، وقد فزع
- الدكتور بوسى من ضوء عود الثقاب وقال لصاحبه بترفة :
- بئس ما اخترت هذا الوقت للتدخين ...
- ولكن زيطة لم يباله ومضى يقول وكأنه يخاطب نفسه :
- لا فائدة ترجى من الأحياء ، وقليل من الموتى ذو نفع ! ..
- ومرفا معا من باب النصر ، ومالا الى اليمين يقطعان طريقا
- ضيقا تحف به المقابر من الناحيتين ، ويرين عليه صمت رهيب
- وكأبة شاملة . وقال زيطة عند نهاية الثلث الأول من الطريق :

« هاك المسجد » فتلفت بوشى فيما حوله ؛ وتنصت قليلا فى حذر ، ثم اقترب من الجامع متحاميا احدث اى صوت . وتحسن الأرض لصق جداره فيما يلى مدخله حتى عثر بحجر كبير ، ثم أزاحه عن موضعه بيديه . واستخرج من نقرة تحته فأسا صغيرة ولغافة تحوى شمعة ، وعاد الى صاحبه . فاستطردا فى مسيرهما وهو يقول همسا : « تقع المقبرة فيما قبل الطريق الصحراوى بحمس مقابر » . وجدا فى السير وعينا الدكتور تتطلعان الى المقابر على يسار الطريق ، وقلبه يدق بعنف ، ثم تناقل بفته وهو يهمس : « هذه المقبرة » . ولكنه لم يقف ، بل حث صاحبه على السير وهو يقول :

... سور المقبرة المثل على هذا الطريق عال ، والطريق نفسه غير مامون ، فالأفضل ان ندور حول المقابر من ناحية الصحراء ، ثم نتسور المقبرة من ناحيتها الخلفية حيث يوجد القبر فى الفضاء المكشوف ...

ولم يبد زبطة اعتراضا ، فتقدما فى صمتا حتى انتهيا الى طريق الصحراء ، واقترح زبطة ان يجلسا على الطوار قليلا ريثما يراقبان الطريق ، وجلسا جنبا لجنب ، وراحا يراقبان المكان بأربع أعين . كان الظلام شاملا ، والمكان مقفرا ، وفيما وراءهما تنتشر القبور فتشغل مساحة من الأرض ، لا يحيط بها البصر ، ومع ان هذه المخاطرة لم تكن الاولى من نوعها الا أن الدكتور بوشى لم يستطع ان يتمالك اعصابه أو يسيطر على دقات قلبه المضطرب ، فلبث يحملق فى الظلماء ، فؤاده خافق ، وريقه جاف ، واعصابه متوترة ، فى حين جلس زبطة جامدا ، رابط الجأش ، لا يبالي شيئا ، ولما اطمأن الى خلو الطريق قال للدكتور :

— دع الادوات واسبقنى الى سور المقبرة الخلفى ، وانتظرنى

هناك .

— ٢٤٤ —

ونفض الدكتور على كره ، وتسلل بين القبور مائلا نحو
الأسوار الخلفية للمقابر ، وسار لصق الجدار متلمسا طريقه في
ظلام دامس ليس به من بارقة نور إلا ما تشعه النجوم ، وجعل
يعد الأسوار حتى بلغ خامسها ، وألقى على ما حوله نظرة لص ،
ثم جلس القرفصاء . لم تمثر عيناه بشيء يريه ولم يبلغ أذنه
حس ، ولكن القلق لم يرايله ، واشتد جزعه . وبعد قليل رأى
شبح زليطة على مدى الذراع منه . فنهض في حذر ، وعابن الرجل
السور ثم قال همسا :

— تقوس حتى أصعد على ظهرك .

وتقوس الدكتور معتمدا راحتيه على ركبتيه . ورقى الرجل
ظهره ، وتحسس الجدار حتى قبض على حافته ، ثم تسور بمهارة
وخفة ، ورمى بالفأس واللغافة الشمعة الى داخل الفناء ، ثم مد يده
الى الدكتور حتى التقت يده ، وأعاناه على تسلق الحائط حتى
تسكنه ، وهويا معا ، ووقفا عند أصل السور يستريحان ، والتقط
زليطة في أثناء ذلك الفأس واللغافة ، وكانت أعينهما قد اعتادت
الظلام واستأنست بنور النجوم الخافت ، فرأيا الفناء في شيء من
الوضوح ، وقبرين متجاورين يتعضلان على كئيب من موقفهما ،
وفي نهاية الفناء يقوم الباب المثل على الطريق الذي جاءا منه ،
وعلى جانبيه حجرتان . وسأل زليطة وهو يومئذ الى القبرين :

— أيهما ؟

فأجاب بصوت يكاد ينجس في حلقه :

— على يمينك . .

ودنا زليطة من القبر بلا تردد ، يتبعه بوشى مرتجف الأوصال ،
وحنى قامته متحسسا أرض المنزل فوجدها طرية ندية ما تزال ،
فأعمل فيها فأسه بحذر وهوادة ، مكوما الثرى بين رجليه
المتفرجتين ، وثابر على العمل الذي لم يكن جديدا بالنسبة اليه

حتى كشف عن السلالم التى تسقف منزل القبر ، وشمر طرف جلبابه وجدله وعقده حول وسطه ، وأقبل على طرف السلمة الأولى ، ورفعها شادا على عضلاته حتى انتصبت قائمة . وأخذ ينيمها بمعونة البوشى حتى طرحها أرضا . . . وفعل مثل ذلك بالسلمة الثانية . واكتفى بالنفرة التى فتحها حيث يمكن أن ينزل منها هو وصاحبه ، ومضى إليها ونزل الإدراج وهو يقول للدكتور مغممقا : « اتبعنى » ، فتبعه منقبض الصدر ، متشعر البدن ، وكان الدكتور يجلس - فى مثل هذا الظرف - على الدرجات الوسطى ، ويشمل الشمعة يشبثها فى الدرجة السفلى ، ثم يغمض عينيه ويدفنهما بين ركبتيه ، وكان يدخل القبور على كره ، وطالما ناشد زبطة الرحمة أن يعفيه من دخول القبر ، ولكن الآخر أبى أن يؤدي له هذه الخدمة الا اذا شارك فى جميع خطواتها ، مستلذا فى أعماقه تعذبه . وقد اشتعلت ذبالة الشمعة فأضاءت القبر ، والقى زبطة نظرة متحجرة على الجثث المدرجة فى اكفائها مطروحة فى تلبع وتواز حتى غيابات القبر ، ويرمز نظامها الى تسلسل التاريخ واطراد الزمن ، ينطق صمتها الرهيب بالفناء الأبدى ، ولكنها لم ترجع فى صدر زبطة أى صدى ، فسرعان ما استرد نظره المتحجرة وثبتها على الكفن الجديد عند بدء القبر ، وجلس القرفصاء . ثم كشف عن رأس الجثة بيدين باردتين ، وحسر الشفتين وهالج بأصابعه الطقم حتى انتزعه ، وأودعه جيبه وقد تلوث أنامله . ثم غطى الرأس كما كان ، وتحول عن الجثة الى الباب ، فرأى الدكتور دافنا رأسه بين ركبتيه والشمعة فى أسفل الدرج ترهر ، فرماه بنظرة ساخرة وغمغم فى أذراء : « اصح ! » . فرقع الدكتور رأسه مرتعدا ، ومال نحو الشمعة فتناولها ونفخها قاططهاها ، ورقى السلم فى عجلة كأنه يفر ، ورمى زبطة الدرج كذلك ، ولكنه قبل أن يبرز من النفرة صكت أذنيه صرخة داوية ،

— ٢٤٦ —

وسمع الدكتور يصيح بصوت كالعواء : « في عز ذلكم ! » . تسمرت ، قدماء ، ثم تراجع نازلا الادراج وهو لا يدري ما يفعل وقد اثلجت اطرافه ، وما زال يتراجع حتى داس كعبه الجثة ، فتقدم خطوة . ووقف متسمر لا يجد مهربا ، وخطر له ان يرقد بين الجثث ، ولكنه قبل ان ياتي حركة واحدة غمره نور وهاج اغلق جفنيه . قسرا ، وسمع صوتا شديدا يصيح به في لهجة سعيدية :

— اصعد ، والا اطلقت عليك النار ...

وطوقه الياس فاستسلم . ورقى الدرج كما امر ، وقد نسى العظم الذهبي في جيبه .

ولم يثناه الى الزقاق نبا القبض على الدكتور بوثنى وزبطته . في مقبرة الطالبى الا عند عصر اليوم التالى . ونسنا الخبر وعرفت . اسبابه ، وتناقله القوم في دهشة وانزعاج . وما ان علمت به الست سنية طفيفى حتى استحوذ عليها الفرع ولولت صارخة ، وانتزعت طقمها الذهبى ورمته به ، واخذت تلطم خديها في حالة عصبية شديدة ، ثم سقطت مغمى عليها . وكان زوجها في الحمام . فلما ان قرع اذنيه صراخها اخذه الرعب فارتدى جلبابه على جسده المبلول ، وهرع اليها لا يلوى على شيء .

— ٢٤٧ —

— ٢٨ —

كان عم كامل جالسا على كرسية على عتبة الدكان ، مائلا
رأسه على صدره ، غارقا في النعاس ، والمنشأة في حجره . ثم
استيقظ على ديبب شيء على صلته فتحركت يده حركة آلية
ليطرد ما ظنه حشرة ، ولكنها وقعت على كف آدمية ، فقبض عليها
ساخطا . وتابوه متدمرا ، ورفع رأسه ليرى ذلك المداعب الثقيل
الذي أيقظه من نعاسه اللذيذ ، ف وقعت عيناه على عباس الحلو . .
الم يكذب يصدق عينيه . فحمل في مشدوها ، ثم اشتد احمرار
وجهه المنفوخ فرحا ، وهم بالنهوض ، ولكن الشاب لم يمكنه من
ذلك ، واحتضنه بدراعيه فتعانقا عنقا حارا ، والحلو يهتف به
متائرا :

— كيف حالك يا عم كامل ؟

فيجيبه الرجل في لهفة وسرور :

— كيف أنت يا عباس . . أهلا وسهلا ومرحبا . . . لشد ما
أوحشتني يا مكروت ! .

ووقف الحلو بين يديه مبتسما ، والآخر يتطلع اليه بعينين
شقيقتين . وكان يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا رماديا ، وقد
حسر رأسه ورجل شعره فبدا أنيقا حسن المنظر موفور الصحة
مورد الوجه ، فرمقه عم كامل باعجاب وقال بصوته الرفيع :

— ما شاء الله ! أنت رائع يا جوني ! .

فضحك عباس الحلو ضحكة رنانة صاعدة من قلب جذل

وقال :

- ثالك يو . . لن يرطن الشيخ درويش بالانجليزية وحده
بعد اليوم !.

وأجال الشاب عينيه في الزقاق المحبوب ، فوقعتا على دكانه
القديم ، ورأى صاحبه الجديد مكبا على حلق ذقن زبون ، فرنا
الى الدكان رنوة حنان وتحية ، ثم طار بصره الى النافذة فوجدها
مغلقة كما كانت حين قدومه ، فتسائل : ترى اهى فى الدار أم فى
الخارج ؟ ، وما عسى أن تفعل اذا فتحت الباب فوجدته أنه
الطارق ؟ . سوف تحلق فى وجهه بدهشة وذهول ، فبملا عينيه
من حسننها الباهر ! . هذا يوم أغر من الايام المكدودة فى العمر .
وانتبه الى صوت عم كامل وهو يقول متسائلا :

- اتركت عملك ؟ .

- كلا ، ولكنى اخذت اجازة قصيرة .
- ألم تدر بما حصل لصاحبك حسين كرشة ؟ هجر اباه ،
وتزوج ، ثم استغنوا منه فعاد الى بيته يجبر وراءه زوجته
وشقيقها .

قلاح الاسف فى وجه الحلو وقال :

- يا لسوء الحظ . . ! انهم يستغنون عن العمال كثيرا فى هذه
الايام ، وكيف استقبله المعلم كرشة ؟
فمط عم كامل بوزء وقال :

- لا يفتأ شاكيا متبرما ، أما الفتى وأهله فيقيمون فى الدار .
وسكت الرجل نصف دقيقة ثم قال متعجلا كأنما ذكر امرا
هاما :

- أما علمت بأن الدكتور بوشى وزبطة مسجونان ؟

ثم قصر عليه كيف قبض عليهما فى قبر الطالبى متلبسين
بجريمة سرقة طقمه الذهبى ، وقد وجم الحلو وجوما شديدا ،
ولم يكن يستبعد أن يرتكب زبطة اشنع الجرائم ، ولكنه عجب

- ٢٤٩ -

للدكتور بوشى كيف سولت له نفسه اقتراف هذه الجريمة
النكراء!.. وذكر كيف طلب اليه أن يركب له طقما حين عودته
من التل الكبير ، فالتوت شفتاه امتعاضا وتقرزا .
واستدرك عم كامل يقول :
- وقد تزوجت الست سنية عفيفى ..

وكاد يقول له «العقبى لك» ولكنه أمسك فجأة وقد دق قلبه
بعنف! ذكر عند ذاك حميدة!.. ولكم ذكر هذا الموقف فيما
تلا ذلك من أيام متعجبا من نسيان ما كان ينبغى أن يذكره لأول
وهلة!.. ولكن الخلو لم ينتبه لتغيره ، وسرعان ما شغل بآماله
وأفراحه فتراجع خطوتين قائلا :
- استودعك الله الى حين ..

وأشفق الرجل أن يدهمه الخبر على حين غرة فسأله بلهوجة:
- أين تقصد ؟
فقال الخلو وهو يهم بالمسير :
- الى القهوة أسلم على من بقى من الصحاب ..

فالتأ عم كامل على ركبتيه وقام جاهدا ، وتبعه متبخترا .
وكان الوقت عصرا فلم يجدا بالقهوة من أصحابهما الا المعلم كرشة
والشيخ درويش ، فسلم عباس على المعلم الذى لاقاه بترحيب ،
وشد على يد الشيخ درويش ، فرمقه الشيخ بنظرة باسعة من
وراء نظارته ولم ينبس بكلمة . وكان عم كامل يعانى انقباضا
ثقيلًا ، وحزنا مريرا ، ولا يدرى كيف يفتاحه بالنبا الأليم ، فقال
له برجاء :

- هلا عدت معى الى الدكان قليلا .. ؟
ووقف عباس مترددا بين رجاء صاحبه وبين الزيارة المنشودة
التي انتظمها حزنا واضعة أشهر ، ولكن لم يهن عليه عم كامل ، ولم
يجد بأسا فى المكث معه فترة قصيرة من الوقت ، فرجع معه الى

— ٢٥٠ —

دكانه مداريا برمه بابتسامه لطيفة ، وجلسا في الداخل جنباً لجنب ، وهو يقول مسروراً :

— الحياة في التل الكبير حياة عظيمة ، عمل متواصل ، وريح موفور ، انى لا ابشر نقودى قلنا بعيشة متواضعة لا تكاد تختلف عن عيشة الرقاق ، حتى الحشيش لم اذقه الا مرات معدودات مع انه هنالك كالماء والهواء ، وقد ابتعت هذا .. انظر يا عم كامل العقبى لك ..

واستخرج من جيبه بنطلونه عليه صغيرة وفتحها ، فان بداخلها عقد ذهبى مركب من سلسلة وقلب رقيق ، تم اسطرود وعيناه البارزتان تلمعان بسرور .

— شبكة حميدة .. اما علمت ؟! .. ساكتب الكتاب في اجازتى ..

هذه ..

وتوقع ان يقول الرجل شيئاً ، ولكن عم كامل لاذ بصمت ثقيل وغض بصره كانه يخفيه ، فنظر اليه الشاب باهتمام ، ولاول مرة راي ما ينطق به وجهه من وجوم واكفهرار . ولم يكن عم كامل من الذين يفلحون في اخفاء ما يعتمل في انفسهم ، فلاح باطنه عارياً في وجهه ، وسرعان ما قطب الحلو وساوره القلق ، فاغلق العلبة واعادها الى جيبه . وانعم في صاحبه النظر فداخله خوف انقبض له قلبه ، واشفق على قلبه الجدل الجبور ان تطفئ جلوته خيبة لا يدرها ولا يتوقعها . اشفق من ذلك اشفاقاً اليماموجعاً ، ولكن نذر الكدر تخايلت لعينيه في وجه الرجل المرتبك الواجم ، ولم يستطع مع جموده صبراً ، فسأله بارتياح :

— مالك يا عم كامل ؟! .. لست كعهدي بك . ما الذى غيرك ؟!

لماذا لا تنظر الى ؟!

فرفع الرجل وجهه اليه ببطء ، وطالعه بعينين مظلمتين . «حزونتين» وفتح فمه ليتكلم . ولكن لسانه خائه فلم يطاوعه ،

ويبلغ الجزع بعباس مداه ، وتنبا قلبه بالفاجعة ، فشعر بالقنوط
يعطىء أضواء فرحه ، ويخمد أنفاس أمله ، فهتف بحزم قائلاً :
— ماذا وراءك يا عم كامل ؟ ما الذى تريد أن تقول ؟ . عندك
ما تقوله بلا ريب ، يل فى ضميرك أشياء وأشياء ، فلا تقتلنى
بترددك . حميدة ؟! ... أى والله حميدة !.. قل ما تشاء .
لا تعدبنى بسكوتك . هات ما عندك دفعة واحدة .

فلزدد الرجل ريقه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :
— ليست موجودة !. لم تعد هنا . اختفت . لا يدرى أحد
بهبها شيئاً .

أنصت اليه بدهول وفزع ، ونقشت الكلمات فى وعيه كلمة
كلمة ، ولكن غشى فهمه ضباب وغبار ، وكأنما انتقل فجأة الى
«دنيا المحمومين » فقال بصوت متهدج :
— لست افهم شيئاً . ماذا قلت !. لم تعد هنا . اختفت ؟!
ماذا تعنى ؟ .

فقال عم كامل يأسى :
— شد حياك يا عباس . يعلم الله أنى حزين أسيف ، وأنى
حلت همك من أول الأمر ، ولكن ما باليد حيلة ، اختفت حميدة ،
ولم يدر أحد عنها شيئاً . خرجت يوماً كعادتها كل عصر ولكنها
الم تعد . فتشوا عنها فى مظانها جميعاً دون جدوى . بلغنا قسم
الجمالية ، وبحثنا عنها فى قصر العيني ، ولكن لم نعثر لها
على أثر .

لاح فى وجهه سهوم ، ولبت حيناً جامدا صامتا ، لا يتكلم
ولا يتحرك ولا يطرّف . لا مذهب ولا مهرب . الم يتنبا قلبه
بالفاجعة ؟. بلى . وها هو يصدق . يا عجباً . ، ماذا يقول
الرجل ؟.. اختفت حميدة ؟. وهل يختفى البشر كما تختفى

ابرة او قطعة من النقود ؟! لو انه قال ماتت او تزوجت لامكن
أن يجد لمضطربه مدى او نهاية ، فالياس على اية حال اروح من
الشك والحيرة والعداب ، ولكن ماعسى أن يفعل الآن ؟! بات
الياس نعمة لا يطمع فيها بحال ، وخرج من جموده فجأة ،
فاستمرت نفسه هياجا وارتعشت أطرافه ، وحدث الرجل بعينين
محمرتين وصاح به :

- اختفت حميدة !.. وماذا فعلتم ؟.. بلغتكم قسم الجمالية
وبحثتم في قصر العيني ؟.. جزاكم الله كل خير ، ثم ماذا ؟..
عدمتم الى اعمالكم كان شيئا لم يكن !.. يا لطف الله !.. انتهى
كل شيء ، فرجعت أنت الى دكانك ، وراحت أمها تطرق ابواب
العرائس ، وانتهت حميدة ، وانتهيت أنا أيضا ، ماذا تقول
يا رجل ؟ خبرنى عما تعلم ؟ ماذا تعرف من امر اختفائها ؟..
كيف اختفت ؟ ومتى وقع ذلك ؟!

استحوذ الاضطراب على عم كامل لما بدر من صاحبه من
حدة وغضب ، وقال بصوته الحزين :

- مضى على اختفائها زهاء شهرين يا بنى ، كان حادثا مروعا
مغزوا ارتجت له القلوب . والله يعلم أننا لم نال جهدا فى البحث
والاستفسار ، ولكن ما باليد حيلة !

فضرب عباس كفا على كف ، وقد احتقن الدم بوجهه ،
وازدادت عيناه جحوظا ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :

- زهاء شهرين !.. رباه .. هذا تاريخ قديم . لا أمل فى
العثور عليها . ماتت ؟.. شرقت ؟.. خطفت ؟.. من لى بأن
أدرى ؟.. خبرنى بما يقول الناس ؟

فقال عم كامل وهو يرمقه بحزن وحنان :

- ظنوا ظنونا كثيرة ، ثم رجحوا انها ذهبت ضحية لحادث ،
أما الآن فلا يذكرن شيئا ..

— ٢٥٤ —

فهتف الشاب متأوها :

— طبعاً .. طبعاً ، فلا هي ابنة لأحد منهم ، ولا قريبة أحد ،
حتى أمها ليست بأمرها ، ترى ماذا حدث لها . كنت في هذين
الشهرين أسعد الناس أخلاقاً . أرايت كيف يحلم انسان بالسعادة
اذ الشقاء يترقب يقظته ساخراً هائزاً طاوياً مصره بيديه
القاسيتين ؟! . ولعلى كنت أنعم بلديد السمر بينما كانت تنهرس
تحت عجلة ، أو تتخبط في قعر النيل .. شهران يا حميدة ! .
لا حول ولا قوة الا بالله .

ونهى قائماً ضارباً الأرض بقدمه ، ثم قال بامتعاض :

— استودعك الله .

فساله بلهفة :

— علام نويت ؟

فقال بفتور :

— ساقابل أمها ..

وذكر وهو يدلف من باب الدكان متثاقلاً كيف جاء وهو يكاد
يطير من جلده فرحاً ، وكيف يذهب محطماً مهبطاً ، فعرض على
شفته ، وتسمرت قدماه وقد بلغ منه الأسى منتهاه ، وتحول نحو
صاحبه فراه ينظر اليه بعينين مغرورقتين بالدمع ، ففقد جنانه
وهرع نحوه بلا وعى ، ولرتمى على صدره في قنوط ، ونشج
منتحباً باكياً كالاطفال ..

الم يداخله شك في حقيقة اختفائها ؟! . ألم يساوره ما يساور
المحبين من ارتياب وسوء ظن في مثل حالته ؟ الحق ان طيف شك
قد لاح بخاطره ولكنه لم يلق اليه بالا فتبدد . كان بطبعه شديد
الثقة ، يوجد بالظن الحسن بغير حساب ، كان طيب القلب جداً ،

ومن هذه القلة من الناس الذين ينزعون بغفرتهم الى اقامة المعاذير
لغيرهم ، واختيار أخف التأويلات لأفظع الفعال . ولم يغير الحب
من طبعه هذا ، بل لعله رسخه وقواه ، فلم تظفر منه وسوسة
بالغيرة وهممة الشك بأذن مرهفة . وقد أحب حميدة حباً شديداً
باركته فطرته الطيبة بثقة وطمأنينة ، وآمن - الى هذا كله - بأن
غياته اكمل فتاة في هذه الدنيا التي لم ير منها شيئاً يذكر ، فلم
يداخله شك فيها ، أو أن طيف الشك الذي لاح له لم يجد في
قلبه مرتعاً يعث فيه . وقد ذهب لمقابلة أمها ذلك اليوم . ولكنها
لم ترو له غلة ، واعادت عليه ما قصه عم كامل بصوت مختنق
بالعبرات . وزعمت له ان الفتاة كانت لا تفتأ تتذكر وتترقب
عودته بصبر فارغ ، فضاعفت بكدها أحزانه ، وغادرها كما جاءها
كسير الفؤاد ، مبلبل الفكر ، معذب النفس ، وغادر الزقاق تسوقه
قدماه الثقيلتان ، وقد زعفر الأصيل هامة النهار ، تلك الساعة
التي اعتاد - في الأيام الخوالي - أن يرى فيها مطلعها المحبوب اذا
خرجت لنزهتها اليومية ، وقطع الطريق ذاهلاً عما حوله . فتمثلت
لعينيه بجسمها المفلوف في الملاة السوداء ، وعينيهما النجلاوين
المحبوبتين . وهفت على قلبه ذكرى الوداع الأخير على البسطة .
فتنهذ من الأعماق . ونفخ محزوناً قانطاً : ترى أين هي الآن ؟ ..
ماذا تصنع ؟ وماذا صنع الله بها ؟ .. اتعيش على ظهر الأرض أم
ترقد في قبر من قبور الصدقة ؟ .. رياه . كيف تحجر قلبه طوال
ذلك العهد فلا استشف ريبة ولا شام نذيراً ! .. كيف استنাম
الى طمأنينة الأحلام ولذة المنى فأكب على العمل غافلاً عما يخبئه
له الغد ؟! . وايقظه الزحام من ذهوله فتنبه الى الطريق ، هذا
الموسكى طريقها المختار باناسه ودكاكينه . كل شيء فيه باق على
حاله ، الا هي ، اختفت كأن لم تملأ الدنيا بهاء بالأمس ، والمث به
رغبة في البكاء . ولكنه لم يستسلم لها هذه المرة . لقد أراحه

البكاء على صدر عم كامل ، وارخى توتر أعصابه ، وتركه الحزن ، عميق هادئ ، فيجدر به الآن أن يتساءل عما هو فاعل ، أيدور على الأقسام وفصر العيني . . ولكن ما جدوى ذلك ؟ ، أيدوخ شوارع القاهرة مناديا باسمها ؟ . أيطرق أبواب البيوت بابا بابا ؟ . لله ما أعجزه وما أعجز حيلته . إذن هل يعود الى التل الكبير متناسيا وراء ظهره ؟ ، ولكن لماذا يعود ؟ لماذا يصر على تحميل نفسه آلام الغربة ؟ . لماذا يكد ويكدح ويجمع النقود ؟ . الحياة بغير حميدة عبء ثقيل لا طائل تحته ، غاضت في قلبه مشاعرها ، جميعا الا فتورا يزهرق الأنفاس وخمودا يقتل الإحساس ، وهو الى هذه الحالة المضنية التي تبدو فيها الحياة فراغا كثيبا يحرق به سد هائل من القنوط . كان يعيش على الفطرة لا يدري شيئا عما وراءها ، مخلصا لقوانين الحياة الأولية ، فوجد في الحب جوهر حياته وخلودها ، فلما أن فقدته فقد الأسباب التي تصله بالحياة ، وتردى مزعزا كدرة هائمة في الفضاء . ولولا أن الحياة - التي تجرع غصص الآلام - تتفنن في إفراء بنيتها بالتعلق بها حتى في أحلك أوقاتها ، لحتم عمره وقضى ، ولكنه مضى في سبيله حائرا قد ضل هدفه ، بل شعر في تلك اللحظة أنه ضله الى الأبد . بيد أنه ما زال معلقا بخيط دقيق يدق على وعيه ، ولمح في بمرض الطريق بنات المشغل العائدات فما يدري الا وهو يتجه نحوهن ويعترض سبيلهن فوقن دهشات وقد تذكرنه في غير مشقة ، وقال لهن بلا أدنى تردد :

— مساء الخير يا بنات ، لا تؤاخذننى . الا تذكرن صاحبكتن .
حميدة ؟

فقالت أحدهن :

— نذكرها جميعا . . . ونذكر كيف اختفت فجأة فلم نرها منذ ذلك اليوم !

— ٢٥٦ —

فسال بصوت ينطق بالأسى :

— ألا تدرين شيئا عن اختفائها ؟

فقلت أخرى ، وقد لاحت في عينيها نظرة مأكرة :

— لا ندرى شيئا على وجه اليقين . إلا ما قلته لأمها حين

جاءنى يوم اختفائها تسال عنها ، من اننا رايناها مرات بصحبة

أفندى يسيران معا فى الموسيقى .

وحملق فى وجه محدثته بدهول وقد ارتعتى جانب فيه ،

وسألها :

— ارايتها بصحبة أفندى .؟

ونال منظره من الفتيات فاخفتت من اعيهن نظرات خبيثة

ساخرة ، وتكلفن الرزاة ، وقالت محدثته برقة :

— نعم يا سيدى .

— وأخبرت أمها بذلك ؟

— نعم ..

وشكرهن بكلمة ، وسار فى طريقه ، ولم يداخله شك فى انهن

سيجعلن منه حديثهن بقية الطريق ، ولعلهن يضحكن كثيرا من

الفتى المغفل الذى هاجر الى التل الكبير ليجمع ثروة لمحبوبته ،

فأثرت عليه آخر ولدت معه . يا له من مغفل حقا !. ولعل أهل

حيه جميعا قد لفظوا بنقلته ، وقد رحمه عم كامل فأخفى عنه

الحقيقة ، كما أخفتها أم حميدة ، وهل كان بوسعهما أن يفعلا غير

ما فعلا ؟، وخاطب نفسه ولما يفتق من ذهوله قائلا : « هذا

ما حدثنى به قلبى لأول وهلة » . ولم يكن صادقا فى قوله ، لأن

الشك لم يلم به الا الامامة خفيفة ، ولكنه لم يعد يذكر فى محنته غير

هذه الامامة الخفيفة من الشك ، بيد أنه تأوه فى اللحظة التالية

وتسائل يسط اصابعه ويقبضها فى حركات تشنجية : « رباه

كيف أعقل هذا !. أهربت حميدة حقا مع رجل ؟!. من يصدق

هذا ؟! « لم تمت اذن ، ولم يعرض لها حادث ، ولقد اخطاوا خطأ كبيرا في البحث عنها في الأقسام وقصر العيني ، وغاب عنهم أنها تنام سعيدة رحية البال بين ذراعى الرجل الذى خطفها ، ولكنها وعدته ومنته ، أفكانت تضادعه ؟ . أم توهمت خطأ أنها تميل اليه . . ! كيف عرفت ذلك الأفندى ؟ ومتى أحبته ؟ . وأى جراحة شيطانية أغرتها بالفارار معه ؟! كان ممتع اللون ، بارد الأطراف ، تلوح في عينيه نظرة ساهمة قاتمة ، وتبرق فيها من أن لأن لمحة خاطفة تقدح شررا . خطر له خاطر فصعد رأسه الى الدور على جانبى الطريق ، ينظر الى نوافذها ويتساءل : فى أى دار ترقد لصق رجلها الآن ؟ . انقشع غبار الحيرة ، وحل محله غضب نارى ومقت نهم ، وتقبض قلبه وتلوى تحت ضغط . يذى الغيرة القاسيتين . غير أن شعوره بالخيبة - الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود فى التراب - كان أفظع من الغيرة نفسها . ان الغرور والكبرياء وقود للغيرة يؤرثان لهيبها ، ولم يكن حظها منهما ملحوظا ، ولكنه كان شديدا الأمل كبير الأحلام . فدوى أمله وتبدد حلمه ، وانفجرت نفسه غضبا ، وأفاده الغضب من حيث لا يدرى ، فاستنقذه من ذاك الحزن الصامت الثقيل ، وعلمه بالانتقام يوما ولو على سبيل البصق والازدراء . والواقع ان فكرة الانتقام استحوذت على مشاعره فى تلك الساعة الجهنمية من الغضب والقهر ، فتمنى أن يتمكن من طعن قلبها الغادر الخائن بمديحة حادة . الآن يستطيع ان يدرك سر مواظبتها على الخروج فى العصارى ، فقد كانت تنطلق عارضة نفسها على ذئاب الطرق ! . ولكنها جنت بغير شك ، جنت بهذا الأفندى ، والا لما أثرت العهر معه على الزواج به !: . وعرض على شفته الما وحنقا لهذا المخاطر ، وانفتل راجعا وقد ضاق ذرعا بالمشى والوحدة . وتحسنت يده حلبة العقد فى جيبه ، فانطلقت من فمه ضحكة جافة ساخرة كأنها زقاق المدق

- ٢٥٨ -

ضرخة فغضب في رداء ضحكة : ليته يستطيع ان يشنقها بسلسلة
هذا العقد الذهبية ! وذكر كيف وقف في دكان الصائغ يقلب عينيه
بين الحلى وقلبه يكاد يقفز من صدره جدلا وسرورا . وهفت
الذكرى على قلبه كالنسيم الوانى الا انها التقت بوهج تلب
مضطرم فانقلب النسيم حرورا ..

- ٢٩ -

ما ان وقع السيد سليم علوان على العقد المبسوط على المكتب
حتى شد الخواجا الجالس قبالة على يده وقال له :
- مبارك عليك يا سليم بك . هذه ثروة طائلة .

وعلق بصر السيد بالخواجا وهو يمضى في سبيله حتى نوارى
وراء باب الوكالة : صفقة زابحة . وبحسبة انه تخلص من
مخزون الثماى الذى اشتراه الخواجة جملة ، فربح الشيء الكثير
وامن شر المخاوف ، خصوصا وان صحته لم تعد تطيق أهوال
الننوق السوداء . بيد انه قال لنفسه ساخطا متبرما : « ثروة
طائلة ولكنها ملعونة ، لقد حلت اللعنة بكل شئ فى دنياى » . والحق
انه لم يبق من السيد القديم الا شبح هزيل ، وكانت أعصابه اشد
ما يضنيه ، وكأنها تعهدت بالقضاء عليه ، فسامته تفكيرا متواصلا
فى الموت حتى صار الموت شغله الشاغل . ولم يكن الرجل فى
الأصل بالضعيف الايمان ولا كان بالرعديد التجبان ، ولكن تهاافت
أعصابه انساه آداب الايمان والوى بشجاعته . وما انفك يفكر فى
ساعة الاحتضار - وقد ذاق بعض مرارتها فى ابان مرضه -
ويستذكر ذكرباته عنها ممن حضرهم الموت من اقاربه ، ذاك الرقاد
الميتسليم الاليم ، وصعود الصدر وهيوطه ، وبهذه الحشرجة

المتقطعة ، وظلام المقتلين ، وبين هذا وذاك تنتزع الحياة من الأعماق والأطراف ، وتودع الروح الجسد . أفبقي كل هذا في سر ؟! ان الانسان ليحزن اذا انتزع ظفره ، فكيف يكون اذا انتزعت روحه وحياته ؟! . ولا يدري الا المحتضر نفسه حقيقة هذا الألم ، فما نستطيع ان نلمس غير آثار الاحتضار الظاهرة ، أما صداها في الروح ورجعها في الجسد ، فسر الميت الذي ينطوى عليه صدره ، ويقبر معه في جدته ، وآخر ذكرياته عن آلام الدنيا في أفظع حالاتها وابشعها . ولو أنه أتيح لميت أن ينطق عن عذاب احتضاره لما نعم انسان بساعة صفو واحدة في الحياة ، ولما الناس ذعرا قبل ان تدركهم النهاية . وطالما تمنى أن يسلكه الله في زمرة المحظوظين ممن يموتون بالسكينة القلبية . ما أسعدهم بين الأحياء والأموات على السواء ، أنهم ليموتون وهم يتكلمون أو يأكلون ، أو حين يقومون أو يقعدون ، وكأنهم يمكرون بالاحتضار فيتجنبون منه غفلة ثم ينسلون خفية الى باب الأبدية . . ولكنه في شبه يأس من هذه الميتة السعيدة ، وقد ضرب له أبوه - وجده من قبل - مثل الميتة التي يشعر قلبه ألتهافت الفرع بأنها ستجرى عليه ، احتضار طويل يغشى نصف يوم ونزع شديد تشيب له الولدان . من كان يصدق أن السيد سليم علوان - الرجل القوى السعيد - سيمسى فريسة لهذه الأفكار والمخاوف ؟! . هكذا كان ، ولم يكن الاحتضار بفرمه الوخيد . فقد انجذبت أفكاره المحنومة نحو ضجعة الموت نفسها ، فاطال فيها التفكير والتفلسف على طريقتة ! وصور له خياله وثقافته المتوارثة عن الأجيال ، أن بعض شعوره سيلزمه بعد الموت ، ليس الأحياء يقولون : أن عيني الميت تريان من يحرقون به من الأهل ؟! . فحتم أن يرى الموت جهرة ، وأن يشعر بالنهاية الأبدية وهي تشتتله ، وأن تتصل حواسه بظلمة القبر ووحشته وغربته

وهياكله وعظامه واكفانه ، بل بضيقه واختناقه ، وما يحتمل أن يتردد في النفس من أشواق وحنين وجب للعالم وأهلها .. مثل ذلك كله يصدر منقبض وقلب متشنج وأطراف باردة وجبين يتفصد عرقا ، ولم ينس ما وراء ذلك من بعث ونشور وحساب وعذاب ، أواه .. ما أبعد الشقة بين الموت والجنة ! .

ولذلك تعلق بأهداب الحياة بقوة الخوف والياس ، على رغم أنها حياة عاطلة من أسباب النعيم ، فلم تترك له دورا يلعبه في مسرحها إلا المراجعة وعقد الصفقات . ودأب عقب نقاهته على استشارة طبيبه ، فأكد له الطبيب شفاءه من الدبحة وآثارها ، ولكنه نصحه بالحذر والحرص والاعتدال . وشكا إليه عدة مرات ما يعانى من سهاد وهواجس فأشار عليه باستشارة أخصائى فى الأعصاب . ومن ثم مضى يتردد بين الأخصائيين فى الأعصاب والقلب والصدر والرأس ، وتفتح له باب المرض عن عالم لا يقل عن عالمنا اتساع رقعة وازدحاما بالسكان من الجرايم والأعراض الخفية . ومن عجب أنه لم يكن يؤمن بالطب والأطباء ، ولكنه آمن بهما فى اضطرابه ، ولعل إيمانه هذا كان من بين أهرافس المرض الذى ألم بأعصابه ! .

وفى هذا الجحيم من الهواجس كادت تنحصر حياته ، وفى اوقات عمله ، وأوقات السلام التى تصفو فيها نفسه وتنقى من نمش الهواجس ، كان كأنه يتفرغ لافساد علاقته بالمحيطين به من البشر ، فهو أما فى حرب مع نفسه ، وأما فى حرب مع الناس ، وأدرك عمال الوكالة من بادئ الأمر أن سيدهم قد استحال شخصا شاذا ملعونا ، فترك الوكيل وظيفته بعد خدمة طويلة استمرت ربع قرن من حياته ، وبقي من بقى من العمال على مضض وتوجس واستكراه . وقال عنه أهل الزقاق أنه بين العقل والجنون ، وقالت حسنية الفرانة بشماتة لم تحاول أخفائها :

— ٢٦١ —

« انها صينية الفريك والعياذ بالله » . ويوما قال له عم كامل
عن قصد حسن ونية سليمة :

— هلا امرتنى يا سى السيد ان اصنع لك صينية بسبوسة
مخصوصة ترد عليك ثوب العافية باذن الله ؟ ولكن السيد غضب
غضبا شديدا وانفجر صائحا فيه :

— اليك عنى ايها الغراب ، اجننت يا اعمى القلب والبصرة ا.
ان امثالك فقط من البهائم تبقى لهم معدهم سليمة حتى الف ..

ولم يعد بعدها عم كامل الى التعرض له بخير او بشر .

اما زوجه فباتت رمية سهلة لغضبه وسخطه ، ولم يفتأ يلقي
على حسدها المزعوم له تبعة ما حصل له في جسمه وعقله ، وكان
ينتهرها قائلا :

— لشد ما نغمت على صحتى وعافيتى ، حتى تحطمت بين
يديك ، فهنيئا لك الراحة يا افعى ..

واشتد به سوء الظن ، حتى ارتاب يوما ان يكون نما اليها
عزمه على الزواج من حميدة ، لان امثال هذه الامور تتصدى لها
اعين كثيرة فتراها في خفية من صاحبها ، وتتطوع السنة كثيرة
لاذاعتها وايصالها لصاحب الشأن ، ولم يستبعد عند ذاك ان تكون
المرأة قد انتقمت منه بان عملت له « عملا » هو الذى اودى
بصحته وعقله ؟ . ولم يكن في حالة تسمح له بان يزن ما يعرض
له من فكر بميزان العقل ، ولا ان يسيرها بمسبار الحكمة ،
فسرعان ما انقلبت الريبة يقينا ، فتميز غيظا ، وامثالا حقا ،
وتوئب للانتقام : اشتط في معاملتها ، وداب على سبها ونهرها ،
ولكنها قابلت قسوته بالامثال والصبر والادب ، فلم يجده
شططه ، ولبت يتحرق الى اثارها ، واخراجها من التعوذ بالصمت
والصبر الى الاخذ باسباب التشكى والتلذذ وذرف الدموع ،
فقال لها مرة بجفاء وازدراء :

— ١٢٦٢ —

— لقد مللت عنسرتك . ولا اخفى عنك انى شارع فى الزواج ،
سوف اجرب حظى مرة اخرى . . وسدفته المرأة . فتصدع بنيان
بذانتها المتماسك ، وفزعت الى ابناؤها فباحث لهم بما تلقاء على
يديه من سوء القول والفعل ، وهالهم الامر ، ودهمهم الخطب ،
فايقنوا ان اباهم ينزلق الى مهوى وخيم العواقب : وزاروه يوما
واقترحوا عليه — ابقاء على مسحته — ان يصفى تجارته ويفرغ
للراحة والعناية بنفسه . وفطن الرجل الى ما يساورهم من
خوف غير جديد عليه . فغضب غضبة هائلة ، وعنفهم بفظاظة
لا عهد لهم بها ، وخاطبهم بحدة قائلا :
— حياتى ملك لى اسرفها كيفما اشاء ، وسابقى عاملا ما راق
لى العمل فاعفونى من نصحكم المغرض .

وضحك متهمكا ثم استدرك وهو يقلب فى وجوههم عينيه
الدابلتين :

— الم تحدثكم امكم عما اعتزمت من الزواج مرة اخرى ؟ . .
هو الحق . لقد شرعت امكم فى ثلى ، فساوى الى كنف امرأة
جديدة على شئ من الرعثة . واذا تضاعف عددكم بهذا الزواج
فثروتى كفيلا باشباع اطماعكم جميعا . .

وانذرهم بانه سيقبض يده عنهم . وان على كل منهم ان يعتمد
فى حياته على موارده الخاصة . وقال بسخط وغضب :
— انى كما ترون لا اكاد اذوق غير مر الدواء ، فلا يصح ان
يتمتع الآخرون بمالى .

قال كبيرهم :

— كيف تخاطبنا بهذه اللهجة المزة ونحن ابناؤك البررة ؟
فقال السيد ساخرا :
— بل ابناؤ امكم .

ونفذ وعيده فلم يعد يحمل شئ من طرفه الى بيوت ابناؤه .

— ٢٦٣ —

وحزم مطبخ سراياه من الانواع الفاخرة التى اشتهر بها ، والتى حرمت عليه هو بعد مرضه ، ليشاركة الجميع — خصوصا زوجه — فيما فرض عليه . ولهج بحديث الزواج المزعوم حين وجده السهم النافذ الذى تحطمت دونه ما تدرع به زوجه من سبر واناة ، وتشاور ابناؤه فيما بينهم ، وقد الفاهم الخطب قلبا واحدا فى التوجع لاييهم ، والاخلاص له فى محنته ، وقال كبيرهم :
— نتركه وشانه حتى يقضى الله امرا كان مفعولا .

بيد أن المحامى قال بشيء من الحزم مستدركا :
— اللهم الا اذا شرع فى الزواج حقا ، فأشد ما نتخذه من احتياطات اهون من ان نتركه هملا بين أيدي الطامعين ..

وكان اختفاء حميدة حدثا فظيعا فى حياته ، ومع انه لم يعد الى ذكرها — منذ مرضه — فتخلفت عن تيار شعوره ، الا أن خبر اختفائها اثار اهتمامه وجزعه ، فتتبع بقلق بحث الباحثين عنها ، ولما تنهى اليه ما تهامس به اللاغطون من انها فرت مع رجل مجهول ، انزعج انزعاجا شديدا ، وثار قضبه ذلك اليوم فلم يجرؤ احد على الدنو منه ، فرجع مع المغيب الى بيته مهدم الاعصاب ، واصابه صداع شديد ارقه حتى مطلع الفجر . وحنق على الفتاة الهاربة حنقا كبيرا ، وتأكل قلبه حقدا وغضبا ، وتمنى أن يراها يوما متدلية من مشنقة ، مندلقة اللسان ، جاحظة العينين ، ولما علم بعودة عباس ، الحلو من التل الكبير سكن روعه لغير ما سبب واضح ، ودفعته رغبة لا تقاوم الى استدعاء الشاب ، وقربه ، ولطفه فى الحديث وسأله عن احوال معيشته ، متجنباً ذكر الفتاة ، فسر الشاب بعطفة ، وشكر له حذبه ، وأقبل على الحديث فى استفاضة من استنام الى لطفه ، والسيد يسترق اليه النظر .

من عينيه الغائرين . وفي الايام الاولى التى أمعبت فرار حميدة وقع حادث - ربما كان فى ذاته تافها - ولكنه مما يؤرخ به فى رفاق المدق . كان السيد سليم علوان منجها نحو الوكالة فى ضحوة النهار فالتقى بالشيخ درويش ذاهبا لبعض شأنه ، وكان السيد - فى عهده الأول - من محبى الشيخ درويش ، وكثيرا ما تعده بالبر والاحسان والهدايا ، ولكنه أغفله فى مرضه وأهمله . وكأنه لم يعد يشعر له بوجود ، ولما التقيا على كتب من باب الوكالة هتف الشيخ درويش وكأنه يخاطب نفسه :

- اختفت حميدة .

فبهت السيد . وظلنه يعنيه بقوله ؛ فما تمالك أن صباح به :

- مالى أنا ولهذا !

ولكن الشيخ درويش واصل خطابه قائلا :

- ولم تختف فحسب ؛ ولكنها هربت . ولم تهرب فحسب ولكنها هربت مع رجل ؛ ويسمون ذلك فى الانجليزية Elobement وتهجيتها . . e . ، وقبل أن يتم الرجل تهجية الكلمة انفجر السيد صاخا :

- انه ليوم شؤم اذ أصبحت على وجهك يامجنون ؛ اقرب عن وجهى عليك لعنة الله . .

وجمد التسيخ فى مكانه كأنه تسمر فى الأرض ، ولاحت فى عينيه نظرة طفل مذعور اذا لوح له شخص بعضا مهددا ، ثم اهل باكيا ، ومضى السيد لطيته . ولبت الشيخ درويش بموقفه باكيا ؛ وعلا صوته فصار أشبه بالصراخ ، حتى أهاب نواحه بالمعلم كرشة وعم كامل والحلاق المجور فهرعوا اليه متسائلين . وقادوه الى القهوة ، واجلسوه على أريكته وهم يطيبون خاطره ويسكنون روعه ، وطلب له المعلم كرشة قدحا من الماء ؛ وربت عم كامل على كتفه قائلا : بتوجه :

— ٢٦٥ —

— وحده الله يا شيخ درويش ، اللهم اكفنا سوء .. بكاء
الشيخ نذير غير محمود العواقب .. اللهم لطفك .

ولكن الشيخ ازداد بكاء وعويلا ، فاضطربت انفاسه ،
وارتجفت اوصاله ؛ واطبقت شفاته في توتر وتشنج ، وراح يشد
ربطة رقبته بعنف ، ويضرب الأرض بقبقبائه ، وفتحت ثوافد
الدور وأطلت الرعوس في دهشة وانزعاج ؛ وجاءت حسنية
القرانة ، وشدت النحيب طريقه الى مسمى السيد سليم علوان
في الوكالة ، فانصت اليه غاضبا حائقا ، وظل ينصت اليه هاتجا ،
وجعل يتساءل متى يمسك عن العويل ؟ .. وعبثا حاول أن
يفيب بانتباهه عنه ، فكانه كان يلح في مطاردته والتضييق عليه ،
حتى خيل اليه أن الدنيا جميعا تبكي وتنوح . وسكت غضبه
وسكن هيلجه ، ولكن ما طفق البكاء يرعش اوتار قلبه فترن في
اشفاق والم . ليته شكم غضبه ولم ينتهر الشيخ الولي ! ..
ليته لم يضادفه في طريقه ! .. وما كان ضره لو أغضى عنه ومر به
من الكرام ! .. وتاوه ناديا ، ومضى يقول : ان الانسان في مثل حالته
من المرض حري بأن يزدلف الى الله لا ان يغضب وليا من اوليائه ،
وطوى كبريائه ، ونهض قائما ، وغادر الوكالة متوجها الى قهوة
كرشة ، وقصد الى الشيخ الباكي غير عابء بالانظار التي سددت
نحوه في دهشة ، ووضع يده على منكبه برفق ، وقال بلهجة تنم
عن الاعتذار والاسف :

— يا شيخ درويش .. سامحني .

٣٠

كان عباس الحلو يجلس مختبئاً بنفسه في مقبة عم كامل حين
دق الباب بعنف ، فنهض اليه وفتحها فرأى حسين كبرشة مرتدياً
القميص والبنطلون ، تبرق عيناه الصغيرتان كعادته ، بم بادره
قائلاً :

- كيف لم تقابلني وهذا ناني يوم لك في المدق !! كيف
حالك ؟ فمد له الحلو يده مبتسماً ابتسامة باهتة وقال :

- كيف أنت يا حسين !! لا تؤاخذني فمتعب أخاك ،
لا ناس ولا مهمل ، هلم نسر معا .

وخرجاً معا ، وكان عباس الحلو قد قضى ليلته مسهداً ، وقطع
التهار متفكراً ، فسار مصدع الرأس ، منغل الجفون ، ولم يكذ
يبقى من ثورة الأمن اتر ، سكنت الغضب الجنوني ، وبرد الهياج
الحامى ، وتلاشت خواطر الانتقام الدموي ، على حين رسب في
قرارة نفسه حزن عميق وبأس مدلهم ، وبمعنى آخر تخلصت
نفسه مما لا يطيقه من ألوان الانفعال ، مسامة بكليتها للحزن
والياس . وقال له حسين متسائلاً :

- اما علمت بانى كنت هجرت بيتنا عقب سفرك مباشرة ؟
.. حقا !!

- وتزوجت ، واخذت باسباب حياة رائعة ..

فقال الحلو وهو يثسب صوته شسيناً من الاهتمام الذى
لا يجده :

- حمدا لله .. مبارك .. عال .. عال ..

- ٢٦٧ -

وكانا قد بلغا الغورية ، فضرب حسين الأرض بقدمه وصاح
بجدة :

- بل زفت وهباب !.. استغفوا عني فعدت الى الرقاق على
رغمي ، وانت هل استغفوا عنك أيضا ؟
فأجابه الشاب بفتور :

- كلا .. ولكنني منحت أجازة قصيرة ..
فأكلت الغيرة قلبه ، وضحك ضحكة باردة ثم قال :
- أنا الذي دفعتك الى العمل دفعا وانت تمنع ، وها انت
ذا تنعم على حين اتسكع أنا متعطلا .
.. وكان عباس من أدرى الناس بما تنطوى عليه طبيعة صاحبه
من غل وشر ، فقال بانكسار :

- نهايتنا قريبة على أية حال ، هنا ما يؤكدونه لنا .
فارتاح حسين قليلا ، ثم استدرج يقول في صوت أسيف :
- كيف انتهت الحرب بهذه السرعة ؟! من كان يصدق
هذا ؟!

فهز الخلو رأسه دون أن ينسى بكلمة ، سيان عنده إن تستمر
الحرب أو تنتهي ، وأن يبقى في عمله أو يفصل منه ، أنه لا يبالي .
شيئا على الإطلاق . وكاد يضجره حديث صاحبه ، إلا أنه الفاه
أخف من الوحدة والفكر ، ومن ناحية أخرى تحمله - كما اعتاد
أن يتحمله - دفعا لشره ، واستطرد حسين قائلا :
- كيف انتهت بهذه السرعة !.. كان الأمل معقودا بهتلر
أن يطيلها الى ما لا نهاية ، ولكن انهاها حظنا الأسود .
- صدقت ..

فصباح حسين بشدة :
- نحن تعساء . بلد تعس وإناس تعساء .. اليس من
المحزن ألا نلوق شيئا من السعادة إلا اذا تطاحن البعالم كله في
حرب دامية ؟! فلا يرحمنا في هذه الدنيا إلا الشيطان !.

وامسك قليلا وهما يشقان طريقهما بين سابلة التسكة الجديدة ، وقد اخذ ستار الظلام في الانتشار ، ثم قال متنهدا في حسرة :

— لشد ما تمنيت ان اكون جنديا محاربا ! . تصور حياة جندي باسل ، يخوض غمار الحرب ، وينتقل من نصر الى نصر ، يركب الطائرات والدبابات ، يهاجم ويقتل ويسبي النساء الفارات ، ويبدل له المال عن سخاء ، فيسكر ويعربد فوق القانون . هذه هي الحياة ، الا تمنى ان تكون جنديا ؟ .

الحق ان ركبته كانتا تتخلخلان اذا سمع صفارة الانذار ، وكان من رواد المخا الموابين . فكيف يتمنى ان يكون جنديا من المحاربين ؟ بيد انه تمنى صادقا لو كان خلق جنديا فظا متعطشا للدماء فيسهل عليه الانتقام ممن آذوه وبددوا حلمه في السعادة والحياة الرفيدة ! . وقال بلهجته الفاترة :

— من لا يتمنى ذلك ؟ !

وانتبه الى الطريق ، فازدحمت براسه الخواطر . رباه .. كيف للزمان ان يمحو ذكريات هذا الطريق من صدره ؟ ! ، ان ارضه لا تزال تحمل آثار قدميها اللطيفتين ، وان هواءه لا يبرخ معبقا بانفاسها المحبوبة . وكأنه يراها رؤية العين وهى تخطر بقوامها المعتدل المشوق ، انى له ان يطمع فى نسبان هذا كله ؟ ! . وقطب متغيظا على نفسه لجودها بهذا الخنان لغير اهله ، واطبق فمه فلاح وجهه صارما قاسيا ، وعادته لفحة من نورة الأمس ، ينبغى ان ينبلده ، وان يطرح من يخونه ، والا يحرق اضلعه حزنا — ولا حتى غضبا — على من يرقد ناعما بين احضان غريم له . تبا للقلب من صاحب خئون ، دسيسة على الروح والجسم ، نجب من لا يحبهما ، ويعرض على من لا يفرط فيهما ، فيسيم صاحبه الخسف والهوان . واستيقظ عند ذاك على صوت حسين الصاخب وهو يلكره هاتفا :

— ٢٦٩ —

— حارة اليهود .

ووقف بيده عن السير متسائلا :

— ألا تعرف حانة فيتا ؟ ألم تدمن الخمر في التل الكبير ؟

فاجابه عباس قائلا باقتضاب :

— كلا .

— كيف عاشرت الانجليز ولم تشرب الخمر ؟ يا لك من خروف

تعس . . الخمر شراب منعش ومفيد للمخ ، تعال . .

وتأبط ذراعه ومال به الى حارة اليهود ، وكانت حانة فيتا تقع على بعد يسير من مدخلها : على جانبها الأيسر ، وهى اتسبه بدكان ، متوسطة ، مربعة الشكل ، تمتد في جانبها الأيمن طاولة ذات سطح رخامى ينهض وراءها الخواجا فيتا ، وقد نبت في الجدار خلفه رف طويل صفت عليه الزجاجات ، وقامت في نهايته من الداخل براميل ضخمة ، وعلى سطح الطاولة وضعت جفان الترمس والأقداح ، ازدحم حولها الشاربون من أهل البلد ، حوزية وعمال وآخرون حفاة ونصف عراة كالسحاذين ان كان الشحاذون يسكرون . وبقي من الحانة غير ذلك موضع اتسع لبعض المناضد الخشبية ، فجلس اليها اصيل السوقة والعاجزون عن الوقوف لكبر او لسكر شديد ، ورأى حسين مائدة شاغرة في نهاية الحانة فقاد صاحبه اليها ، وجلسا حولها ، وقلب عباس عينيه في المكان الصاخب المدوى في صمت وقلق ، حتى استقرتا على غلام في الرابعة عشرة قصير مفريط في البدانة ، نمطين الوجه والجلباب ، حافى القدمين . يزحم الشاربين ويكرع من قرح مترع ، ويتمايل رأسه سكرا ، فانسعت عيناه دهشة ولفت حسين اليه ، ولكن هذا لوى بوزه استهانة وقال بسخرية :

— هذا عوكل بائع الجرائد . يبيع الجرائد في النهار ويسكر

في الليل ، غلام ولكن قل في الرجال مثله ، أرايت يا غشيم !

ومال برأسه نحوه قليلا وقال :

— ٢٧٠ —

— كأس النبيل بقرش ونصف لذة للمتعطلين أمثالي . منذ
شهر كنت أشرب الويسكى فى بار فنش ولكنها الدنيا القلب ،
معلش يا زهر ! .

وطلب كاسين ، فجاء بهما الخواجا ووسعهما على المائدة
ومعهما طبق ترمس ، ونظر عباس الى كأسه بقلق وقال منسفا
من لسان صاحبه اشفاقه من الاقدام على التجربة الجديدة :
— يقولون انها مؤذية ! .

فتقبض حسين على قدحه وهو يقول بسخرية :
— تخاف على نفسك لا . خذها تقتلك . . فى داهية يا سيدى
لا أنت فى الزيادة ولا فى النقصان . سحتك .

وقرع كاسه بكاسه ، ثم افرغها فى جوفه بعير مبالة . ورفع
عباس كاسه وكرع منها كرة . ثم ابعدها عن يده متقرزا . وفد
شعر كان لسانا من لهب اندلع فى حلقه . فتقبض وجهه وكأنه وجه
لعبة من البطاط ضغطته اصابع طفل ، وقال متدفا :
— فظيع . مر . حامى .

فتضاحك حسين ساخرا . شاعرا بزهر واستعلاء . وقال .
بازدراء :

— تشجع يا طفل ، الحياة امر من هذا الشراب ، واوخم
عاقبة . . .

ورفع كأسه ووضع حافتها بين شفتيه وهو يقول : « اشرب
حتى لا تندلق على قميصك » فتجرعها الآخر حتى الشمالة ، ونفخ
متقرزا ، ثم احس حرارة فى بطنه ، سرت بسرعة عجيبة ناشرة
وهجها فى جوفه ، فشغل بالانتباه اليها عن تقرزه ، وتبع اثرها
وهو يندفع مع دمه ، ويجرى فى عروقه ، حتى اذا بلغ راسه خفت
وطأة الدنيا عليه قليلا ، وقال حسين بسخرية :
— اكتف اليوم بكاسين ولا تزد . .

- ٣٧١ -

وطلب كاسا اخرى لنفسه وراح يقول :

- اقيم الان عند ابى ومعى زوجى وشقيقها . ولكن نسيبى وجد عملا فى الترسانة وسيفارقنا اليوم او غدا ، ويقترح ابى على ان اشرف على القهوة نظير ثلاثة جنيهاً فى الشهر ، وبمعنى آخر اشتغل من الفجر حتى منتصف الليل بثلاثة جنيهاً ! . . ولكن ماذا تقول لحشاش مجنون ؟! وهكذا ترى ان الدنيا تناصبني العداء ، وتستفز غضبى ومقتى ، وليس عندى الاجاب واحد : فاما الحياة التى طابت لنا ، واما حرقنا الدنيا ومن عليها . .

فساله عباس ، وكان اخذ يستشعر راحة وجدها عجيبة للذيدة بالنسبة لما عاناه طوال يومه من هم وفكر :
- ألم توفر مالا ؟ . .

فقال حسين بحدة وسخط :

- ولا مليما ! كنت اسكن شقة نظيفة بالوايلية ، فيها الكهرباء والماء ، وكان عندى خادم صغيرة تقول لى بكل احترام : « يا سيدى » ، وكنت ارتاد السينما والفرقة القومية . وبحث كثيرا ، وضيعت كثيرا ، وهذه هى الحياة ، ان اعمارنا ذاهبة فلماذا تبقى النقود ؟ بيد ان النقود ينبغى ان تساير العمر حتى نهايته ، والا فالويل لمصر اذا لم تساير النقود الاعمار ، ليس لدى الان الا قليل من الجنيهاً غير حلى زوجى . .

وصفق طالبا كاسا ثالثا ثم قال باشفاق :

- والادهى من ذلك ان زوجى تقيات فى الاسبوع الماضى . .

فقال عباس متظاهرا بالاهتمام :

- لا بأس عليها .

- لا بأس ولا زفت ، هذه امارات الحبل كما تقول امى ، وكان الجنين غثت نفسه تقززا من الحياة التى تنتظره فأعدى أمه . . ولم يطلق عباس أن يتابعه بالأصغاء لسرعه ولهوجته ، ولم

يعد يهتم بذلك ، وانتابته كآبة فجائية بعد ان نعم ساعة بالراحة ،
ولاحظ الآخر شروده وسهومه فقال باستياء :

— مالك لا .. انك لا تصفى الى ..

فقال عباس بصوت حزين :

— اطلب لي كاسا اخرى ..

وحقق حسين مشيئته بسرور ، ورنا اليه ينظر مريب ثم قال :

— أنت متكرر وأنا أعلم بسبب كدرك ..

فخفق فؤاد الشاب وقال بلهجة :

— لا شيء مطلقا ، هات ما عندك انى معبغ اليك ..

ولكنه لم يباله وقال بلهجة لم تخل من احتقار :

— حميدة ..

فاشدد وجيب قلبه ، وكأنه تجرع كاسا نائلة . نهاج دمه

وسرى اليه الوجد والحزن والغضب ، فقال بصوت منهج :

— أجل حميدة ، هربت ، خطفها رجل . عار وشقاء ! .

— لا تحزن كثيرا كالحمقى . وهل طابت حياة من لم تفر عنهم

نساؤهم ؟ !

وتناهى الانفعال بالشباب فقال بغير وعى :

— ترى ماذا تفعل الآن ؟ !

فضحك حسين ساخرا واجابه :

— تفعل ما عسى ان تفعله اية امرأة فرت مع رجل ..

— انت تهزا بالى .

— الملك سخيف ، خبرنى متى علمت بفرارها ؟ .. مساء

الامس ! .. كان ينبغي ان تكون نسيتها الآن ..

وهنا أحدث عوكل - الغلام الشريب بائع الجرائد - حركة

لفتت اليه انظار الجلوس ، وكان قد استوفى شربه ومضى ثملا

مترنحا حتى اذا بلغ عتبة الحانة نظر فيما حوله بعينين زائفتين

وراسه يميل الى الراء فى عظمة وسلطنة وصاح بلسان ملتبس :

— ٢٧٣ —

— انا عوكل شاطر الشطار وسيد الرجال ، اسكر وانبسط ،
وما انا ذاهب الى مشيقتي ، فهل لاحد منكم اعتراض ؟ ..
اهرام ، مصرى ، البعكوكة ...

واختفى الغلام تاركا وراءه عاصفة من الضحك ، أما حسين
كرشة فقد عبس غاضبا ، ولاح الشر في عينيه ، وبصق بصقة
طار الى الموضع الذى كان به الغلام ، واخذ يسب ويلعن . كانت
اقل اثاره من تحد — ولو على سبيل المزاح — كافية لاشعال غضبه
واهاجة روح الاعتداء الكامنة فيه ، ولو كان الغلام بمتناول يده
للكمه او ركله او اخذ بتلابيبه . والتفت الى عباس — وكان يتجرع
كاسه الثانية — وقال بحدة وكأنه نسي ما كانا آخذين فيه من
اسباب الحديث :

— هذه حياة وليست لعبة خشبية ، يجب ان نعيش ؛ ..
الا نفهم ؟

ولم ينتبه عباس اليه ؛ كان يخاطب نفسه قائلا : « لن تعود
حميدة ، اختفت من حياتي الى الأبد ، وماذا تجدى عودتها ؟ ،
ولكن سأبصق على وجهها اذا التقيت بها يوما ، هذا أشد من
القتل . أما ذاك الأفندى فالويل له منى ؛ سادق عنقه .. » .

واستدرك حسين قائلا :

— هجرت الملق فأعادنى الشيطان اليه ، سأضرم به النار ،
هذه خير وسيلة للتحرر منه .

فقال عباس بأسى :

— زقاقنا لطيف ، وما طمعت يوما فى أكثر من حياة طيبة
فيه ..

— انك لخروف ! وحلال أن تنحر فى عيد الاضحى . علام
تبكى ؟ . انك عامل وفى جيبك نقود ، ولتجمعن غدا بتقتيرك مالا
وفيرا فماذا تشكو ؟

— ٢٧٤ —

فقال عباس بلهجة تشف عن الاستياء :

— انك أكثر منى شكوى ، وعمرك ما حمدت الله ..

فحدجته الساب بنظرة قاسية اثابته الى رشده وجعلته يستدرك قائلا بلين :

— لا عليك من هذا ، لكم دينكم ولى دين ..

فقهقه حسين بصوت ارتجت له الحانة ، وقال وقد أخذت الخمرة للعب براسه :

— خير لى ان اشتغل خمارا من ان اشتغل مكان أبى فى القهوة ، الربح هنا موفور ، فضلا عن هذا فالخمر مبدولة للخمار بغير حساب ...

فابتسم عباس ابتسامة فائرة وقد بات اتسد حذرا فى مخاطبة صاحبه الديناميتى ، وكان ديبب الخمر يسرى فى اعصابه ، ولكنه بدل أن ينسى شجوه تركزت خواطره فيه ، وصاح حسين مرة أخرى :

— فكرة رائعة ! .. سأتجنس بالجنسية الانجليزية ، فى بلاد الانجليز الكل سواسية ، لا فرق بين الباشا وابن زبال . فلا يبعد أن يصير ابن القهوجى رئيس وزارة ...

وانبعتت نسوة مباغثة فى دم الخلو فقال بحماس :

— فكرة طيبة ! .. سأتجنس أيضا بالجنسية الانجليزية ..

ولكن حسين لوى سفتيه ازدراء وقال بسخرية :

— مستحيل ، انت خرع ، فالأنسب أن تتخذ الجنسية الايطالية ، ومهما يكن من امر فسنسافر على سفينة واحدة ...

قم بنا ..

ونفضا واقفين ، واديا حسابهما ، وغادرا الحانة والحاو يتسائل :

— أين تذهب الآن ؟

- ٢٧٥ -

- ٣١ -

لعل الساعة الوحيدة التي داومت عليها من حياتها الغابرة هي انطلاقتها الى الخارج عند الاصيل من كل يوم ، ولكنها الآن تطيل الوقوف امام المراة المسقولة ؛ اصلها ثابت في الحوض الذهبي وفرعها سامق في سماء الفرفة ، وكانت قد فرغت من ارتداء ملابسها واخذت زينتها ؛ فبدت امرأة جديدة كأنما ولدت في احضان النضارة ونمت وترعرعت في مطارف الجاه والنعيم : على الراس عمامة بيضاء مرتفعة في تقوس كالخوذة ، عقص تحتها شعرها المدهون العبق ، الخدان والشفتان مصبوغتان بالحمرة على خلاف بقية الوجه خلا من الاصباغ ، بعد تجربة طويلة دلت على ان بشرتها البرنزية افتن للجنود الخلفاء واحب اليهم ، الاشجار مكحلة ، والاهداب مدهونة مفصلة تهدف اطرافها الحريرية الى عل ، وعلى الجفون ظلال بنفسج مقطرة من نسائم الفجر ، هلالان مزججان خطتهما يد ماهرة مكان الحاجبين ، سلسلتان من البلاتين ذواتا نبقتين من اللؤلؤ تتدليان من الاذنين ، غير سباعة ذهبية في معصمها وهلال منفرس في مقدم العمامة ، فستان ابيض يشف أعلاه عن قميص وردى وتنضح حاشيته بسمرة فخلديها ، جورب رمادي من الحرير الخالص لبسته لا لشيء الا غلو ثمنه ، وقد تطاير شذا عبق من تحت ابطيها وراحتيها وعنقها ، فشد ما تعبر كل شيء !

ولقد اختارت سبيلها من بادىء الامر بمحض ارادتها ، وبعد تجربة وعناء ، تكشف لها أفقه عن افراح وضاء وخيبة مريرة ، فوقفت على قمة الامتحان تردد عينيها بين اليمين والشمال متحيرة متلهفة ...

علمت من اول يوم ما يراد بها . فشارت غاضبة هائجة ،
لا لتكسر ارادة عشيقها الحديدية . ولكن استسلاماً لداعى عجزتها
واشباعاً لغريزتها المتعطشة للعراك . ثم اذعن بعد ذلك وكانها
تدعن بمحض مشيئتها وادركت بوضوح ، وبفضل بلاغة فرج
ابراهيم ، انها لكى تتمرغ فى التبر ينبغى ان تتمرغ فى التراب .
فلم تبال شيئاً ، وفتحت صدرها للحياة الجديدة بحماس وسرور
وهمة ، حتى صدق عليها قول عشيقها يوم وصلها بالتاكس الى
حيها من انها « عاهرة بالفطرة ! » وتجلت مواهبها فبرعت فى فترة
قصيرة فى اصول الزينة والتبهرج وان سخروا اول الامر من سوء
ذوقها . فكانت سريعة التعليم ، محسنة للتقليد . ولكنها سيئة
الاختيار لالوان يبابها وفى ميلها الى الحللى تبذل ملموس . ولو كان
ترك الامر على ما تشتهى وتحب لتبذل وكانها « مالة » فى زواقيها
الفاقع وحليها التى تكاد تغطى جسمها ، وفيما عدا ذلك فقد تعلمت
الرقص بنوعيه ، ودلت على مهارة فى تعلم المبادئ الجنسية للغة
الانجليزية ، ولم يكن النجاح الذى جاءها يجر اذباله بمستغرب
فتهاقت عليها الجنود وتساقطت عليها اوراق النقود ، وانتظمت
فى سلك الدعارة لؤلؤة منعدمة النظير . وبدا لها انها فازت بكل
شئ ، وانها لم تخسر شيئاً . فلم تكن فى عهدها الاول بالساذجة
فتاسى للخدعة التى اطاحت بها . ولم تكن بالفتاة الطيبة فتذهب
نفسها حشرات على ما فقد من امل فى الحياة الطيبة . ولم تكن
بالفاضلة حقاً فتبكي على شرفها المثلوم . ولم تشدها الى ذلك
الماضى ذكرى حسنة يهفو اليها السواد فانغمرت فى حاضرها
المحبوب لا تلوى على شئ . وعلى العكس من ذلك كانت غالبية
الفتيات اللاتى يضطرين فى مضمارها . فمنهن حماعة يتطاحن فى
قلوبهن الاسى والطمع والشقاء والياس ، ومنهن بائسات يشقن
ليقمن اود اسرات جائعات ، ومنهن تعيسات يخفين تحت شفاههن

المصبوغة قلوبا دامية ، ونفوسا حنانة الى الحياة الفاضلة . اما هي فقد طابت بحيانها نفسا ، واذكت عينها الفانتان ضياء الزهو والحرية والرضا والفرح . الم تتحقق احلامها ؟ بلى والثياب والخلي والذهب والرجال المتهافتون آيات على ذلك ، ناهيك بهذه السطوة السحرية التى دان لها المعجبون . أضمن الغريب بعد ذلك ان يلوح المدق كما يلوح السجن للأبق الطليق ! ولقد ذكرت يوما كيف أسفت فيما مضى على رغبة عشيقها من الزواج منها : وتساءلت : اكانت تفضل حقا ان تتزوجه ؟ . وجاءها الجواب بالنفى بلا تردد . ولو تحقق ذلك الزواج لكانت الآن قابضة فى بيت ، دائبة على القيام بدور الزوجة والخادم والأم وغير ذلك من الواجبات التى تدرى الآن من تجربة ويقين انها لم تخلق لها ، فله ما أبرعه وما أفطنه وما أبعد نظره ! . ومع ذلك أقول حذار ! .. اياك ان تتصورها امرأة شهوانية ، تستحوذ عليها شهوة طافية ، هى أبعد ما تكون عن ذلك ! والحق ان شدوذها لا يكمن فى قوة شهوتها ، لم تكن من هذه الطائفة من النساء اللاتى تستأسرن الشهوة وتسندلن فيجدن بكل غال فى سبيل ارضائها : كانت تتلف بروجها وجسمها على الظهور والسطوة والعراك ، وكانت - حتى بين ذراعى الرجل الذى محضته الحب - تتلمس انامل الحب خلال اللكمات والصفعات . وقد باتت شاعرة بهذا الشدوذ فى عواطفها ، أو هذا النقص فى طبيعتها ، وكان ذلك من دواعى تماديها واستهتارها ، بيد انه كان كذلك من أسباب تعلقها بعشيقها ، وعن هذا التعلق نجمت الخيبة المريرة التى منيت بها .



كانت تجتر خواطر هذه الخيبة وهى ماثلة امام المرأة تأخذ زينتها ، ثم طرق اذنيها وقع خطاه - ذلك الرجل - ورات صنورته فى المرأة وهو يقتحم عليها الغرفة بوجه جامد رزين كأنه لم يكن

ذاك العاشق الولهان ، فتحجر بصرها وتشنج فلبها . لم يعد الرجل الذى عرفته من قبل . وهذه هى الخيبة المريرة ، ولو طال بها العهد فربما هان الخطب بعض الشيء ، ولكنه دهمها فى نشوة الايام الاولى ، فلم تنعم بحبه خالصا فى لذة وسعادة وحلم وخيال وهناء وامل ، الا زهاء عشرة ايام ! ثم غلب المدرب فيه على العاشق ، ومضى يتكشف رويدا عن التاجر ، ذلك الرجل القاسى القلب الذى يتجر بالاعراض . والواقع ان قلبه لم يعرف الحب قط ، ولعله من الغريب ان تقوم حياته على هذه العاطفة التى لم تحرك فؤاده ابدا . كانت طريقته اذا اوقع فريسة فى شباكه ان يعمل معها دور العاشق - وهو ما اتقنه بطول الممارسة وأسعفنه عليه فحولته - حتى اذا استنامت اليه تمتع بها فترة قصيرة . ومن ثم يطمئن الى سيطرته عليها بما يبعثه فيها من تعلق به وما يتبناها به من قيود مالية ، ثم بما يتهددها عادة من رقابة القانون . . . فاذا تم له سعيه بدا على حقيقته ، وتمخض العاشق عن تاجر الاعراض . ولقد عزت حميدة فتور عاطفته الى الجو المشبع بانفاس النساء الذى يعيش فيه ، فانقلب ولا هم لها الا الاستئثار به ، وصار همها هذا شغلها الشاغل الذى نغص عليها صفوها ، فباتت فريسة للحب والغيرة والغضب . واستحوذت عليها هذه المشاعر جميعا وهى تنظر الى صورته التى تطل عليها على صفحة المرأة ، فتحجر بصرها وتوثبت ارادتها وتوترت اعضابها . اما هو فقال بلهجة سريعة متظاهرا بالمجلة :

— انتهيت يا عزيزتى . . ؟

ولكنها لم تعبا به ، وتعمدت الا تجيبه استكراها لما يبدى من ملاحظات عن « العمل » وتذكرت بحسرة عهدا لم يكن يحذرهما الا عن الحب والاعجاب . الآن لا تنفرج شفثاه الا من العمل او الزنج . والآن لا تستطيع عنه فككا بحكم هذا العمل ، وبطغيان عواطفها نفسها ، وان الغضب ليملاّن صدرها ، ولكن ماذا يجدى هذا

الغضب ؟ ! .. لقد فقدت حريتها . التي استباحني في سبيلها كل
 منكر ، وانها ليدخلها شعور بالقوة . والسيادة ما دامت في الطريق
 أو الحانة ، حتى إذا رآته أو ذكرته حل محل هذا المشعور الباهر
 احساس بالأسر والذل . ولو اطمأنت الى قلبه لكان كل عسير ،
 فدل الحب في اعماقه ظفر ، أما والحال غير ذلك . فما تدري الا
 الجئون مهربا من حيرتها ، وكان فرج ابراهيم يعلم بما يختلج في
 صدرها ، ولكنه كان يريد لها على أن تعتاد جفوته لتحسن التسليم
 بالقطيعه المرتقة ، ولو كانت امرأة أخرى لكان عليه هجرها بغير
 عناء ، ولكنه أثر أن يجرعها كأس القنوط نقطة نقطة ، واستوصى
 بالصبر والناة شهرا طويلا ، حتى بات متاهبا للضربة الحاسمة ،
 قال بلهجة العارية عن العاطفة :

— هيا يا عزيزتي فالوقت من ذهب .

فصرخت وجهها اليه بعنف وقالت بحدة :

— هلا اقلعت عن هذه العبارات السمجة ؟ .

— هلا اقلعت أنت يا عزيزتي عن الاجابات الجافة !

فتهدج صوتها غضبا وهي تقول :

— اهكذا يحلو لك أن تخاطبني الآن ؟ !

فتظاهر بالملل وقال :

— أوه .. انعود مرة أخرى الى هذا الحديث المجوج ؟ !

« تخاطبني بهذه اللهجة » . « أنت لا تحبني » ... « لو كنت

تحبني لما اعتبرتنى مجرد سلعة ! » .. ما جدوى هذا الكلام ؟ .

الا اكون عاشقا الا اذا رددت صباح مساء « أنا عاشق » ؟ . الا

اكون محبا الا اذا بادرتك كلما التقينا « احبك » ؟ . الا يكون حب

الا اذا شغلنا بحدث الحب عن عملنا وواجباتنا ؟ . احب أن يكون

عقلك كبيرا كغضبك ، وان تكرسى حياتك — كما اكرس حياتي —

لعملنا العظيم ، وان تجعله فوق الحب نفسه وفوق كل شيء ..

وأصفت إليه بوجه مصفر من الغضب ، هذا كلام بارد فائر ، هذه مراوغة لا أثر فيها لم عاطفة . ولقد ملت مثل هذا الكلام من قبل ، وكادت تألفه مذ أنست منه الفتور ، وأنها لتذكر كيف بدا الماكر بنقدها متعمدا ، فكان يفحص يديها بعناية ، ويبحثها على المزيد من الاهتمام بهما قائلا : « أطيلي أظافرك واحسبينيها بالمانيكور ... يدك نقطة ضعف في جمالك ! » ، وقال لها مرة أخرى متشفيا وقد طال بينهما الجدل : « حذار هذه نقطة ضعف أخرى ما فطنت لها من قبل ، صوتك يا عزيزتى .. انزعقي اذا شئت من القم لا من الخنجرة ، فهذا صوت خشن فظ ، ولو أهملناه بلا تهذيب وترهيف فظع ، ولعله يذكر السامع بالمدق ولو كنت في عماد الدين ! » .. هكذا تكلم القاجر ! .. لشدما ما ألتها قوله واذل قلبها الفخور ، وظل يصطنع معها المراوغة والملاينة كلما طرقت حديث الحب ، ولكنه بكرور الأيام أسقط من تمثيله حتى هذه الملاينة الكاذبة ، وربما قال لها في ملل : « الحب لعب ونحن جادون ! » أو قال بغير مبالاة : « هلمى الى العمل .. الحب كلام فارغ » . تبأ له ، لشد ما ملأ رعاء خيالها بالذكريات الأليمة ! وقد حدجته بنظرة قاسية وقالت بحدة :

— كلامك هذا لا يجوز على ، لماذا تذكرنى دائما بالعمل ، الالهية عنه انا !! انك لتعلم انى افوق الأخريات وأبرع عليهن ، وانك لتربح من كدى أضعاف ما تربح من كثيرات مجتمعات . فاهجر أنت هذا الحديث المعاد الممجوج ، وخبرنى صراحة فقد شقت باللف والدوران ، أما زلت تحببى ؟ !

وحديثه نفسه بأن يقذفها بالجواب القاطع ! الم يمهدها فيه الكفاية ؟ . ونشط فكره في سرعة وقلق وعيناه اللوزيتان لا تتحولان عن وجهها الغاضب ، ولكنه تردد وأثر السلامة ولو الى حين ، فقال يداريها :

— عدنا كما توقعت الى الحديث القديم ...

فانفجرت صارخة :

— اجبنى بصراحة : احسبتنى اموت اسي لو حرمتنى نعمة
جيك ؟.

ليس الوقت مناسباً . لعلها لو جابته بهذا السؤال على اثر
ايابها من الخارج ، او فى الصباح — حين يتسع الوقت للملاحة
والشجان — لكان اجابها كما يشاء . اما الآن فالجواب الصريح
حرى باضاعة ثمرة اليوم هباء ؛ فلذلك ابتسم ابتسامة باردة
وقال بهدوء :

— احبك يا عزيزتى ...

افبح بكلمة الحب اذا نددت عن فم مملول ، كالبصقة ! استحوذ
عليها القهر ، وشعرت فى قهرها بانها لا تتأبى عن هوان وان جل
لو ضمن ان يعيده الى اجضانها ! واحسنت لحظة ان حبه مطلب
تهون من اجله الحياة ، ولكنها كانت لحظة عابرة سرعان ما افاقت
من غشيانها ، ثم امتلأ قلبها ضغينة ، فاقتربت منه بخطوات
وعيناها تلتمعان لمان الماس الناشب فى عمامتها ، وقالت مصممة
على ان تشق طريق التحدى حتى نهايته :

— تحبنى حقاً ؟ ! اذن فلنتزوج .

ونظمت عيناه بالدهشة ، ونظر اليها بين مصدق ومكذب ،
ولم تكن تعنى ما قالت ولكنها ارادت سبر اغواره ، فقال لها :

— وهل يغير الزواج من امرنا شيئاً ؟

— انجل . لنتزوج ، ولنهجر هذه الحياة .

ونفذ صبره ، وتولدت فى صدره عزمة صادقة : ان يحسم
الامر بما يقتضيه من صراحة وقسوة ، وان يحقق ما جال بخاطره
طويلاً ولو ضاعت ثمرة الليلة ، وقهقه ضاحكا فى غيظ وسخرية
وقال هازناً :

— ٢٨٢ —

— نعم الراى ! ، احسنت يا عزيزتى ، نتزوج ونعبرن تما
يعيش الشرفاء . فرج ابراهيم وحرمة وابناؤهما ليمتد ! ، ولكن
خبرينى ما هو المزواج ؟ . لقد انسيت كما انسيت الآداب
الشريفة جميعا ، او دمينى اذكر قليلا . . . زواج ! :
خطير فيما اذكر يتضمن رجلا وامراة وماذونا ووثيقة دينية
وطقوسا كثيرة ، . . . متى عرفت هذا كله يا فرج ! . . . فى الكتاب .
او فى المدرسة ! ! ولكن لا ادرى . اما تزال هذه العادة متبعة .
ام قد اقلع الناس عنها ! . . خبرينى يا عزيزنى الا يزال الناس
يتزوجون ؟

وارتعشت اطرافها غضبا ، وافعم قلبها ياسا وغما . وانفلرت .
اليه نادا! هو مبتسم هازىء سادر فجن جنونها ، وارتمت عليه
ناشبة الظافرها ، فى عنقه ، ولم تفجؤه . حركتها المياغطة فتلقاها
بسكينة ، وقبض على ساعديها وفرج بينهما تم تخلص منها
والابتساماة الهائلة لا تفارق شففيه ، فاشتد حنقها وغضبا .
ورفت يدها بسرعة خاطفة وصفعتها بكل ما اوتيت من قوة
وعصية ، وفاصت ابتسامته . ولاحت فى عينيه نظرة وعيد وشر ،
فردت عليها بنظرة جريئة متحدية ، وانفعلت شبوب العاصفة
بجزع وتلفه ، وكادت تنسى اسباب آلامها فى لذة العراك المزنقة ،
ومنتهنا . اجلاها الهستيرية بختام سعيد لهذا الفضال البهيمى ،
ولكنهم كانا من ناجية اخرى يقدر هواقب الاستسلام للغضب ،
ولا يغيب عنه ان دفع العدوان بالعدوان بسبق الرباط الذى
يروم نقضه ، ويزيد من تعلقها به ، فضبط نفسه ، وكبح جماح
غضبه ، وصمم على ان يكشفها بالقطعة السافرة . وذلك
بالانسحاب من المعركة دون دفاع ، فراجع خطوة ، وانقلب آفلا
وهو يقول بهدوء :

— هلمى الى العمل يا عزيزتى . . .

ولم تكذ تصدق عينيها ، وألقت على الباب الذى أغيبه نظرة
ساحمة ونق بها القنوط ، وأدركت بفريرتها سر تفهقره فاستشبهت
قلبها الحقيقة المفجعة ، وتقلقل صدرها برغبة حارة مباحة فى قتلها
انفجرت فى صدرها بقوة أسرة لا كأمينة الضعيف الحاقد ، ولكن
رغبة فتاة شعرت بأنها فى نطاق طاقتها . لقد عرفت جوانب كثيرة
من نفسها على ضوء هذا الرجل ، وهما هو يتم صنائعه فيكشف عن
أخطر هذه الجوانب خفيا ، ولكن أيرضيها خفا أن تبيع الحياة من أجل
الفتك به ؟ أنها استهانت بكل شيء فى سبيل الحياة ، أما الاستهانة
بالحياة نفسها ؟ ! ! وانقبض صدرها ، واستحوذ عليها قلق مغمم
بالنفور ، وبقيت رغبتها فى الانتقام تتلظى ويندلع لهيبها . ينتهى
أن تغادر البيت أولا ، وفى الخارج مهرب من حجيم الفكر ، ومجال
للأناة والتدبير ، وسارت متناقلة صوب الباب ، ثم ذكرت أنها
تهجر هذه الحجرة - حجرتها - لآخر مرة ، فدارت على عقبيها
كأنما لتلقى عليها نظرات الوداع . تنزى قلبها فى صدرها فى تلك
اللحظة الفاصلة . رياه . . كيف انتهى كل شيء بهذه السرعة ؟ !
هذه المرأة كم بدت على صفحتها فرحة مستبشرة ، وهذا السرير
الوثير مهد الغرام والأحلام ، وعلى هذا الديوان كانت تجلس بين
يديه تصفى إلى ارشاداته بين العناق والقبل ، وهذا الخوان يحمل
صورتهما معا فى ثياب السهرة ! ، ثم ولت الذكريات ظهرها وفرت
من الحجرة . وفى الطريق لفجها الهواء الدافئ فتسجته فى أعياء ،
واخذت فى سبيلها وهى تقول لنفسها : « لن أعدم طريقة للفتك
به ! » كم يكون هذا شافيا على شرط ألا تدفع حياتها ثمنا له ،
لم تخلق الحياة للتضحية ، الحياة فوق كل شيء ، بل فوق الحب
نفسه . حقا بات الحب ندبا عميقا فى شؤيداء قلبها ، ولكنها ليست
المرأة التى يفنيها الحب بها جرح عميق . . ولكن الجرح يعيش
حتى وهو ينزف ، بل يستطيع أن يتمتع بخياة عريضة فيها

الذهب والسرور والسطوة والعراك . هكذا لاقت خبيثتها ، ورات
عربة فأشارت الى الحوذى ، وركبت ، واستشعرت حاجة ملحة
الى مزيد من الراحة والهواء فقالت له :
- الى ميدان الأوبرا أولا . ثم عد الى شارع فؤاد الأول ،
واحدة واحدة من فضلك .

وجلست وسط المقعد مائلة بظهرها الى الوراء ، واضعة
رجلا على رجل ، فانحسر الفستان الحريري عن بطن فخذيها ،
واستخرجت من حقيبتها علبة سجائر ، واشعلت سيجارة ،
وراحت تدخن بشغف غير عابئة بالانظار التى تتخاطف ما انجليه
من لحمها ...

وغرقت فى خضم الفكر ! هيهات ان يبرا قلبها من أوجاعه ،
ومع ذلك فهيهات ان تسترخى يدها القابضة على حبل الحياة .
وتعزت بآمال كثيرة ، ومسررات مرتقبة ، ولكن لم يجز لها فى
خاطر أنها قد تستجد حبا ينسيها هذا الحب الخائب ، لأنها كانت
حاقدة على الحب ، ولأن الإنسان اذا يفقد جوهرة الحب اللامعة
لا يتصور أنه سيسعد بالعثور عليها مرة أخرى . وانتهت الى
الطريق فاذا بالعربة تدور فى محيط الأوبرا ، ولمحت فى دورانها عن
بعد ميدان الملكة فريدة ، فطار الخيال بها الى الموسيقى والسكة
الجديدة والصناديق والمدق ، ولاحت لمينيتها اخلاط اطياف :
نساء ورجالا ، وتساءلت : ترى هل يعرفها أحد من هؤلاء اذا رآها
فى هذا الزى ؟ . . . يستطيع احدهم ان يستشف حميدة وراء
تيتى ؟ . وماذا تبالى ؟ . لا اب لها ولا أم ! . . . ونفخت دخان
سجارتها فى استهانة ورمت بالعقب ، واخذت تتسلى بمشاهدة
الطريق حتى رجعت العربة الى شارع شريف ، واتجهت نحو
الحانة التى تقصدها ، وفى تلك اللحظة قرع اذنيها صوت كأنها
انشق عنه قبر هاتفا « حميدة » ، فالتفتت نحوه وقد تملكها
الذمر . فرأت عباس الحلو على بعد ذراع منها لاهثا .

وهتفت وهي لا تدري :

- عباس ! ..

كان الفتى يلهث مبهورا بعد أن ركض شوطا كبيرا وراء
العربة من ميدان الأوبرا ، وقد اندفع لا يلوى على شيء ، يصطدم
بالكتل البشرية ، لا يعتاقه ما ناله من دفع ، ولا يشبه ما لحقه من
شتم ولعن ، وكان قبل ذلك يسير متابطا ذراع حسين كرشة ،
يتخبطان على غير هدى - مقب مغادرتهما لحانة فيتا - حتى انتهى
بهما التخبط الى ميدان الأوبرا ، فالتقى بصر حسين بالعربة التي
تحمل حميدة ، ورأى الجالسة داخلها ، فلم يعرفها ، وأرغش
حاجبيه استحسانا وهو يلفت صاحبه اليها ، ونظر عباس الى
العربة المقبلة عليهما في طوافهما بالميدان ، وعلق بصره بالفتاة الغائبة
في أفكارها ولم يستطع أن يسترد عينيه ، جذبهما بقوة سحرية
شيء في الوجه ، وفي القوام ، شيء كالشبه ، أو هو شبه رقيق
يحسه القلب قبل أن تحسه العينان ، وتمشت في مفاصله رعدة
انقلب بعدها من سكره الخفيف صاحيا وهتف القلب « هي ؟ » ،
وكانت العربة قد ولته ظهرها مبتعدة نحو حديقة الأزبكية ، فلم
يأل عدوا وراءها بلا تدبر ولا تفكير ، وصاحبه يزرق وراءه معربدا
صاخبا ، وعاقته حركة المرور برهة عند مطلع شارع فؤاد الأول
ولكن عينيه لم تتحولا عن العربة ، ثم استأنف العدو جاهدا لا تكاد
تسعه قدرته الا قليلا ، حتى أدركها وهي توشك أن تدخل الحانة
فناداها . ولما أن التفت اليه وهتفت باسمه ، قطع الشك
باليقين ، وأدركت حواسه ما سبق القلب اليه ، فوقف حيا لها

لإهتنا مبهورا لا يدري كيف يصدق عينيه . وغابتها الدهسة
 والانزعاج أول وهلة واستحوذ عليها الانفعال . ثم شعرت بحرج
 موقفها وأشفقت من فضول المنسكعين ، فتماكت مشاعرها ،
 وأشارت إليه ومضت في عجلة الى عطفة سابقة للحانة - وهو
 يتبعها - ودخلت أول باب الى يسارها وكان حانوت ازهار ،
 وحينها بانعة الأزهار - التي مرفتها بحكم ترددها على المكان -
 فردت تحتها وسارت به الى نهاية الحانوت متحامية مواقع
 الإنظار ، وأدركت بانعة الزهور أنها تريد ان تختلى بصاحبها
 فمضت الى مقعدها وراء معرض الزهور ، وجلست بغير مبالاة
 كان أحدا لم يقتحم عليها حانوتها . وقفنا وجها لوجه ، يلفه
 الانفعال والحيرة ، وترعش أطرافنا ، ما الذي دعاه الى هذا
 العدو القاتل ؟ ماذا يروم من هذا اللقاء المختص ؟ لقد وجد
 نفسه في تلك اللحظة هربا من كل رأى أو عزم . ولقد كانت
 ذكريات الشر الذى هصر آماله - فى أنباء بدوه - تدل على عينيه
 خبطا . فتكاد تحجب عنه الطريق . ولكنه لم يبيت رأيا أو يستجيب
 عزما ، فركض ركضا آليا لا يتبين له غاية ، حتى اذا هتفت باسمه
 فقد البقية من وعيه وتبعها الى الحانوت كالسائر فى زومه .
 وأخذ نفيق رويدا من الأعياء والجهد والانفعال . وراح بصره يعاين
 المرأة الواقفة حياله بلباسها الجديد وزينتها الغريبة ، متملسا عبثا
 أن يجد فيها موزعا للفتاة التى أحبها . فارتد البصر قليلا ،
 وتجرع قلبه غصص الباس المرير . لم تكن بساطة قابله من
 البلاهة بحيث لا يدرك حقيقة ما يرى ، ولقد أجبرته الشائعات
 فى المدق على تصديق أمر مظليع ، ولكن النسائيات بلا ريب كانت
 بدون الحقيقة المائلة امينيه ، وامتلا قلبه المتهور شمعورا بتفاهة
 الحياة وعينها . بيد ان غضبه الذى أصلاه نارا حامية فى ليله
 ونهاره ، لم ينفجر . فكان أبعد ما يكون عن البطش بها أو حتى

البسق عليها . وجعلت حميدة تنظر اليه في ارتباك وحيرة ، واستشعر قلبها خوفا حيا ل هذا الاثر من الماضي للذي تتحاماها ، ولكنه لم يحرك بها عطفًا أو ندما ، بل استنار ازدياءها ومقتها فلعلت في سرها شؤم الحظ الذي رمى به في طريقها ، واشتد الصمت على أعصابها ، ولم يعد في الوسع احتماله ، فقال الحلو بصوت مبجوح متهدج :

— حميدة !. اهلا أنت ؟ . رباة كيف اصدق عيني ؟ . . كيف هجرت بيتك وامك وانقلبت الى هذه الحال ؟ !

واجابته في ارتباك غير خاف :
— لا تسالني عن شيء ، فليس عندي ما اقوله . وهذا قضاء الله الذي لا يرد .

وأحدث ارتباكها وقولها المستكين عكس المنتظر . فاستغفرا غضبه واثارا حنقه ، فعلا صوته مزجرا حتى ملأ الخانوت :
— كاذبة فاجرة . . . أفواك فاجر مثلك ففرت معه . وتركت وراءك في حيك أسوا الذكرى ، وها هو العجر السافر يطالعي في وجهك وتبرجك الفاضح . .

واستغفر هذا الغضب المفاجيء شرستها الطبيعية ففضبت فضبة عنيفة مسحت عن صدرها ما اعتوره من ارتباك وخوف ، وضاهفها ما احتملته في يومها من حنق وخيبة ، فاربد وجهها وصرخت في جنون :

. . . صه . . . لا تزعم كالمجانين ، أحسبت انك تخوفني بصراخك ؟! ماذا تريد مني يا هذا ؟ . لا حق لك على فاقرب من وجهي . .

وخبا غضبه قبل أن تتم كلامها ! وقهر غضبها غضبه فاماته في صدره وكأنه كان يشعل الماء وتطفئه النار ، وحملى في وجهها ذاهلا وغمغم بصوت مرتعش النبرات :

- كيف سولت لك نفسك ان تقولى هذا القول ؟ .. الست
... الم تكونى خطيبتى ؟

وتشفت بهزيمته ، وارتاحت الى غضبتها التى اسعفتها فى
الوقت المناسب وقالت بتلمل :
- اى فائدة تجنى من ذكر الماضى الآن ؟! لقد مضى وانقضى .

فقال متحيرا متوجعا :

- اجل مضى وانقضى . ولكنى فى حيرة من امرى وامرك ، الم
تقبلى يدى ؟ .. الم اهاجر الى ذاك البلد البعيد من اجل سعادتنا
معا ؟!

لم تعد تشعر نحوه بارتباك او حرج ، وتساءلت فى جزع :
متى يمسك عن هذا ؟ متى يفهم ؟ متى يرحل ؟ ثم قالت بلهجة
لا تخلو من برم :

- اردت شيئا وازادت الاقدار سواه ..

ولم يغب عنه تملطها ، ولكنه بات اشد تشبها بالكلام
والاستفسار ، واستمد من سكوت غضبها شجاعة فراح يقول
بيأس :

- ماذا صنعت بنفسك ؟ كيف انقلبت الى هذا المصير
الأسود ؟ .. اى شؤم أعمى بصيرتك ؟ .. ومن يكون (وهنا
استغلف صوته) ذلك المجرم الذى خطفك من حياتك الطاهرة
وطرحك فى مزبلة الدعارة ؟ ..

واكفهر وجهها ، وتناهى بها الجزع ، وقالت بلهجة تشى
باللل :

- هذه حياتى ، هذه النهاية التى لا مهرب منها ، نحن الان
غريبان وكلانا ينكر صاحبه ، لم يعد بوسعى الرجوع ، ولن
تستطيع مهما قلت ان تفر من الواقع شيئا ، وحدار ان تغلف
لى القول فلست على حال املك معها السماح او العفو ، وانى

الأقر بمجزى حبال حظى ومصري ، ولكنى لا أحتمل أن يضاعف
لى انسان الكرب بالفضب والزجر . انسنى ، واحتقرنى كما
تشاء . واتركنى بسلام ..

ما هذه بفتاته ، اين منها حميدة التى احبها وأحبته ؟
يا عجباً : ألم تحبه حقاً ؟ ألم تلصق شفيتها بشفتيه على بسطة
السلم ؟ ألم تدع له يوم الوداع وتعهده باستشفاع الحسين لاجابة
الدعاء ؟ .. فمن تكون هذه الفتاة ؟! الا تستشعر ندماً ؟ ألم
تلنها اثاراً من حنان قديم ؟ وأوشك أن يفضب مرة أخرى لولا
اشفاقه من غضبها ، فتنهد تنهد المغيظ المقهور وقال :

- انك تحيريننى ، وكلما أصغيت لك تضاعفت حيرتى ،
لقد عدت بالأمس من التل الكبير فدهمنى الخبر الأسود على
غرة : اتعلمين ماذا دعانى لهذه العودة ؟! .. (وأبرز علبة القلادة
واراها اياها) .. عدت بهذه هدية لك ، وكان فى نيتى أن أعقد
عليك قبل ان ارجع الى البلد ..

والقت على العلبة نظرة صامتة ، وفى أثناء ذلك وقعت عيناه
على الهلال الماسى والقرط اللؤلؤى فتراجعت يده بالعلبة الى
جيبه ، وتناهى به الضيق فسألها بحدة :
- الا تأسفين على هذه النهاية ؟!

ولمعت عيناه بخاطر غامض بث فى نفسها يقظة محمومة ،
فقالت بلهجة حزن مصطنعة :
- أنت لا تدري كم أنا شقية .

فاتسعت عيناه فى دهشة وريبة ، وقال بآلم بالغ :
- يا للشقاء يا حميدة !.. لماذا أصحخت لنداء الشيطان ؟..
كيف هانت عليك حياتك الشريفة ؟.. كيف نبذت الحياة الطيبة
والأمل المرتقب من أجل (وهنا تحشرج صوته) .. مجرم آثم
وشيطان رجيم ؟!.. هذه جريمة لا تغتفر ..

زقاق المدق

وكانت حمى ذلك الخاطر لا تزال تلتهم افكارها . فقالت
بلهجتها الاسيفة الجديدة :
- انى اؤدى ثمنها من لحمى ودمى ..

وازدادت دهشته ، وخالطها ارتياح غامض سرورا بالشقاء
المزعوم الذى اعترفت به ، ولكنها لم تنكسر عن حداثتها اعتباطا ،
كانت افكارها تتوارد بسرعة جنونية فى الهام شيطانى ، خطر لاه
ان تعرضه على الرجل الذى هرس قلبها بقسوة وسخرية ،
واملت ان تجعله اداة انتقامها وهى بمنأى من عوادم الشقاء ،
ورقت نظرة عينها وهى تقول بصوت ضعيف :

- لست الا شقية يا عباس . لا تؤاخذنى على سوء قولى ،
فقد افقدنى الشقاء وعيى . انكم جميعا تروننى عاهرة فاجرة ،
والحق انى شقية بائسة ، خدعنى الشيطان الرجيم كما دعوته
بحق ، لا ادرى كيف اذعنت اليه ، ومع ذلك فلست انتحل لنفسى
عدرا ، ولا اطمع ان اسالك العفو ، فانى اعلم انى مذنبه ، وها انة
ذى ادفع ثمن جريرتى النكراء . اعف عن غضبى الذى اهاجته
كلما لك العادلة ، وابغضنى واحتقرنى ما شاءت لك نفسك
الطاهرة الكريمة ، واشمت بى فلست فى حاضرى الا العوبة
رخيصة فى يد من لا يرحم ، يطلقنى فى الطرق ويستغل شقائى
بعد ان استلبنى اعز ما املك ، انى امقته ، امقته بكل ما فى من
شقاء ومهانة هما من غرسه ، ولكن هيهات ان اجد لى منه مهربا .

اذله حديثها الشاكى من نفسه ، وراعتة نظرة الشقاء تغشى
عينها ، فنسى المرأة المتنمرة التى كادت تفك به منذ برهة
قصيرة ، واهابت به رجولته ان يغضب ، فرمجر صائحا :

- يا للشقاء يا حميدة ، انك شقية ، وانى شقى ، كلانا شقى
بفعل هذا المجرم . اجل ، لا اسطيع ان انسى انك اخطأت خطأ
اثيما ، وان هذا الخطأ يحول بيننا الى الأبد ، ولكن بينا يشقى

- ٢٩١ -

كلانا بهذا الخطأ ، اذا بالمجرم الاول مطمئن سعيد كأنما يسعد بشقائنا ، فلا كانت حياة اذا أنا لم أحطم رأسه !.

وشعرت بالارتياح فنكست بصرها أن يفضحها ، وكانت سرعة انزلاقه الى شباكها فوق مطعمها ، وارتاحت بصفة خاصة الى قوله : « هذا الخطأ يحول بيننا الى الأبد » فامن قلبها ان يجرحه الانفعال الى حد العفو عنها ، والسعى لاستردادها ، وما كانت تحلم بهذا كله . أما الحلو فاستدرك يقول عابسا راغبا :

— لا يرتاح لى بال قبل أن أحطم رأسه واهشم عظمه ! .
أجل . لا أستطيع ان أنسى أنك فررت معه ، ولا انهم راوك تسيرين في صحبته ، فلا امل ان نجتمع مرة اخرى ، لقد فقدت حميدة التى احببتها الى الأبد . لكن يجب أن يشقى المجرم بما أشقى .
كلينا . خبرينى اين اجده ؟ .

فقالت وعقلها في تفكيره أسرع من لسانها في نطقه :

— لا سبيل لك عليه اليوم ، ولكن تعال يوم الأحد ظهرا اذا شئت فتجده في الحانة عند اول هذه العطفة ، ولن تجد مصريا سواه فيها ، فاذا التبس عليك الأمر أشرت اليه بعينى . . ولكن ماذا تنوى أن تفعل به ؟

نطقت بالعبارة الأخيرة بلهجة تنم عن الاشفاق عليه من العواقب ، ولكنه اجاب في جنون الغضب والياس قائلا :
— سأحطم رأس القواد الوضيع . .

وتساءلت وعيناها تنفرسان في وجهه : إىستطيع الحلو أن يقتل ؟ . .

ولم يغب الجواب عن فراستها ، ولكنها أملت أن يشير من حوله فضيحة تسوقه الى يد القانون ، فتنقم منه وتخلص من أسره ، وارتاحت الى أفكارها بلا تدبر أو نقد ، بيد أنها لم تخل من رغبة صادقة في الا يصيب الحلو شر فادح من مخاطرته : وتمنت على الله

ان ينتقم لها من غريمها دون ان يذهب ضحية لفعله ! . ولذلك
قالت تحذره :

- لا تبغض بك الرغبة في الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك ؟
اضربه . افصحه . جره الى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى
جرائمه ..

ولكنه لم يكن يصغى اليها ، وكان يقول وكأنه يخاطب نفسه:
- لا يصح ان نشقى بلا ثمن . انتهت حميدة ، وانتهى
عباس ، فكيف يروح القواد آمننا ضاحكا من تعاستنا ؟ لادقن
عنقه ، ولاكتمن أنفاسه . (ثم علا صوته موجها اليها الخطاب) :
وانت يا حميدة ماذا تصنعين بحياتك اذا نحييت عن سبيلك هذا
الشیطان ؟

وخافت على نفسها ما عسى ان يؤدي اليه هذا السؤال ،
واشفقت من ان يتطرق الى مسارب ضعفه القديم . فقالت بحزم
وهدوء :

- انقطع ما بينى وبين العالم القديم ، ولكنى سابع ما عندى
من حلى وأجد لنفسى عملا شريفا في مكان بعيد ..

وصمت صمتا طويلا متفكرا محزونا . فعانت في سمته من
القلق الوانا ، حتى طامن من رأسه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :
. - لا يستطيع قلبى ان يعفو .. لا يستطيع . لا يستطيع ..
واكن لا تعجل بالاختفاء مرة اخرى حتى نرى كيف ينتهى هذا
الامر ..

ووجدت في لهجه ما ينذر بالسماحة والعفو والاستسلام ،
فلمعت عينها في حذر وقلق . وآثرت في أعماق قلبها التأثير ان
يهلك هو وغريمها على ان يعود اليها فانحا ذراعيه ؛ بيد انها
لا تستطيع ان تفصح له عما يدور بخلدتها ، ولن يشق عليها
الاختفاء اذا شاءته ، واذا تم لها الانتقام الذى تتلف عليه ،

- ٢٩٣ -

فما أيسر أن تشد الرحال الى الاسكندرية التى حدثها عنها فرج
ابراهيم كثيرا ، وهناك تصفو لها الحياة وتطيب فى حرية لا يحدها
قيد ؛ وفى امن من المتطفلين ، ولذلك لم تجد أبسا فى أن تقول له
بمثل لهجته الرقيقة :

— لك ما تشاء يا عباس ..

وكان قلبه يعانى مرارة الشقاء والقنوط والتحفز للانتقام ؛
ولكنه ما انفك ينبض بالحيرة والعطف ..

- ٣٣ -

كان يوم وداع وسرور ، فدبت فى قلوب الرفاق عاطفة واحدة :
ذلك أن للسيد رضوان الحسينى منزلة رفيعة فى القلوب جميعا
على السواء . كان السيد قد استخار الله فى أداء فريضة الحج هذا
العام فأخاره ، وعلم الجميع أنه يسافر عصر اليوم بمشبة الرحمن
الى السويس فى طريقه الى الاراضى المقدسة ، وامتلا بيته بالمودعين
من أصدقاء العمر وأخوان الصفاء ، وحفوا به فى الحجرة القديمة
الوديعه التى طالما أصغت جدرانها الى سمرهم الورع اللطيف عاما
بعد عام ، واستفاض حديث الحج ، وثار ذكرياته ، ولهجت بها
الأسن فى أركان الغرفة حول خط متموج من دخان البخور
يتصاعد من المجرمة ، ورووا نتفا من أخبار الحج شملت المعاصرين
والغابرين ، واستشهدوا بالكثير المأثور من الاحاديث الشريفة
والاشعار الجميلة ، ورتل ذو صوت رخيم بعض ما تيسر من آى
الذكر الحكيم ، ثم أنصتوا جميعا الى فيض من كلام السيد رضوان
افصح به فؤاده عما يكنه من رقة وطيبة ..
وكان أحد الأصفياء قد قال له :

— سفر سعيد وعود حميد ..

فاشرقت في وجه السيد ابتسامة وضاءة كسته جمالا على جمال ، وقال بصوته الحنان :

— اخي لا تذكرني بالعود . ان من يقصد بيت الله وفي قلبه خاطر من خواطر الحنين الى الوطن حقيق بأن يبطل الله ثوابه ويخيب دعاءه ويتلفد سعادته . ساذكر العودة حقا اذا فصلت عن مهبط الوحى في طريقى الى مصر ، واعنى بها العودة الى الحج مرة ثانية اذا اذن الرحمن واعان . من لى بن يقرنى ما تبقى من العمر فى البقاع الطاهرة ، أمسى واصبح فلا أرى الا أرضا تطامنت يوما للمس اقدام الرسول ، وهواء خفقت بتضاعيفه اجنحة الملائكة ، ومغانى أصغت للوحى الكريم يهبط من السماء الى الأرض فيرتفع بأهل الأرض الى السماء ، هنالك لا تطوف بالخيال الا ذكريات الخلود ، ولا يخفق الفؤاد الا بحب الله ، هنالك الدواء والشفاء ، اخي .. اموت شوقا الى استطلاع افق مكة . واستجلاء سبائكها ، والانصات الى همس الزمان بأركانها ، والسير فى مناكبها ، والانزواء فى معابدها ، وارواء الغلة من زمزمها ، واستقبال الطريق الذى مهدته الرسول بهجرته فتبعته الأقوام من ثلثمائة والف عام ولا يزالون ، وثلوج الفؤاد بزيارة القبر النبوى والصلاة فى الروضة الشريفة ، وأن بقلبي من مكنون الهيام ما يقصر الزمان عن بثه ، ولدى من فرص الزلفى والسعادة ما يعجز العقل عن تصويره .. ارانى يا اخوان ضاربا فى شعاب مكة تاليا الآيات كما أنزلت أول مرة ، كأنما اسمع درسا للذات العلية ، اى سرورا . وارانى ساجدا فى الروضة متخيلا الوجه الحبيب كما نترأى فى المنام ، فإى سعادة ! .. وارانى متخشعا لقاء المقام مستغفرا فإى طمانينة ! . وارانى واردا زمزم ابل جوارح الشوق بندى الشفاعة فإى سلام ! . اخي لا تذكرنى بالعودة وادع الله معى أن يحقق لى المنى ..

فقال له صاحبه :

— حقق الله منك ومتعك بطول العمر والعافية .

فضم السيد راحته المبسوطة على لحينه وقد تالقت عيناه
بسرور وهيام وراح يقول :

— نعم الدعاء ، والحق ان حبي الآخرة لا يدفعنى الى الزهد
فى الدنيا او التعلم من الحياة ، لاطالما لمستم بانفسكم حبى الحياة
والسرور بها ، كيف لا وهى من خلق الرحمن ؟ خلقها الله وملاها
بالعبر والأفراح ، فمن شاء فليتفكر ومن شاء فليشكر ، ولذلك
أحبها ، أحب ألوانها وأصواتها ، وليلها ونهارها ، ومسراتها
وآلامها ، وأقبالها وادبارها ، وما يدب على ظهرها من حى أو يقيم
عليه من جماد ، هى خير خالص ، وما الشر الا عجز مرضى عن
ادراك الخير فى بعض جوانبه الخافية ، فيظن العاجز المريض بدنيا
الله الظنون . لذلك أقول لكم ان حب الحياة نصف العبادة ، وحب
الآخرة نصفها الآخر ، ولذلك يهولنى ما تنوء به الدنيا من دموع
وأنات وسخط وغضب وغل وسخيمة ، وما تبتلى به فوق هذا
كله من ذم المرضى العاجزين . اكانوا يؤثرون لو لم تخلق حياتنا ؟
اكانوا يحبون لو لم نخرج من العدم ؟ اتسول لهم نفوسهم الاعتراض
على الحكمة الالهية ؟ وما أبرئ نفسى ، فلقد ملكنى الحزن مرة على
اقتطاع فلذة من كبدى ، وتساءلت فى غمرة الحزن والألم : لماذا لم
يبق الله على طفلى حتى يتمتع بحظه من الحياة والسعادة ، ثم شاء
الله ان يهدبنى ، فقلت لنفسى : أليس هو — عز وجل — الذى
خلقه ، فلماذا لا يسترده وقتما يشاء ! ولو أراد الله له الحياة
للبث فى هذه الدنيا حتى يشاء الله ، ولكنه استرده لحكمة اقتضتها
مشيئته ، فهو لا يفعل شيئا الا الحكمة ، والحكمة خبر ، فقد أراد
ذبى به وبى خيرا ، وسرعان ما غلبنى السرور بادراك حكمته على
حزنى ، ولسان قلبى يقول : ربى ، لقد وضعتنى موضع البلاء

انتخبترنى وها انا اجوز امتحانك ثابت الايمان ، ملهما حكمتك :
 « فاللهم شكرا » وصار ديدنى اذا اصابتنى مصيبة ان ألهج من
 اعماق قلبى بالشكر والرضا . كيف لا والله يخصنى بالامتحان
 والعناية ، وكلما عبرت محنة الى بر السلام والايمان ازددت ادراكا
 لما فى مقاديره من حكمة ، وما فيها بالتالى من خير ، وما تستحق
 بعد ذلك من شكر وسرور ، وهكذا وصلت المصائب ما بينى وبين
 حكمته على دوام لا ينقطع . حتى خلتنى طفلا مدلا فى ملكوته
 يقسو على لأزدرج ، ويخوفنى بعبوس مصطنع ليضاعف سرورى
 بالانس الحقيقى الدائم ، وأن الحبيب ليسبر محبوبه بالصد حيناً ،
 وأن عرف المحبوب أن الصد مكر محب ، لا هجر قال ، تضاعف
 حبه وسروره ، فما عدوت أو قر فى اعتقادى أن المصابين فى هذه
 الدنيا هم أحباب الله وأولياؤه ، خصهم بحب مقنع ، ورصدهم
 غير بعيد ، ليرى ان كانوا حقاً أهلاً لحبه ورحمته .. فالحمد لله
 كثيراً ، بفضل عريت من حسبوا اننى أهل العزاء ..

ومسح على صدره الواسع ببشر وانشراح وهو يجد من
 الحاح التعبير عن مكنون صدره ما يجده المغنى اذا سكر به تلاوة
 الطرب ، وتاه فى سلطنة الفن ، فاستدرك يقول بحرارة ووجد :

— بذهب اناس الى أن هذه المصائب وامثالها مما يبتلى به
 الأبرياء عنوان عدالة انتقامية لا يفتن لحكمتها عامة الناس وتراهم
 يقولون انه لو تفكر الأب الثاكل مثلاً لوجد أن ثكله جزاء ذنب
 اقترفه هو أو أحد آبائه الأولين . ولكن لعمري أن الله عادل وأرحم
 من ان يأخذ البرى بالمذنب ، وتراهم يستشهدون على سواب
 رأيهم بما وصف الله به نفسه من انه عزيز ذو انتقام ، ولكنى أقول
 يا سادة : ان الله تعالى غنى عن الانتقام ، وانه انما اضاف هذه
 الصفة لذاته لينبه الانسان الى احذائها . وقد سقت ارادته بالا
 تستقيم أمور هذه الدنيا الا بالثواب والعقاب ، أما ذاته العزيزة

الجليلة فسنتها الحكمة الربانية والرحمة الالهية ؛ ولو أننى اكتشفت تحت مصائبى عقابا أستحقه ، أو وجدت وراء جثث ابنائى جزاء استأهله ، لاعتبرت حقا ، ولازدجرت حقا ، ولكن كان ببقى فى النفس ضنى ، وفى العين دموع ، ربما هتف قابى المحترق : ضعيف اذنب وبرىء هلك ، فكيف العفو والرحمة ؟! واين هذا من مصيبة تستشف الحكمة والخير والسرور ..!

وانار رايه اعتراضات كثيرة ، فتمسك البعض بالنص ، وأول البعض التفسير ، ورد آخرون الانتقام الى الرحمة . وكان كثيرون اقوى منه عارضة وأوسع علما ، ولكنه لم يكن متهيئا للجدل ، كان متفتحاً فحسب للتعبير عما يضطرم فى فؤاده من الحب والسرور ، فجعل يتسم ببراءة الطفل ، متورد الوجه ، متلقى العينين ، وراح يقول بصوت رققه الهيام فكان أندى من مناجاة العاشقين :

- معذرة يا سادة ، فانى أحب الحياة ، بل أحب نفسى ، لا كذات تتعلق بى ، ولكن كفلة من قلب البشرية ، ونبض من الحياة ، وخلق للصانع الاجل ، وتجربة للحكمة الالهية ، وأحب الناس جميعا حتى المجرمين الشائهم . اليسوا يرمزون الى عناء الحياة الممض فى سبيل الكمال ؟ . اليسوا ظلمة تلقى عتمتها على بهاء الخير ضياء ؟ ذرونى أبج لكم بسر دفين ، أو تعلمون ما الذى بعثنى الى الحج هذا العام ؟

وصمت السيد هنيهة وعيناه الصافيتان تسطعان بنور بهيج ، ثم قال يجيب نظرات الاستطلاع التى عكستها الأعين :
- لا أنكر ان الحج أمنية طالما نازعنى الفؤاد اليها ، ولكن قضت ارادة الله أن أوجلها عاما بعد عام ، حتى حسبتنى قد بت اوثر الشوق الى الحبيب على الحبيب نفسه ، ولاشواق العبادات للذة كقضائها ؛ ثم كان من أمر زقاقنا ما تعلمون ، فشد الشيطان

على اعين رجلين وفتاة من جيراننا ، أما الرجلان فقداهما الى قبر
 ينبشانه وغادرهما في السجن ؛ واما الفتاة فاستدرجها الى هاربة
 الشهوات وغاص بها في حماة الرذيلة . هناك زلزل قلبي زلزلا
 شديدا تصدعت له اضلعي . ولا اكتمكم يا سادة ان شعورا
 بالذنب داخلني ، لان احد الرجلين كان يقتات على الفئات ، وقد
 نبش القبر لعله يجد بين عظامه النخرة لقمة يستسيغها ، كالكلب
 الضال يلتقط رزقه من اكوام الزبالة ، فلشد ما ذكرني جوعه
 بجسمي المكتنز ووجهي المتورد ، حتى استحوذ على الخجل .
 وغلبني استعبار ، وقلت لنفسي معنفا متقززا ماذا فعلت - وقد
 اتاني الله خيرا كثيرا - لدفع البلاء او التخفيف من وقعه ، لم
 اترك الشيطان يعبث باهل جيرتي وانا ذاهل عنه بسروري
 وطمانيتي ؟ الا يكون الانسان الطيب بتقامده عونا للشیطان من
 حيث لا يدري ؟ . واستصرخني الضمير المعبأ ان البى النداء
 القديم ، واشد الرجال الى ارض التوبة مستغفرا ، حتى اذا شاء
 الله ان اعود ، عدت بقلب طاهر ، وجعلت من قلبي ولساني
 ويدي اموانا للخير في مملكة الله الواسعة . .
 ودعا له الاخوان بصدق وحرارة ، وواصلوا الحديث في
 سرور وحبور .



وابى السيد رضوان بعد ان ودع بيته الا أن يزور قهوة كرشة
 مودعا . فاقتعد مجاسه محوطا بالمعلم « كرشة » وعم كامل
 والشيخ درويش وعباس الخلو وحسنين كرشة ، وجاءت المعلمة
 حسنية القرانة فقبلت يده وحملته السلام امانة ، وقد قال لهم
 السيد :

— الحج فريضة على من استطاع اليه سبيلا ، يؤديها عن
 نفسه وعن تعقد بهم الاعذار من الصادقين .

— ٢٩٨ —

فقال له عم كامل بصوت الأطفال :
— صحبتك السلامة في الحل والترحال ، وعسى ألا تنسى أن
ننجيئنا بسبحة من المدينة المنورة ..
فابتسم السيد وقال :
— لن اكون كمن وهبك كفنا ثم ضحك عليك .

وضحك عم كامل وكاد يعود الى هذا الموضوع القديم لولا أن
رأى وجه عباس الخلو الواجم فأمسك ، وقد أثار السيد هذه
الذكرى متمعدا ليدخل منها الى نفس الشاب التمس مدخلا
لطيفا ، والتفت اليه بحنان وقال :

— يا عباس : أصغ الى كما ينبغي لشاب شهد له جميع أهل
الزقاق بالعقل واللفظ ؛ عد الى التل الكبير في أول فرصة ، بل
اليوم أن سمعت وأطعت . وأعمل بما أوتيت من همة ، واقتصد
من النقود ما تشق به حياة جديدة ان شاء الله . وإياك وأن تلقى
برأسك في خضم الفكر ، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب ،
ولا تحسبن ما اعترضك من سوء الحظ هو ختام ما قدر لك في
الحياة . أنك بعد شاب في نهاية الحلقة الثانية من عمرك ، وما تلقاه
من ألم ليس الا بعض ما يصيب الانسان في حياته ، وكأنه ما ينتاب
الطفل من أوجاع التسنين والحصبة ولفهما ، فإذا صمدت له
بشجاعة جزئه رجلا خليقا بالرجولة ، وذكرته فيما يقبل من
حلقات العمر ببسمة الظافر وناسي المؤمن . انهض مستوصيا
بالصبر متعوذا بالايمان ؛ واسع الى رزقي ولتهنا بسرور المؤمن
إذا أدرك أن الله قد أختاره لمصاف المصابين من أوليائه .

ولم يحر عباس جوابا ، ولكنه لما رأى عيني السيد لا تتحولان
عنه ، ابتسم فيما يشبه الاقتناع والرخضا ، وغمغم بلا وعى تقريبا :
— سيمضي كل شيء كأن لم يكن .
فابتسم السيد ، والتفت نحو حسين كرشة وهو يقول :

— ٣٠٠ —

— أهلا بشاطر زقاقنا ! ، سادعو الله لك الهداية في ارض
مستجابة الدعاء ، ولاجدنك ان شاء الله حين مودتى. محتلا مكان
ايك كما يريد لك ، ونعم ما اراد ، وطوبى للمعلم الصغير الجديد .
وهنا خرج الشيخ درويش عن صمته وقال مطرقا :
— يا سيدى رضوان ، اذكرنى اذا احمرت ، وذكر اهل
البيت بان محبهم تلف وشغفه الغرام ، وانه اضاع ما يملك من مال
وعتاد على حب لا تنفع له غلة ، واشك اليهم خاصة ما يلقى من
ست الستات ..



وغادر السيد رضوان الفوة يحف به العصاب . وفد لحق به
من البيت قريبان اعتزما السفر معه حتى السويس ، ومال السيد
الى الوكالة فوجد السيد سليم علوان مكبا على بعض دفاتره .
فابتسم قائلا :

— تأذن الرحيل فدعنى اعانقك .

ورفع الرجل وجهه الدابل فى دهشة ، وكان قد علم بميعاد
الرحيل دون أن يحرك ساكنا ، ولكن السيد رضوان لم يلق بالآ
الى اهماله ، وكان يعلم من سوء حاله ما يعلم الجميع ، فابى أن
يفادر الحى قبل أن يودعه . وكانما شعر الآخر بخطيئة فى هذه
اللحظة فاعتراه ارتباك ، الا أن السيد احتواه بين ذراعيه وقبله
ودعا له طويلا ، ولبت عنده مليا ، ثم قال وهو ينهض قائما :

— لنذرع الله أن نحج معا فى عامنا القادم .

فغمض السيد وهو لا يعنى ما يقول :

— ان شاء الله .

وتعانقا مرة أخرى ، ورجع السيد الى اصحابه ، ومضوا
جميعا الى مطلع الزقاق حيث كانت تنتظره عربة شميلة بالحقائب .
فصافح الرجل مودعيه بحرارة وركب هو وقريباه ، وانحدرت
العربة صوب الغورية تتعلق بها الاعين ، ثم مالت الى الازهر .

- ٣٠١ -

- ٣٤ -

قال عم كامل لعباس الخلو :

- ليس وراء نصيح السيد رضوان مذهب لناصح ، فاجمع شتات نفسك وتوكل على الله وسافر ، وسوف أنتظرك طال الزمان أو قصر . وستعود باذن الله ظافرا وتكون على رأس حلاقى هذا الحلى جميعا .

وكان الخلو يجلس على كرسى امام دكان البسيبوسة غير بعيد من عم كامل ينصت الى صاحبه دون أن ينبس بكلمة ، ولم يكن باح لاحد بسره الجديد ، وقد هم حين نصحه السيد رضوان الحسينى بالافصاح عما يثقل كاهله ، ولكنه تردد لحظة فوجه السيد خطابه الى حسين كرشة ، وسرعان ما عدل عما قام بنفسه ؛ ولم تضع نصيحة السيد رضوان هباء فتفكر فيها مليا ، بيد ان يوم الأحد استحوذ على الشطر الأكبر من أفكاره ، وكان مضى على اللقاء الغريب في حانوت الورد ليلة ونهار ، فقلب وجوه الفكر في هدوء واناة وعرف في النهاية انه لا يزال يحب الفتاة ، وان كانت اسبابها قد انقطعت الى الابد ، وأن رغبته في الانتقام من غريمه لا تقاوم . وقد أنصت الى كلام عم كامل صامتا ، ثم تنهد من الاعماق ، تنهد انسان تعس كبيلته الأقدار بأغلال الشقاء ، ووضعته على شفا جرف هار من الدمار ، وسأله عم كامل بقلق :
- خبرنى عما اعتزمت ؟

فنهض الشاب قائما وهو يقول :

- سامكث هنا بضعة ايام آخر ، على الأقل حتى يوم الاحد ، ثم اتوكل على الله .

— ٣٠٢ —

فقال عم كامل في اشفاق :

— ليس السلوان بالمطلب العسير اذا نسلتته صادقا ..

فقال الشاب وهو يغادر موضعه :

— صدقت ! .. السلام عليكم ..

ومضى وفي نيته أن يقصد حانة فيتا ، حيث يظن أن حسين كرشة قد سبقه اليها عقب توديع السيد رضوان مباشرة ، وظل فكره فريسة للأفكار القلقة ، وقلبه ذميا للعواطف المضطربة . أنه ينتظر يوم الأحد ، وما يوم الأحد ببعيد ، ولكن ما عسى أن يصنع اذا حان الحين ؟ ! . ايمضى الى الموعد حاملا خنجرا ليغمده في قلب غريمه ؟ . لعل هذا ما يتحرقد اليه بكل ما يمتلىء به قلبه من غضب وحقد وشقاء ، ولكن : هل يسهه ارتكاب الجريمة ؟ هل تطيق يده تسديد الضربة القاتلة ؟ . وهز رأسه في شك وكمد وحقد . أنه أبعد ما يكون عن العنف والإجرام ، وهذا ماضيه . يشهد له بالوداعة والمسألة ، فما عسى أن يصنع اذا جاء يوم الأحد ؟ وتضاعفت رغبته في لقاء حسين كرشة ليقص عليه قصة حميدة ويسأله المشورة والعون ! ، بل العون قبل سواه ، لأنه يبدو عاجزا بغير هذا العون . وفي هذه الحال من الاقرار بالعجز عاودته نصيحة السيد رضوان الحسيني « ... عد الى التل الكبير في أول فرصة ، بل اليوم أن سمعت وأطعت ، .. اياك وأن تلقى برأسك في خضم الفكر ، أو أن تهن عزيمتك لقاء اليأس والغضب ... » ، استحضر كلام السيد الذي أوشك أن ينساه . اجل ، لماذا لا يطوى الماضي بأحزانه وينطلق في شجاعة وصبر في طريق السلوان والعمل ؟ لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به ؟ لماذا يعرض حياته لأهوال أخفها السجن ؟ وارتاح الى أفكاره الجديدة ولكن دون أن يقطع برأى حاسم ، ولم تزل نفسه تنازعه . الى الانتقام ، ولعل الانتقام لم يكن وحده الذي يستبید بشعوره ،

ولعله خاف العدول عنه لأن في هذا العدول قطعاً حاسماً لهذا الخيط الواهى الذى وصله بحميدة أمس ، وقد أبى أن يصدق أنه يستطيع العفو عما سلف ، وقال وكرر القول — بداع وبلا داع — أن أسبابهما قد انقطعت إلى الأبد ، ولكن هذا الالتجاء فى القول نفسه أخفى رغبة — لعله لم يدرها — فى استردادها ووصل ما انقطع من وشائجهما ! فكان نزوعه إلى الانتقام ظلاً لتعلقه بالمرأة التى يحبها ولا يطيق هجرها ، وبهذا القلب الحائر قطع الطريق ودخل حانة فيتا ، وكان حسين كرشة بمجلسه يكرع من النبيل الأحمر ولما تلعب الخمر برأسه ، فمضى إليه وحياء تحية مقتضبة ، وقال برجاء حار :

— حسبك ما شربت فانى أريدك لأمر هام .. هلم معى .

ورفع حسين حاجبيه منكراً ، وكأنما كبر عليه أن يعكر القادام صفوه ، ولكن عباس — وقد أذهله الهم عن وعيه — أمسك بذرعه وشده حتى أقامه وهو يقول :

— انى فى مسيس الحاجة إليك .

فنفخ الشاب مستاء ، ودفع ما عليه ، وغادر الحانة برفقة صاحبه ، وقد أصر عباس على انتزاعه من الحانة أن يغلبه السكر فلا ينتفع بمشورته .

ولما صارا فى الموسيقى ، قال وكأنما يزيح كابوساً عن صدره :

— وجدت حميدة يا حسين ..

فلاح الاهتمام فى العينين الصغيرتين وسأله :

— أين ؟

— ألا تذكر امرأة العربية التى عدوت وراءها أمس وسألتنى عنها اليوم دون أن تظفر منى بجواب شاف ؟ هى حميدة دون غيرها ..

فصاح الشاب بدهشة وسخرية :

— ٣٠٤ —

— اسكران أنت لا ، ماذا قلت !

فقال عباس بلهجة جديدة شديدة التائر :

— صدقني فيما قلت ، هذه المرأة هي حميدة بلحمنا ودمها ،
وقد عرفتها من أول نظرة فركضت وراء عربتها كما رأيت ، حتى
أدركتها وحادثتها .

فتساءل حسين في دهشة وانكار :

— كيف تريدني على أن اكذب عيني !

فتنهذ الخلو باسي ، وراح يروي له ما دار بينهما من حديث
دون أن يخفى عنه شيئا ، والآخر ينفى إليه باهتمام شديد ،
حتى ختم حديثه قائلا :

— هذا ما أردت أن اطلعك عليه ، وقد تردت حميدة في
الهاوية ولا نجاة لها ، ولكنني لن أترك المجرم الأنيم بغير عقاب .

وحدجه حسين بنظرة طويلة احتار في تفسيرها ، وكان الغنى
بطبعه ، مستهترا قليل الاكتراث ، فافاق من دهشته بأسرع مما
قدر صاحبه ، ثم قال بازدراء :

— حميدة هي المجرمة الأصلية ، ألم تفر معي . . . ألم تستسلم
له . . . أما هو فماذا تؤاخذ به . . . فتاة أعجبتة ففواها . . . ووجدتها
سهلة فنال منها وطره ، وأراد أن يستغلها فسرّحها في الحانات ،
هذا لعمرى رجل حاذق ، وبودي لو أفعل مثله حتى تنجاب عني
هذه الازمة التي اكابدها . حميدة هي المجرمة يا صاح .

وكان عباس يحسن فهم صاحبه ، فلم يداخله شك في انه
لا يتورع عن شيء مما ارتكبه غريبه ، ولذلك تجامى عن حكمة
ذم الرجل في سلوكه أو خلقه ، وعمد الى اثاره نخوته من سبيل
آخر فقال :

— ولكن ألا ترى أن هذا الرجل قد اعتدى على كرامتنا ،
يستوجب تأديبه ؟

ولم يغب عنه قوله « كرامتنا » وأدرك أنه يشير إلى الأخوة التي تربطه بحميده ، وذكر لتوه شقيقته المطروحة في السجن بسبب فضيحة مماثلة ، فاستشاط غضبا وحنقا وزأر صائحا :
- هذا شيء لا يعنيني ، ولتذهب حميدة إلى الشيطان .

ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فيما قال ، ولو كان لقي ذلك الرجل وقتذاك لوثب عليه كالنمر وأنشب فيه مخالبه ، ولكن الحلو خدع بقوله فصدقه وقال له بلهجة لا تخلو من عتاب :

- ألا يفضبك أن يعتدى رجل على بنت من زقاقنا هذا الاعتداء المنكر ؟ .. أسلم لك بأن حميدة مجرمة حقا ، وأن عمل الرجل في ذاته لا غبار عليه ، ولكن أليس هو بالنسبة إلينا اعتداء مشينا يستوجب الانتقام ؟ !

فصاح حسين بحدّة :

- أنت أحق ، ولست غاضبا لكرامتك كما تتوهم ، ولكن نيران الغيرة تلتهم قلبك الخرع ، ولو أن حميدة رضيت بأن تعود إليك لطرت بها فرحا . كيف لقيتها يا رطل ؟ ! . نازعتها الحديث والشكاة ؟ ! مرحى . مرحى . حييت من رجل همام ! . لماذا لم تقتلها ؟ ! أو كنت مكانك ورمت المصادفات إلى يدي بالمرأة التي خانتني لحنقتها بلا تردد ، ثم ذبحت عشيقها . واختفيت عن الأنظار هذا هو ما كان يجب أن تفعله يا رطل .

وتلبست وجهه الضارب للسواد صورة شيطانية ، فاستدرك مزمجرا :

- لست أقول هذا متهربا ، فالحق أن هذا الرجل ينبغي أن يدفع ثمن اعتدائه غالبا ، وليدفعه غالبا ، وسنمضي معا في الموعد المظروب ونوسعه ضربا ، ثم نرصد به مظانه جميعا ونوالى ضربه ولو اقتضى الحال أن نجشده له جيشيا من الأعوان ، ولا تكفي زقاق المدق .

- ٣٠٦ -

عنه حتى يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال . وبذلك ننتقم ونستفيد معا ! ..

وسر عباس بهذه النتيجة غير المتوقعة ، وقال بحماس :
- نعم الراى هو .. حقا انت رجل الملمات ! ..

وسره الثناء ، ومضى يفكر فى تنفيذ خطئه مدفوعا بغضبه لكرامته ، وميله الطبيعى الى العدوان ، وطمعه فى الحصول على مبلغ من النقود ، ثم غمغم بصوت ملؤه الندير « ما يوم الاحد بعيد ! » ، وبلغا عند ذاك ميدان الملكة فريدة فتوقف عن السير وهو يقول :

- عد بنا الى حانة فيتا ..

ولكن الآخر تشبث بذراعه وهو يقول :
- اليس من الافضل ان نمضى الى الحانة التى سنلقاه بها يوم الاحد لتعرف الطريق بنفسك ؟

وتردد حسين لحظات ، ثم سار معه كما اراد وقد حثا الخطا ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب ، ولم يكد يبقى من نورها الا ظلال خفيفة ، وشمل السماء ذلك الهدوء الخالم الذى تخلد اليه اذا تراءت لها طلائع الظلام ، واشتعلت مصابيح الطريق ، واطرد سيل السابلة لا يعباون اختلاف الليل والنهار ، ودوى سطح الارض على غير انقطاع ، فمن جمعة الترام الى ازيز السيارات ، ومن نداء الباعة الى نفخ الزمارات ، غير همهمة البشر ، فكانهما بخروجهما من المدق الى هذا الطريق قد انتقلا من المنام الى يقظة صاخبة ، وارتاح عباس الحلو وانتشمت الحيرة التى غشيت طويلا فعرف سبيله بفضل صاحبه الجريء القوى ، اما حميدة فقد ترك امرها معلقا للظروف المجهولة تفصل فيه بما تشاء ، ولم يستطع ان يبت فيه براى او انه اشفق من البت فيه براى جاسم ، وقد خجل له لحظة ان يفاجئ صاحبه ببعض

— ٣٠٧ —

خوابه ولكنه ما كاد يختلس الى وجهه الاسود نظرة حتى غاص الكلام في حلقة فلم ينبس بكلمة . وواصل السير حتى بلغا موقف الامس الذي لا ينسى فلكنز عباس صاحبه وهو يقول :

— هالك دكان الازهار الذي حادنتها فيه .

ونظر حسين الى الدكان الذي يشير اليه صامتا ثم ساله باهتمام :

— واين الحانة ؟

فاوما الى باب غير بعيد وهو يغتم : « هاهى ذى » ، وراحا يقتربان على مهل وحسين كرشة يتفحص المكان وما يحيط به بعينه الصغيرتين الحادثين ، ونظر عباس الحلو الى داخل الحانة وهما يمران بها فجلذب عينيه منظر غريب . نددت عنه شهقة ، وتصلبت عضلات وجهه ، ثم جرت الحوادث سريعة قبل ان يفقه لها حسين كرشة معنى : رأى حميدة فى جلسة شاذة بين نفر من الجنود ، كانت تجلس على كرسى والى ورائها جندى واقفا يسقيها خمرا من كأس فى يده ، ينحنى عليها قليلا وتميل هى برأسها اليه وقد مدت ساقها على حجر آخر يجلس قبالتها ، وحف بهم آخرون يشربون ويعربدون ، بهت الفتى وتسمر فى موقفه ، ونسى ما كان علمه من مهنتها ، وكان الخطب يدهمه على غير علم به ، وطمس الدم الفائر بصيرته ، فلم يعد يعرف غريبا له فى دنياه سواها ، واندفع الى الحانة كالجنون وصاح بصوت كالرعد :

— حميدة ..

وفزعت الفتاة مستوية على الكرسى ، وحملت فى وجهه بعينين ملتهبتين ، وغلبتها الدهشة ثوانى ، ثم ثابت الى رشدها وقد هالها ما يتهددها به حمقه من الفضيحة ، فصباحته به بصوت خشن فظ جعله الغضب كالرئير :

— لا تبقى هنا لحظة واحدة .. اغرب عن وجهى ..

وفعلت به غضبتها وصراخها فعل النفط بالنار فجن جنونه واختفى من نفسه ما طبع عليه من تهيب وتردد ، ووجد أخيرا ما عاناه في الأيام الثلاثة الماضية من قهر وعذاب وقنوط ثوبا في مرجل نفسه . فانطلق منه صارخا مصفرا مجنونا ، ولمح الى يساره بعض زجاجات البعة الفارغة على طاولة الحانة ، فتناول واحدة وهو لا يدرى ما يفعل وقذفها صوبها بكل ما يملك من قوة وغضب وقنوط ، في سرعة خاطفة لم يستطع ان يمنعها احد ، لا من الجنود ولا من عمال الحانة ، فأسابت الزجاجات وجهها ، وتفجر الدم غزيرا من انفها وفمها وذقنها ، وامتزج بالدهنة والمساحيق وسال على عنقها وفستانها ، واختلط صراخها بزئير السكارى الهائجين ، وانقض عليه الغاضبون كالوحوش الكواسر ، وتطايرت اللكمات والركلات والزجاجات ..

وقف حسين كرشة على باب الحانة يرى صاحبه تتقاذفه الأيدي والأرجل وهو كالكرة لا يملك للقضاء دفعا ، وكلما تلقى ضربة هتف صارخا : « يا حسين .. يا حسين » ، ولكن الفتى الذى لم ينكص عن خوض معركة في حياته لبث متسمرا لا يدرى كيف يشق سبيله الى صاحبه وسط أولئك الجنود الكواسر الفاتكين ، وتملكه الغضب ، واشتعلت ب صدره ثورة جالحة ، وأخذ يتلفت يمنة ويسرة عله يجد آلة حادة أو عصا أو سكيناً ، وبقي مقهورا مغلوبا على أمره ، وقد مضى السابلة يتجمعون عند مدخل الحانة متطلعين للمعركة باعين فرعة وأيد مغولة ..

- ٣٠٦ -

- ٣٥ -

أضاء الصباح بجنبات الزقاق ، وألقت الشمس شعاعا من
أشعتها على أعلى جدران الوكالة ودكان الحلاق ، وغدا الغلام
سنقر صبى القهوة فملا دلوا ورش الأرض ، وكان المدق يقرب
صفحة من صفحات حياته الرتيبة ، وأهله يستقبلون الصباح
بهتافاتهم المحفوظة ، وفي هذه الساعة الباكورة ينشط عم كامل
على غير عادته فيقف أمام صينية البسبوسة يحف به صبية
المدرسة الالزامية ويمتلئ جيبه بالماليم ، وفي مواجهته أكب
الحلاق المعجوز على المواسي يشحدها ، ومضى جمعة العران يحمل
المعجين من البيوت ، وأقبل العمال على الوكالة يفتحون أبوابها
ومخازنها ويخرقون الكون المخيم بجلبتهم التي لا تنقطع طوال
النهار . بينما تربيع المعلم كرشة وراء صندون الماركات في
جلسة حاملة يقضم شيئا بشنيتيه ويلوكة في فمه ثم يعتصره بقدر
من القهوة ، وقد جلس على كنب منه الشيخ درويش في صمت
وغيبوبة ، وفي هذه الساعة الباكورة أيضا تلوح الست سننية
عفيفة في نافذتها ، تشيع زوجها الشاب وهو يغادر الزقاق في
طريقه الى القسم . هكذا تطرد الحياة في المدق على وتيرة واحدة
الا أن يقلقها اختفاء فتاة من فتيانه أو ابتلاع السجن لرجل
من رجاله ، ولكن سرعان ما تنداح هذه الفقاعات في بحيرته
الهادئة أو الراكدة ، فلا يكاد يأتي المساء حتى يجر النسيان ذبوله
على ما جاء به الصباح . أضاء الصبح والزقاق يستقبل هذه
الحياة الهادئة المطمئنة ، ولما أن أقبل الضحى جاء حسين . كرشة
مكفهر الوجه ، ملتهب الجفون من عدم النوم ليلة كاملة ، يضرب

- ١١٠ -

الأرض بخطوات تقال ، فمضى إلى مجلس أبيه وأرمى على ترسي لقاءه . وهو يقول بصوت غليظ دون تحية أو سلام :

- قتل عباس الحلو يا أبى ..

وكان المعلم قد أوشك أن ينتهره لقضائه الليلة خارج البيت ، فلم ينبس بكلمة ، وحملق في وجهه بعينين ذاهلتين ، ولبت الحفلات جامدا ساهما كأنه لم يفهم ما القى على سمعه ، ثم سال بانزعاج شديد :

- ماذا قلت ؟

وكان حسين ينظر فيما امامه بعينين شاردتين فقال بصوت أجش :

- قتل عباس الحلو . قتله الانجليز ! ..

وازدرد الفتى ريقه ثم أعاد على أبيه ما حدث به عباس وهما يسيران في الموسكى قبل مغيب الأمس ؛ وقال بصوت حاد مضطرب :

- وقد مضى بى ليرينى الحانة التى وعدته أياها الفناء الشريرة ، وأنا لنمر ببابها إذ رأى العاهرة تعربد فى جمع من الجنود ، ففقد وعيه . واندفع الى داخل الحانة ورماها بزجاجة فى وجهها قبل أن اتنبه لقصده ، وهاج الجنود وانقضوا عليه عشرات وعشرات وأوسعوه ضربا حتى سقط بينهم لا حراك به .

وكور قبضته بحلق وقرض أسنانه قائلا بغضب :

- يا للشيطان ! .. ما كان بوسعى أن أخف الى نجدته ! ..

حالت دون ذلك جموع الجنود الكثيفة التى سدت الباب سدا . آه لو بلغت يداى عنق جندى من أولئك الملاعين ..

وكان هذا يحز فؤاده حزاً ، وما يشب فى صدره نار الغضب من غير انقطاع . حتى لقد انقلب الى الرقاق يكاد يستخفى من الخزى والعار : أما المعلم كرشة فقد ضرب كفا بكف وقال :

- ٣١١ -

- لا حول ولا قوة الا بالله ، وماذا فعلتم به ؟
- جاءت الشرطة بعد نفاذ القضاء وضربوا حول الحانة
حصاراً . وما عسى أن يفيد الحصار ؟ ، وحملوا جثته الى
قصر العيني ، ونقلوا العاهرة الى الاسعاف ..

فسأل المعلم باهتمام :

- وهل قتلت ؟ ..

فاجاب الشاب والحقد يأكل رأسه :

- لا اظن .. لا اظن الضربة كانت قاتلة ..! ضاع الفتى
هدراً .

- والانجليز ؟

فقال الشاب بلهجة أسيفة :

- تركناهم والشرطة تحيط بهم ، ولكن من ذا يستطيع أن
ينال منهم حقاً ؟

فضرب المعلم كفا بكف مرة اخرى وقال :

- انا لله وانا اليه راجعون ، وهل علم أهل الفتى بالخبر
الأسود ؟ اذهب الى خاله عم حسين القباقيبى بالخرنفس وأذنه
بموته ، والله يفعل ما يريد .

ونهض حسين يغالب تعبهِ واعيائه وغادر القهوة ، وذاع
الخبر ، وأعاد المعلم كرشة القصة التى رواها ابنه مرات ومرات
على المسائلين ، فتناقلتها الألسن ، وزادت عليها ما شاء لها
الهوى ، وجاء عم كامل القهوة مترنحاً وقد دهسه الخبر فصعقه
وارتمى على اريكة وراح يبكى بكاء مرا وينتحب كالاطفال ، ولا
يكاد يصدق أن الفتى - الذى أعد له كفناً - لم يعد من الأحياء ،
ونمى الخبر الى أم حميدة فغادرت البيت مولولة حتى قال
بعض من رآها انها « تبكى على القاتل لا على القتيل ! » وكان
اشبه الناس تأثراً بالسيد سليم علوان ؛ لا جزيلاً على الفقيل ؛

ولكن فرعا من الموت الذى اقتحم عليه الرقاق فانار مخاوفه وضاعف آلامه ، فعاودته أفكاره السوداء ، وتصويراته المريضة ، وأخيلة الاحتضار والموت والقبر التى أنهكت أعصابه . واستحوذ عليه القلق فقامت قيامته ونبا به مجلسه ، وجعل يروح ويجىء فى الوكالة . أو يخرج الى الرقاق فيلقى نظرة زائفة على الدكان الذى ظل دكلن الحلو أعواما طويلا . وكان أهفى نفسه - لسدة الحرارة - من شرب الماء الدافئ ، فامر العامل المكلف بخدمته بأن يخبئ له ماء للشرب كما كان يفعل فى الشتاء ، وقضى تلك الساعة نهبا للخوف والقلق وبكاء عم كامل يصك مسامعه صكا ..



وانداحت هذه الفقاعة ايضا كسوابقها ، واستودى المدق بفضيلته الخالدة فى النسيان وعدم الاكتراث . وظل كدابه يبكى صباحا - اذا عرض له البكاء - ويقهقه ناسحاكا عند المساء ، وفيما بين هذا وذاك تصر الأبواب والنوافذ وهى تفتح ثم تصر كرة أخرى وهى تغلق . ولم يحدث فى هذه الفترة امر ذو بال ، اللهم الا ما كان من اصرار الست سنية عفيفى على اخلاء الشقة التى كان يقطنها الدكتور بوشى قبل سجنه ، وما كان من تطوع عم كامل بنقل أثاثه ومعداته الطبية الى شقته ، وقيل فى تفسير هذا : ان عم كامل آثر اشراك الدكتور فى مسكنه على الوحدة التى لم يالفها ، ولم يعاتبه أحد فى ذلك ، بل لعلهم عدوها له من المكرمات ، لان السجن لم يكن مما يشين المرء فى المدق .

وتحدثوا فى تلك الايام عن اتصال أم حميدة بابنتها التى دخلت فى طور النقاهاة والشفاء ، وعما تحلم به المرأة من جنى بعض ثمار هذا الكنز المترع . ثم ثار اهتمام الرقاق فجأة حين سكنت أبيرة أحد البصبايين شقة الدكتور بوشى ، وكانت مكونة

- ٣١٣ -

من القصاب وزوجه وسبعة من الاطفال وفتاة حسناء ، قال
حسين كرشة عنها انها كفلقة القمر ، ولكنه عندما اقترب موعد
عودة الحاج رضوان الحسينى من الاقطار الحجازية لم يعد يفكر
احد الا فى هذا اليوم الموعود ، وقد ملقت الثريات والاعلام
وفرشت ارض الزقاق بالرمل ، ومنى الجميع نفوسهم بليلة
فرح وسرور تدوم ذكراها على الايام .

ويوما رآى الشيخ درويش عم كامل وهو يمازح الخلاق
العجوز .

فهتف وهو يرفع راسه الى سقف القهوة :

وما سمى الانسان الا لنسيه ولا القلب الا انه يتقلب

فتجهم وجه عم كامل ، وانطفا لونه ، وافرورقت عيناه ،
ولكن الشيخ درويش هز منكبيه استهانة ، وقال وعيناه
لا تزالان شاخصتين الى السقف :

من مات عشقا فليمت كمدا لا خير فى عشق بلا موت

ثم وحوح متنهدا واستدرك قائلا :

.. يا ست الستات .. يا قاضية الحاجات .. الرحمة ..
الرحمة يا آل البيت ، والله لاصبرن ما حييت ، أليس لكل شىء
نهاية !! بلى لكل شىء نهاية ..

ومعناها بالانجليزية end وتهجيتها . . e n d

مؤلفات الاستاذ نجيب محفوظ

الطبعة الاولى

١٩٣٢	مصر القديمة (مترجم عن الانجليزية)	
١٩٣٨	همس الجنون مجموعة اقاصيص	الطبعة السابعة ١٩٧٠
١٩٣٩	عبث الاقدار قصة تاريخية	» السادسة ١٩٦٩
١٩٤٣	رادوبيس قصة تاريخية	» السابعة ١٩٧١
١٩٤٤	كفاح طيبة قصة تاريخية	» السادسة ١٩٦٧
١٩٤٥	القاهرة الجديدة	» الثامنة ١٩٧١
١٩٤٦	خان الخليلي	» السابعة ١٩٧٢
١٩٤٧	رفاق المدق	» السابعة ١٩٧٢
١٩٤٨	السراب	» السابعة ١٩٧٠
١٩٤٩	بداية ونهاية	» الثامنة ١٩٧٠
١٩٥٦	بين القصرين	» التاسعة ١٩٧٢
١٩٥٧	قصر الشوق	» الثامنة ١٩٧١
١٩٥٧	السكرية	» السادسة ١٩٦٧
١٩٦١	اللس والكلاب	» السادسة ١٩٧٢
١٩٦٢	السمان والخريف	» الرابعة ١٩٦٧
١٩٦٣	دنيا الله قصص قصيرة	» الثانية ١٩٦٦
١٩٦٤	الطريق رواية	» الثالثة ١٩٦٧
١٩٦٥	بيت سيده السبعة قصص قصيرة	» الثالثة ١٩٧٢

الطبعة الأولى

الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الطبعة الثالثة	١٩٧٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	» الثانية	١٩٦٧
ميرamar	رواية	١٩٦٧	» الثانية	١٩٧٠
خارجة القط الأسود قصص قصيرة	١٩٦٩	» الثانية	١٩٧١	
تحت المظلة قصص قصيرة	١٩٦٩	» الثانية	١٩٧١	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	قصص قصيرة	١٩٧١		
شهر العسل	قصص قصيرة	١٩٧١		
المرايا	رواية	١٩٧٢		

